
دار الثقافة
أفكار في صراع
لماذا ندخل الصراع وكيف نحسمه؟

أفكار فى صراع

لماذا ندخل الصراع..وكيف نحسمه؟

تاليف

رونالد هـ. ناش

ترجمة

نكلس نسيم سلامة

مراجعة

أ. د. وليم فرج

أستاذ الفلسفة - جامعة بنها



World views in conflict
by Ronald H. Nash
Originally Published in the U. S. A.
under the Title
World Views in Conflict

Grand Rapids, Michigan

طبعة أولى

أفكار في صراع
صدر عن دار الثقافة - ص.ب ١٢٩٨- القاهرة

١٠/ ٧٦٤ ط١/١-١/ ٩٨
رقم الإيداع بدار الكتاب: ١١٩٠٦/ ٩٨
ISBN 977 - 213 - 445 - 4
جمع وطبع بمطبعة سيوبرس
تصميم الغلاف: أمجد تناغو

وجهة النظر العالمية هى مجموعة من المعتقدات المتعلقة بأهم الموضوعات فى الحياة، وهى إطار للمفاهيم أى ترتيب للأفكار، ومن خلال هذا الإطار يمكن للشخص أن يرتب كل ما يخص معتقداته وبالتالى يستطيع أن يفسر الواقع ويحكم عليه. وتساعد وجهات النظر العالمية أيضاً على تكوين صورة عامة للكون الذى يعيش فيه الإنسان وبالتالى يمكن أن ينسب أنشطته الجزئية إلى الكون ككل. وهناك اختبارات يجب أن تجتازها وجهة النظر العالمية لكى تكون مقبولة وجديرة بالثقة يتناولها هذا الكتاب بالشرح والتطبيق. والمسيحية كوجهة نظر عالمية تتيح للمسيحيين أن يروا إيمانهم على شكل مفاهيمى أو رأى متكامل عن العالم والحياة بدلاً من اعتبار المسيحية مجموعة متناثرة من الأفكار وبالتالى يستطيع المسيحيون أن يقيّموا معتقدهم على أساس نظام كامل وأن يقوموا فى نفس الوقت بالدفاع عن إيمانهم بفاعلية.

ومن الضرورى أن يلم الشخص بوجهات النظر العالمية المختلفة، وهذا ما يتناوله الكتاب فيشرح عدة مذاهب مثل مذهب النفعيين والطبيعيين وحركة العصر الجديد. (New Age Movement)

هذا الكتاب يعين القارئ على دخول معركة الأفكار متسلحاً بسلاح النضج العقلى وليس بسلاح الحماسة الزائدة.

دار الثقافة

فى هذا الكتاب

صفحة

مررت برجال الأمن، ثم تركت مدخل الفندق الذى كنت أُقيم فيه فى موسكو، ورأيت بعد قليل الحافلة التى تحملنا، إلى حيث ألقى أول محاضرة لى فى الاتحاد السوفيتى. كان ذلك فى مايو سنة ١٩٩١- قبل أسابيع قليلة من الانقلاب الفاشل، الذى عجّل دونما قصد بنهاية الشيوعية السوفيتية. كنت فى موسكو كعضو فى فريق دعته وزارة التعليم الروسية لكى يتحدث إلى مئات من المدرسين. ولم يكن أحدنا يعلم على وجه اليقين ما يمكن أن نتوقعه سواء من الموظفين الذين كانوا يرافقوننا، أو من المدرسين الذين سنحاضرهم.

كانت فرصة هائلة. والواقع أننى فيما كنت أقترب من الحافلة والمرافقين الذين كانوا سيصحبوننا، لم يسعنى إلا أن أفكر فى أن كل شىء آخر قمت بعمله حتى هذه اللحظة فى حياتى لم يكن سوى إعداد لهذا اليوم. فالسنوات التى قضيتها فى الدراسة والتعليم، والدرجات التى حصلت عليها، والكتابة، والنشر، كلها كانت كأنها تدريب فى مجموعات صغيرة. كنت كأننى لاعب مبتدىء جاء ليكون لاعباً هدّافاً ولأول مرة فى الفرق الكبيرة.

كانت مهمتى هى أن أزوّد المستمعين من خريجى الجامعات بالمعلومات التى تساعدهم على شرح الإيمان المسيحى لطلبتهم. أما وإننا جئنا بدعوة من موظفى الحكومة الروسية وبمعاونتهم، فهذا الأمر مازال موضع دهشتى. وبالنظر إلى أن مساهمتى كانت تقتصر على محاضرتين فحسب، فلقد اضطررتُ إلى أن أسأل نفسى، كيف يمكننى أن أقوم بمهمتى على أفضل وجه فى وقت قصير كهذا. وهناك محاضرون اخرون سيناقشون نواحٍ أخرى هامة من الإيمان المسيحى. ولذلك استقر رأيى على أنه ليس بمقدورى أن أعلّم شيئا أكثر أهمية من شرح ما نعنيه (بوجهة النظر المسيحية العالمية)، وأن أجرى مقارنة بينها وبين المعتقدات الغريبة التى تأصلت فى العملية التعليمية فى الاتحاد السوفيتى منذ استيلاء الشيوعيين على الحكم سنة ١٩١٧.

إن الأيام القليلة التى أمضيتها فى موسكو، هى من الأيام التى لا تُنسى. والجهود التى بذلتها للمقابلة بين وجهة النظر الكتابية العالمية، وبين الإلحاد، والمادية، والمذهب الطبيعى، والنسبية، وهى نظريات كانت مصدر التعليم لأجيال من السوفيت، كانت لها نتائج طيبة تتعدى مجرد مساعدة من حضروا محاضراتى على أن يروا أسلوباً جديداً من التعامل مع العالم وفهمه. وبالنسبة لكثيرين منهم كانت هذه وجهة نظر عالمية يشعرون أنهم يريدونها الآن من أجل أنفسهم.

وإنها لسخرية أليمة أن الملامح الأساسية لوجهة النظر العالمية لمؤيدى مذهب الطبيعيين، والتى رفضها كثيرون الآن من الناس فى الشعوب الماركسية السابقة، تظل جذابة لأعداد كبيرة من المتعلمين فى الغرب. وإنى مقتنع بأنه من بين الأسباب الرئيسية لذلك هو أن القليلين من الأمريكيين هم الذين تعلموا كيف يفكرون فى إطار وجهات النظر العالمية. أما الغالبية من الناس فهم لا يعرفون ما هى وجهة النظر العالمية، وليس بمقدورهم أن يوضحوا فحوى وجهة نظرهم العالمية، وهم لا يدركون كيف أن نواحٍ متباينة من وجهات

النظر العالمية المتضاربة، تتصارع فى إطار منطقى.

وما أهدف إليه بشكل أساسى فى هذا الكتاب هو أن أوصّل نص الرسالة التى قدمتها لمن استمعوا إلىّ فى الاتحاد السوفيتى. وأن أعمل على رفع مستوى وعى الإنسان فيما يتعلق بوجهات النظر العالمية، مما يشكل جزءاً ضرورياً من النضج العقلى. إلا أننى أريد من القارىء أيضاً أن يكتسب فهماً أوضح لمضمون وجهة النظر المسيحية العالمية. ولكى أحقق ذلك، قدمت فقرات موجزة لوجهتى النظر العالميتين اللتين تشكلان فى الولايات المتحدة التحديات الكبيرة للمنظور المسيحى. يُسمى أحد تلك التحديات بالمذهب الطبيعى. وكما سنرى لاحقاً، فإن المذهب الطبيعى يردد أصداء عناصر هامة من وجهة نظر الماركسية العالمية القديمة. والواقع أن الماركسية، كانت إحدى التعبيرات السائدة للمذهب الطبيعى فى القرن العشرين.

ووجهة النظر العالمية الأخرى التى عرضت لها، هى ما يُطلق عليها "حركة العصر الجديد"، The New Age والتى ما زالت تجذب أعداداً كبيرة من الأتباع. وفكر حركة العصر الجديد يتناقض فى معظم نواحيه مع مذهب الطبيعيين، وهو على النقيض من كل المعلومات الكتابية التى يؤمن بها المسيحيون. إلا أنه فيما تخلى شعب الاتحاد السوفيتى عن الماركسية، فإن معتقدات حركة "العصر الجديد" أخذت تملأ الفراغ الذى نجم عن ذلك فى وجهة النظر العالمية.

فكرت فى بداية الأمر، أن أجعل عنوان الكتاب "الانتصار فى معركة عالم الأفكار". ولم أكن أقصد لهذا العنوان الإشارة لتحقيق الانتصار أو أننى أقصد أنه قد تم كسب المعركة، أو أن النصر قريب على الأبواب. فالحاصل أن المسيحيين النشطين الذين يعملون فكرهم ينخرطون فى معارك فى كل يوم من حياتهم. من المسلم به أن معظم المسيحيين ينظرون إلى هذه المعركة من ناحية أبعادها الأخلاقية والروحية، إلا أننى أتناول هنا الجانب الفكرى من الصراع. فهذه معركة لا نود أن نخسرها، ومن ثم، كان اهتمامى أن أقدم مخططاً عن كيفية إمكانية قيامنا بعمل جيد لتهيئة أنفسنا لكى يكون أداؤنا مؤثراً فى عالم الفكر.

جاءت فكرة هذا الكتاب فى الأساس فى ذهن مدير إحدى المكتبات فى بويزا Boisa، أيداهو Idaho. فقد وجد هذا الرجل وبعض من أصدقائه فى حلقة دراسية، عدداً من كتاباتى السابقة النافعة أثناء بحثهم فى عديد من الموضوعات العامة. واقترح علىّ أن أفكر فى إعداد بعض هذه الكتابات، لتصلح كمحاضرات على نطاق واسع. وقد جاء هذا الكتاب استجابةً لهذه الفكرة الصائبة.

وعلى هذا، كتبته، وأنا أضع أمام عينى احتياجات القارىء العام واهتماماته. إلا أننى أخرجت الكتاب أيضاً كى يكون كتاباً مساعداً سواء فى الكلية، أو فى الحلقات الدراسية، حيث نطرح مقدمة عن التفكير المتعلق بوجهة النظر العالمية. وبذلت قصارى جهدى كى تكون حجج هذا الكتاب متاحة لأكبر عدد ممكن من القراء، إلا أنى واجهت صعوبة فى تحقيق هذا الهدف فى قليل من النقاط حيث كانت الموضوعات معقدة بشكل غير عادى. فالتبسيط شيء، والإفراط فى التبسيط شيء آخر. وأصعب جزء فى هذا الكتاب، تجده فى الفصل الخامس. ذلك أنى أتناول تحديين معقدين يتحديان الإيمان المسيحى، هما الادعاءات القائلة بأن الإيمان متناقض من الناحية المنطقية، لأنه يصر على أن يسوع المسيح هو إله كامل وإنسان كامل، فضلاً عن

أن هناك تأكيداً على أن وجود الشر فى العالم لا يتناغم منطقياً مع طبيعة الله. ولا توجد طريقة للتعامل مع هذه التحديات تكون فى ذات الوقت بسيطة ومسئولة. ولذلك فنصيحتى للقارىء هى ألا يتوقف عند ذلك الفصل. فبعد أن يكمل قراءة الكتاب كله، عليه أن يعود للفصل الخامس، ويتفهم المادة، أو يتذكر ببساطة مكان وجود هذه الحجج، إذا ما حدث واحتاجها في يوم من الأيام. فبوسع الإنسان أن يعيش حياة سعيدة عامرة دون أن يفهم كل نقطة ذُكرت فى الفصل الخامس.

يحب معظم المسيحيين الذين أعرفهم التحديات بشكل أو بآخر. قد يمارسون رياضة المشى، ويكافحون لقطع مسافة معينة فى زمن محدد، أو قد يحاولون تنظيم مباراة فى الجولف لمن هم دون الثمانين، أو تسلق جبل -أو أنهم- إذا ما ذكرنا واحداً من أعظم الأعمال فى الحياة -قد يقررون إقامة عائلة.

وبالنسبة لى، فإن ما يشكل لغزاً كبيراً أمامى هو لماذا نرى أناساً كثيرين جداً ممن يستجيبون بجسارة لتلك التحديات، ينأون بأنفسهم عن التحديات الكثيرة الموجودة فى عالم الأفكار، وفيما يجهد كثيرون منا أجسادهم إلى أقصى حد، فإن أى استعمال غير ضرورى لعقولنا، يُعامل بنفس الازدراء الذى كنا نبديه ونحن أطفال عندما نأكل سبانخ أو قنبيطاً. إن ما أقصده هو أن يكون هذا الكتاب بشكل ما فى أيدى آلاف من الرجال والنساء، الذين سيبدأون فى تدريب أذهانهم، ولمن سيكرسون ويُعدون أذهانهم، وللذين سيكونون أكثر إدراكاً بالمعركة الموجودة فى عالم الأفكار، والذين سيزودون أنفسهم بكل ما يلزم لبدء النصرة فى المعركة.

إن معظم المسيحيين يعرفون كلمات بولس التالية:

"تقووا فى الرب وفى شدة قوته. البسوا سلاح الله الكامل لكى تقدروا أن تثبتوا ضد مكايد إبليس. فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر مع أجناد الشر الروحية فى السماويات. من أجل ذلك احملوا سلاح الله الكامل لكى تقدروا أن تقاوموا فى اليوم الشرير.."
(أف ٦: ١٠-١٣).

وعلى الرغم من أن هذه فقرة مألوفة، إلا أنه قد أساء الكثيرون منا فهم كل أبعاد فكر بولس. ونحن نعرف أنه واصل كلامه ليعدّد العناصر المختلفة لسلاح المسيحى، مثل درع البر، وترس الإيمان، وخوذة الخلاص. إلا أننا كثيراً ما نفشل فى وضع سؤال أساسى بخصوص هذا السلاح. لماذا يحتاج أى شخص إلى سلاح دفاعى مثل هذا، إلى جانب السلاح الهجومى الذى ذُكر فى النص، "سيف الروح الذى هو كلمة الله"؟ والإجابة ببساطة هى: يحتاج المسيحيون إلى سلاح لأنهم منخرطون فى حرب.

إلا أنه حتى بعد أن نفهم هذه النقطة، فإن بعض المسيحيين يخفقون فى رؤية الأبعاد الكاملة لهذه المعركة. فالبعض غالباً ما ينشغلون بالأشياء العليا أو "الروحية"- لأنهم مشغولون بالأخرويات- حتى أنهم عندما يصل إدراكهم أحياناً أن الحياة المسيحية تشملهم بنوع من الحروب، فإنهم يميلون إلى اعتبارها حرباً روحية فحسب، ولا ينظرون إليها إلا فى ضوء الاعتبارات الأخلاقية. ولا أجرؤ أن أشوه سمعة هذا البعد الروحى والأخلاقى من الحرب المسيحية. غير أنها أحياناً تكون أكثرمن ذلك. وإن هذا البعد الآخر الذى يتمثل

فى انخراط المسيحيين فى الحرب، هو الذى أود أن أركز عليه فى هذا الكتاب.

والكنيسة المسيحية. منذ بدايتها، كانت منخرطة فى حروب تتضمن أفكاراً، ونظريات، ومذاهب فكرية، وافتراضات، وحجج. يمكن أن تجد هذه الحروب فى عالم الأفكار فى جميع أرجاء العهد الجديد، فهى توجد فى الأناجيل فى الأسئلة التى تدور حول هوية يسوع. "من يقول الناس إنى أنا ابن الإنسان"؟ وجه يسوع هذا السؤال إلى بطرس (مت ١٦:١٣). كما توجد فى بداية سفر أعمال الرسل، وتدور حول حقيقة قيامة المسيح بالجسد. وهى تُطرح فى إطار علاقة المسيحية بناموس العهد القديم: وفيما إذا كان يجب أن يكون الإنسان يهودياً صالحاً كى يكون مسيحياً صالحاً؟ ولكى يكون الإنسان مسيحياً، هل يتعين عليه طاعة ناموس العهد الجديد؟ وعلامات الحرب هذه فى عالم الآراء تظهر فى إشارات العهد الجديد الخفية إلى معتقدات تمثل عناصر من الغنوسية، وهو تهديد تطور بشكل تام فى القرن الثانى.

وتواصلت حرب الأفكار عبر القرون الأولى للكنيسة حيث حارب القادة المسيحيون أصحاب الأفكار الهرطوقية، وأجبرت هذه التحديات التى واجهها إيمان الكنيسة على صياغة وتنظيم أفكارها بالنسبة لتعاليم هامة مثل لاهوت المسيح، لاهوت وأقنومية الروح القدس، والثالوث القدوس. وفى فترة الإصلاح الدينى اختصت المعركة الدائرة فى عالم الأفكار بالجهود التى تُبذل لإنقاذ نقاء معتقدات العهد الجديد من تحريفات ذلك التعليم الذى تسلل إلى الكنيسة أثناء القرون الوسطى. فى القرن الثامن عشر أخذت المعركة تشن هجومها على الشك الذى تولد من حركة التنوير الفلسفية. أما كنيسة القرن التاسع عشر فقد واجهت التحديات الموجهة ضد سلطان الكتاب المقدس، وكذلك المشاكل الجديدة التى أثارتها نظرية داروين. وفى أوائل القرن العشرين، ناضل المسيحيون ضد النزعة اللاهوتية التحررية.

وبدا خلال العقود الأولى من هذا القرن، أنه لم يعد للمعارك الدائرة فى عالم الأفكار وجود فى الحياة اليومية للمسيحى العادى. فهذه المعارك كانت تدور فى العادة فى الدوائر الأكاديمية- الكليات والجامعات البارزة وفى الحلقات الدراسية اللاهوتية- فى حين أن أعداداً قليلة من الأمريكيين يحضرون الكليات، وغالبية المسيحيين العاديين يميلون لإعطاء قليل من التفكير فى هذه الموضوعات.

ومع ذلك، فكان لعدم المبالاة هذه ثمن كبير. وأخيراً، فالأفكار المضادة للمسيحية التى سادت المراكز الفكرية فى أمريكا، تسللت إلى كثير من كليات اللاهوت، بل وصل عدم الإيمان أيضاً إلى منابر عدد من الكنائس التى كانت آمينة فى السابق. وبالنظر إلى أن كثيرين من شعب الكنيسة يجهلون الأمور اللاهوتية أو لا يهتمون بها، لذلك لم ينتبه أحد إلى حقيقة أن بعض الرعاة يعظون الآن بإنجيل جديد- إنجيل ينكر فى الواقع كل عقيدة أساسية فى إيمان العهد الجديد. واستغرقت الطوائف الأمريكية الكبرى فى النزعة التحررية والشك، لأنه فى القرن الذى أعقب الحرب الأهلية الأمريكية، فقدت الكنيسة المسيحية المعركة فى عالم الأفكار.

غير أن هذا الكتاب لا يتناول تلك المعارك القديمة، على الرغم من أنه يتوجب على الكنيسة أن تظل

مهيأة للتعامل مع الأخطاء القديمة التي تواصل نشرها في بعض الدوائر بما فيها عدد ليس بقليل من الأقسام الدينية في الكليات وفي الحلقات الدراسية. لكن هذا الكتاب يتناول بالأحرى الخطوات الهامة التي يتوجب على المسيحيين اتخاذها في أيامنا هذه كي يعدّوا أنفسهم للمعارك الفكرية التي تجابهنا.

وأهم خطوة بالنسبة للمسيحيين هي أن يصبحوا على دراية بوجهة النظر المسيحية العالمية، وجهة نظر شاملة ونظامية عن الحياة وعن العالم ككل. وليس بمقدور أي مؤمن في الزمن الحاضر أن يكون فعالاً حقاً في مجال الأفكار حتى يتدرب على أن يفكر في إطار وجهة النظر العالمية ولكن، كيف تختلف وجهة النظر المسيحية العالمية عن وجهات نظر الأعداء؟ ما هي النقاط الضعيفة في وجهات النظر العالمية المتنافسة؟ كيف يمكننا استخدام أفضل الحجج ضدها؟

يقدم الفصل الأول للقارىء فكرة وجهة النظر العالمية. ما هي وجهة النظر العالمية؟ لماذا كان التفكير في إطار وجهة النظر العالمية أمراً هاماً؟ يقوم الفصل الثاني على ما جاء بالمناقشة السابقة، ويقدم تحليلاً واضحاً ودقيقاً لوجهة النظر العالمية المسيحية. أما الفصل الثالث فيقدم ثلاثة اختبارات معروفة على نطاق واسع، لمساعدة المؤمنين على اتخاذ الخيارات العقلانية من بين وجهات النظر العالمية المتنافسة. فالاعتقاد بأن جميع وجهات لنظر العالمية مقبولة بنفس القدر وجديرة بالثقة يُعد نوعاً من الانتحار الفكري.

وأحد الاختبارات الثلاثة التي يجب أن يخضع لها كل رأى عالمي هو اختبار العقل، أي قانون عدم التناقض. أما الفصل الرابع فيلقي نظرة أوسع على هذا الاختبار، ومن بين الأمور الأخرى التي يتناولها الفصل، ينصح المسيحيين ألا ينظروا إلى العقل أو المنطق على أنه عدو للإيمان. لأنه من الأمور الحيوية الهامة أن تنجح المسيحية في اختبار العقل. إنه لأمر ملحّ أن يكون المسيحيون قادرين على الدفاع عن إيمانهم ضد الإدعاءات التي هي من ناحية ما تناقض نفسها. وهناك تحديات من هذه الناحية تم تقييمها في الفصل الرابع، وهما على وجه التحديد: الادعاء بأن وجود الشر في العالم لا يتناغم منطقياً مع الإيمان المسيحي بوجود إله صالح كلي القوة وكلي المعرفة، إلى جانب التأكيد على أن الإيمان المسيحي بأن يسوع هو إله وإنسان ينتهك قانون عدم التناقض. وقد قدمت للقارىء إجابة بسيطة بقدر الإمكان على كل من هذين الإدعائين.

وإذا كان على الإيمان المسيحي أن يصمد في ميدان الأفكار، فيتعين عليه أن يكون قادراً على أن يتعامل بشكل مرضٍ مع الموضوعات الأخرى التي يثيرها موضوع الشر. وعلى هذا يلقي الفصل السادس نظرة أخرى على هذه المنطقة الصعبة، ويقدم للقارىء المسيحي عوناً إضافياً.

ويفحص الفصل السابع ما يمكن أن نقول عنه إنه المنافسة المسيحية الرئيسية في العالم الغربي حتى الآن، والمتمثل في وجهة النظر العالمية المعروفة باسم "مذهب الطبيعيين". ويشرح الفصل الثامن ويقيّم التحدي الجديد الذي أمامه وهو: "حركة العهد الجديد" The New Age Movement.

ويخلص هذان الفصلان إلى أن كلاً من مذهب الطبيعيين، وحركة العصر الجديد يعانيان من مشاكل تسلبهما صلاحيتهما كخيارين قابلين للتطبيق فى عالم الأفكار.

ويبحث الفصل التاسع الحجة التى يمكن الاستناد إليها لدعم المعتقدات المسيحية الأساسية الخاصة بتجسد المسيح وقيامته. وإن التمكن من هذه المعلومات يعطى المسيحيين القدرة على التحرك من وضع الدفاع، والانتقال إلى وضع الهجوم. ويختتم الفصل العاشر مناقشتنا بذكر خطوتين تاليتين يتوجب على المهتمين بالصراع فى عالم الأفكار القيام بهما.

تصلنى أسبوعياً أخبار عن أناس اكتسب تفكيرهم المسيحى حيوية نتيجة المعلومات التى تضمنها هذا الكتاب. أما المؤمنون الذين لم يتدربوا على التفكير على المستوى العالمى فإنهم يشبهون ملاكماً يده مغلولة وراء ظهره. وتعوق رغبته فى الأداء الحسن قيود لا ضرورة لها. والتى من أهمها القدرة على التفكير على مستوى الآراء العالمية.

الفصل الأول

ما المقصود بعبارة: وجهة نظر عالمية؟

وجهة النظر العالمية، هى بكل بساطة، مجموعة من المعتقدات المتعلقة بأهم الموضوعات فى الحياة. فالنظم الفلسفية للمفكرين العظماء مثل أفلاطون وأرسطو، ما كانت سوى وجهات نظر عالمية. وكل إنسان عاقل ناضج، وكل قارىء لهذا الكتاب له وجهة نظر عالمية كما كان الحال تماماً بالنسبة لأفلاطون. ويبدو أحياناً أن عدداً قليلاً من البشر لديهم فكرة عن ماهية وجهة النظر العالمية، أو أن لديهم وجهة نظر عالمية خاصة بهم. ولذلك فإن وصولنا إلى إدراك وجهة نظرنا العالمية من أهم الأشياء التى بمقدورنا أن نعملها لتعزيز فهمنا لأنفسنا، كما أنه من الضرورى أن يكون لدينا فكرة عن وجهات نظر الآخرين العالمية وهذا يُعد من الأمور الضرورية لكى نفهم ما الذى جعلها وجهات نظر معروفة.

ويتمثل هذا ضمنياً فى أن تتماسك هذه المعتقدات بطريقة ما، وتشكل نظاماً. وهناك مصطلح رائع يمكن أن يكون مفيداً هنا وهو: "إطار المفاهيم"، وأعنى به نمطاً أو ترتيباً للمفاهيم (الأفكار). وعلى هذا، فإن وجهة النظر العالمية هى (إطار لمفاهيم) والذى بواسطته -وعن وعى أو دونما وعى- نرتب كل شئ يخص معتقداتنا، والذى بواسطته نفسر الواقع ونحكم عليه.

ومن أهم الأشياء التى نستطيع عملها للآخرين مساعدتهم على الوصول إلى فهم أفضل لوجهات نظرهم العالمية -كما أنه يمكننا معاونتهم على تحسينها، الأمر الذى يعنى القضاء على المتناقضات، وتقديم المعلومات الجديدة التى ستساعد على سد الثغرات الموجودة فى نظام المفاهيم. ويشارك فيلسوف جامعة متشجان Michigan چورچ ماڤروديس Grorge Maverodes هذا الرأى المتعلق بأهمية التفكير بوجهة نظر عالمية فيقول:

"إن تزويد الفرد بإطار مفاهيمى يستطيع فيه أن يرى حياته كلها كما لو كان قد قضاها فى محضر الله، يساوي تماماً تعلّمه قراءة نص غريب. بمقدورنا أن نزود الفرد بمفتاح بطريقة وأسلوب حجر رشيد، وذلك بإخباره بمعنى نقش معين. فإذا صدق ما قلناه له فإنه فى هذه الحالة يستطيع أن يفهم هذا النقش. أما اختبار ما إذا كان قد تعلم بالفعل كيف يقرأ النقش، وكذلك تأكيد أن الترجمة التى قدمناها له كانت صحيحة، فينم حين يقابل كل النقوش الأخرى المبعثرة فى عالمه. فإذا لم يستطع قراءتها، هنا لا يكون قد تعلم بعد تلك اللغة، ويكون لا يزال متشككاً فى أن ما أعطيناه له قد لا يكون ترجمة على الإطلاق، بل مجرد رسالة لا تنتمى بأى حال إلى ما كان مكتوباً".

ويقدم الفيلسوف (و.ب. ألستون W.P. Alston) سبباً آخر لأهمية وجهات النظر العالمية فيقول:

"ويمكن أن تقوم المناقشة على أساس العناصر الرئيسية المتعلقة بطبيعة الإنسان وظروف حياته، وأن الناس فى أمس الحاجة لتكوين صورة عامة للكون الذى يعيشون فيه بجملته، حتى يمكنهم أن ينسبوا أنشطتهم الجزئية إلى الكون ككل، وبطريقة لها معنى عندهم، وأن الحياة التى لا يتم فيها هذا، هى حياة فقيرة فى أهم جوانبها".

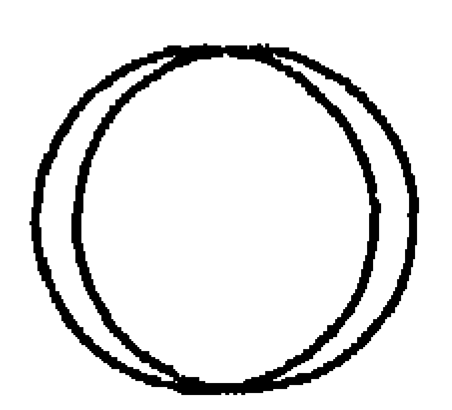
إن المنظار السليم يمكن أن يضع العالم فى بؤرة أوضح، ويمكن أن تعمل وجهة النظر العالمية الصحيحة

إلى حد كبير بنفس الطريقة. وحين ينظر الشخص إلى العالم بنظرة عالمية خاطئة، فإن العالم لن يكون له معنى بالنسبة له، أو أن ما يعتقد أن له معنى سيكون في حقيقة الأمر خاطئاً في نواحٍ هامة. فوضع الخطة المفاهيمية الصحيحة أى النظر إلى العالم من خلال وجهة النظر العالمية الصحيحة، يمكن أن يكون له تداعيات هامة بالنسبة لبقية مفهوم هذا الشخص للأحداث والأفكار.

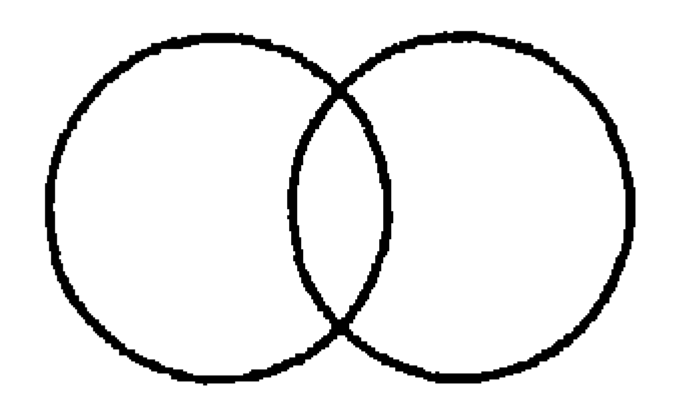
يعرف معظمنا أناساً يبدون أنهم عاجزون عن رؤية نقاط معينة تكون واضحة لنا (يرى هؤلاء إننا عنيدون، كما يروننا أيضاً قليلي التبصر). وكثيراً ما يبدون وكأن بداخلهم مصفاة تمر منها المعلومات والحجج لتخرج بمعان ملتوية وغير واضحة، وقد يرجع ذلك لأسباب خاصة بهم، إلا أنه عادة ما يكون ذلك نتيجة وجهة نظرهم العالمية. وإن قدرة البعض على أن يكونوا منفتحين للمعتقدات الجديدة كثيراً ما تكون بتأثير النظام المفاهيمى الذى من خلاله يتعاملون مع العالم وإدعاءات الآخرين.

وكثير من الخلافات بين الأفراد والمجتمعات والأمم ما هى إلا نتيجة صراعات بين الآراء العالمية المتنافسة. ومن المؤكد أن هذا هو الحال بين معارضى الإجهاض ومناصريه، فالفريق الأول يقف إلى جانب وجهة النظر التي تنادى بالمحافظة على الحياة، أما الفريق الثاني فيقف إلى جانب وجهة النظر التى ندعو إلى حق الاختيار. وهذا ينطبق أيضاً بالنسبة للأعداد المتزايدة من الصراعات بين أنصار الحركة الإنسانية من الدنيويين، والمؤمنين المتدينين.

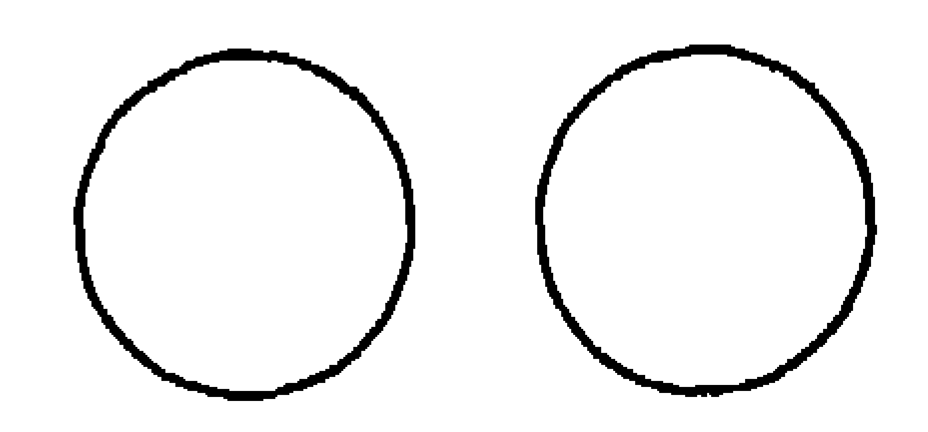
ولعله من النادر أن تتطابق وجهات النظر العالمية لشخصين بالنسبة لكافة التفاصيل الهامة. وقد يكون من المفيد أن ننظر إلى الآراء العالمية المختلفة كدوائر تتداخل بدرجة كبيرة أو صغيرة. وفيما يلى ثلاثة أزواج من الدوائر المتحدة المركز توضح لنا العلاقة بين ثلاث مجموعات من وجهات النظر العالمية.



تمثل الدائرتان الموضحتان عاليه وجهتا نظر عالمتين متماثلتين فى معظم الموضوعات. وكمثال، فإنهما قد يمثلان الخطط المفاهيمية لاثنين من المسيحيين من ذوى الفكر اللاهوتى المحافظ، ولكنهما من طائفتين مختلفتين. وعلى الرغم أنه من المفهوم أن مثل هذين الشخصين سوف يختلفان حول كثير من الأشياء، إلا أنهما يشتركان فى التزام يجمع بينهما بالنسبة للمعتقدات الأساسية لوجهة النظر المسيحية العالمية.



صورة الدائرتين التاليتين تمثل الآراء العالمية لشخصين يختلفان بشكل أكبر مما يتفقان.



لا تتداخل الدائرتان السابقتان إطلاقاً. وهما لاتمثلان سوى وجهات النظر المنفصلة لكل من الچنرال نورمان شوارزكوف، وصدام حسين.

نصيحة رعوية: الشخصان اللذان تعبر الدائرتان الأخيرتان عن وجهة النظر لديهما لا يجب أن يتزوج أحدهما بالآخر، فأغلب المشاكل-وخاصة التي لا يوجد لها حل-تنشأ بين شخصين فشلت وجهة نظر كل منهما في التداخل بأي نسبة من النسب.

المسيحية كوجهة نظر عالمية

ينبغي أن ننظر إلى إيماننا على أنه نظام مفاهيمي، كرأي متكامل عن العالم والحياة بدلاً من اعتبار المسيحية مجموعات متناثرة من الأفكار اللاهوتية يمكن تبنيها أو الإيمان بها. وعندما يفهم الناس أن المسيحية، وخصومها في عالم الأفكار، ما هي إلا وجهات نظر عالمية، فإنهم سيكونون في وضع أفضل للحكم على النظام المسيحي كله. كتب (وليم ابراهام William Abraham) في هذا الصدد يقول:

يجب تقييم الاعتقاد الديني ككل وليس على أجزاء. والمسيحية، على سبيل المثال، شأنها في ذلك شأن المعتقدات العالمية الأخرى، هي نظام من المعتقدات واسع النطاق ومعقّد، ويتعين النظر إليه ككل قبل تقييمه، أما وأن تفصله إلى أجزاء غير مترابطة فهذا معناه أنك تبتر طابعه الحقيقي، أو تشوهه. ويمكننا بالطبع، أن نميز بين عناصر معينة في العقيدة المسيحية، إلا أنه علينا أن نتوقف وننظر إليها كتفاعل مركب من هذه العناصر، بل ونحتاج أن ننظر إليها كنظام غيبي، لوجهة نظر عالمية كاملة في مجالها ومداها.

إن الإيمان المسيحي بالله أو عدم الإيمان به يجب أن يُتخذ ويقيم على أساس نظم كاملة. فالمسيحية لاتخبر الناس ببساطة كيف يمكن أن تُغفر لهم خطاياهم، ومهما بلغت أهمية هذه المعلومات. فالمسيحية هي أيضاً وجهة نظر عالمية كاملة عن العالم والحياة. وإيماننا لديه أشياء هامة ليقولها عن الحياة البشرية كلها. وعندما يفهم المسيحيون وبطريقة نظامية كيف أن الاختيارات المسيحية هي أيضاً وجهات نظر عالمية، فإنهم سيكونون في وضع أفضل لتبرير اختيارهم للمسيحية بطريقة عقلانية. والسبب في أن كثيرين يرفضون إيماننا ليس لأن مشاكلهم تتعلق بموضوع أو اثنين، بل كان رفضهم نتيجة لنظامهم المفاهيمي المضاد للمسيحية، والذي حملهم على أن يرفضوا معلومات وحجج تشكل للمؤمنين دعماً لوجهة النظر المسيحية. ولدى كل رأي عالمي أسئلة يبدو أنها لا تجد إجابة مُرضية.

ومن الواجب أن يكون لدى كل المسيحيين القدرة على أن يدافعوا عن إيمانهم بفعالية، ومن ثم، فإن دورنا المهم هو أن نجهز أنفسنا حتى يكون بوسعنا أن نوضح للمسيئين أن وجهة النظر المسيحية العالمية تسمو على أي نظام بديل من النواحي العقلانية والأدبية والوجودية.

وبالنظر إلى أن عناصر كثيرة جداً من وجهة النظر العالمية هى فلسفية بطبيعتها، فإنه لأمر حيوى أن يصبح المسيحيون أكثر وعياً بأهمية الفلسفة، فالفلسفة لها أهميتها. وترجع آهميتها إلى أن وجهة النظر العالمية المسيحية لها علاقة جوهرية بالفلسفة وعالم الأفكار. والفلسفة مهمة أيضاً لأن لها علاقة قوية بالحياة والثقافة والديانة. وهى مهمة لأن النظم التى تعارض المسيحية تستخدم وسائل وأسانيد الفلسفة. ومع أن الفلسفة والدين يستعملان لغة مختلفة، وكثيراً ما ينتج عن كل منها نتيجة تختلف عن الأخرى، إلا أنهما يتعاملان مع نفس الأسئلة التى يدور بعضها حول ما هو موجود (النواحى الغيبية)، وكيف يتعين أن يعيش الناس (أخلاقية)، وكيف يصل الناس إلى المعرفة (نظرية المعرفة).

الدور المهم للافتراضات المسبقة

لكل منا معتقدات يفترضها مقدماً، أو يقبلها دون الرجوع إلى المعتقدات أو الحجج أو الأدلة الأخرى. إذا كان لنا أن نفكر فمثل هذه الافتراضات المسبقة ضرورية. وحسب قول المفكر المسيحى أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م) علينا أن نؤمن بشيء قبل أن نعرف أى شيء. وحين نفكر فنحن ببساطة نأخذ بعض الأشياء كقضية مسلم بها. والتفكير فى ماينتج من هذه الافتراضات المسلم بها سواء كان فى مجال الفلسفة أو مجال الدين له أهمية كبرى.

يميل طلبة الهندسة المبتدئون إلى التغاضى عن أهمية البديهيات الموجودة فى بداية كتبهم. فهم يقرأونها بسرعة للوصول إلى ما يعتقدون أنه العمل الأكثر أهمية لحل المسائل. ورغم أن البديهيات أساسية لكل البراهين التالية فى النظام، فهى نفسها لم تُثبت ولا هى حتى قابلة للإثبات. ومع ذلك، سرعان ما يدرك الطلبة المتقدمون أنه بالنسبة لصحة كل الحجج التالية، فإن هذه المعطيات الأساسية أكثر أهمية من كل المسائل والحلول اللاحقة. وإذا أُنكرت البديهيات، فإن الافتراضات التى أُخذت عن البديهيات لا تكون صحيحة لأنه لا يوجد بها ما نتبعه، وتصبح صحة النظام كله موضع شك. وبطريقة مماثلة. تعتمد المعرفة البشرية على افتراضات معينة لا يمكن التعبير عنها، وأحياناً غير معروفة بالتحديد، ولم تتبرهن صحتها بعد فى كثير من الأحيان.

وكما يشرح فيلسوف (نوتردام Notre Dame) "توماس موريس Thomas Morris": إن أكثر الافتراضات المسبقة أهميةً فى منظومة معتقدات أى شخص هى أكثر المعتقدات جوهرية وعمومية عن الله والإنسان والعالم، والتى بمقدور أى إنسان أن يتبناها. وهذه فى العادة لا يتبناها الإنسان عن وعى، بل هى تعمل كالمنظور الذى منه يرى الفرد ويفسر كلا من أحداث حياته، وبالظروف المختلفة للعالم من حوله. وهذه الافتراضات المسبقة-فى تزامنها بعضها مع بعض-تعين الحدود التى يمكن فى إطارها تبنِّى كل المعتقدات الأخرى الأقل أهمية".

وحتى العلماء يضعون افتراضات معرفية وميتافيزيقية وأخلاقية مهمة. فعلى سبيل المثال، يفترضون أن المعرفة ممكنة، وأن الاختبار الحسي يمكن أن يعوَّل عليه (معرفية)، وأن الكون منتظم (ميتافيزيقية)، وأن

العلماء يجب أن يكونوا أمناء (أخلاقية). وبدون هذه الافتراضات المسبقة-والتى ليس بوسع العلماء إثبات صحتها فى إطار حدود منهجهم-فإن البحث العلمى سينهار سريعاً.

والافتراضات الأساسية، أو الافتراضات المسبقة لها أهميتها بسبب الأسلوب الذى يحددون به طريقة وهدف فكرهم النظرى. ويمكن تشبيههم بقطار يجرى على قضبانه بدون توجيه، وما أن يلزم شخص نفسه بمجموعة معنية من الافترضات المسبقة، إلا ويكون قد حدد اتجاهه وغايته. وقبول الافتراضات المسبقة لوجهة النظر المسيحية العالمية سيؤدى بالشخص إلى نتائج مغايرة تماماً عن تلك، ومثال لتلك الافتراضات المسبقة الخاصة بالمذهب الطبيعى. فبديهيات الإنسان تحدد نظرياته.

الأسس غير المستندة إلى نظرية ما لفكر يتعلق بنظرية ما

قد يبدو عنوان هذا القسم وكأنه يأخذ شكلاً فنياً بلا داعٍ، إلا أنه يعتبر أفضل لغة لتقديم نقطة بالغة الأهمية. لقد حاول عدد من الكاتبين المسيحيين أن يلقوا الضوء على حقيقة أن نوعيات التفكير المؤسس على نظريات فى العلوم والفلسفة، بل وحتى فى الفكر اللاهوتى، يتأثر بشدة بالاعتبارات غير المستندة إلى نظرية ما. ومن الصعوبة تجاهل البُعد الشخصى الذى يدخل فى قبول الإنسان وتقييمه لوجهة نظر عالمية بما تتضمنه من نظم دينية كالمسيحية. وسيكون من الغباء الادعاء بأن الناس دائماً يعالجون مثل هذه الأمور بموضوعية وبصفة غير شخصية، دون أية اعتبارات متأصلة فى تكوينهم النفسى. أناس كثيرون يعبرون عن عجزهم عن التفكير بوضوح فى وجهة نظرهم العالمية. معظمنا تقابل مع أناس أو قرأ كتابات أولئك الذين يبدون أسرى لخطة مفهومية حتى أنهم يعجزون عن الاستماع بدون تحيز لأية حجة أو حقيقة تهدد نظامهم. وهذا ينطبق على من يؤمنون بإله واحد، أو غيرهم.

وأحياناً يجد الناس صعوبة فى مواجهة حجج وأنظمة متنافسة نتيجة افتراضات فلسفية مسبقة. إلا أن أحكامهم بخصوص نظرية ما كثيراً ما تبدو متأثرة بشكل مبالغ فيه بعناصر لا ترجع إلى آية نظرية محددة. وهكذا يكون الحال -على سبيل المثال- حينما تحمل التفرقة العنصرية الناس على اعتناق معتقدات معينة غير حقيقية عن أولئك الذين كانوا موضع تلك التفرقة. وأحياناً تكون هناك عوامل خاصة تدفع شخص ما لاعتناق أفكار لا تستند لأي نظرية، حيث تكون متأصلة فى تاريخه الشخصى. ولقد اقترح بعض الكُتّاب أن هناك نوعاً آخر من النفوذ غير النظرى يؤثر فى تفكيرنا. وطبقاً لما يقوله هؤلاء. فإن أفكار الناس وأعمالهم لها جذور دينية، بمعنى أنها تنتمى إلى قلب الإنسان، الذى هو مركز موقفنا تجاه الدين. لا يمكن أن يكون البشر محايدين بالنسبة لله. فإما أن نعبد الله بصفته الخالق والسيد، وإما نحن بعيدون عنه. ذلك أن القلب إما أنه موجه إلى الله، وإما ضده، فلا يمكن للتفكير المؤسس على نظرية ما أن يكون نقياً أو مستقلاً بحسب ما يعتقد كثيرون. وفيما يطرح هذا النهج من التفكير أسئلة لا يمكن مناقشتها فى هذا الكتاب، إلا أنه يبدو أن البعض ممن رفضوا المسيحية على أساس نظريات محددة أو اتجاهات عقلانية، هم فى واقع الحال يتصرفون تحت تأثير عوامل غير عقلانية، أى التزامات جوهرية بقلوبهم. ويجب تشجيع الناس على أن ينقبوا تحت السطح ويكشفوا عن الافتراضات الأساسية الفلسفية والدينية المسبقة التى يبدو أنها كثيراً ما تتحكم فى تفكيرنا.

وعلى الرغم من أنه كثيراً ما تؤثر العوامل التى لا تستند إلى نظرية ما على تفكير الناس تأثيراً شاملاً، إلا أن هذا التأثير لا يكون تاماً بالمعنى الذى يعوق التغييرات التى تغير مجرى الحياة. إن حالة شاول الطرسوسى-وهو من ألد أعداء المسيحية الأولى-وهو شخص تحمس لنظام بدا أنه يستبعد أى احتمال لتغييره أو تجديده، تشجعنا على الاعتقاد بأن ليس من أحد غير قادر على التغيير. فالناس يغيرون بالفعل نظمهم المفاهيمية. فالتغيير موجود على الدوام، فالناس الذين اعتادوا أن يكونوا من أنصار الفلسفة الإنسانية أو الطبيعية أو من الملحدين، أو من اتباع عقائد دينية متنافسة يجدون أسباباً للرجوع عن نظمهم المفاهيمية ويعتنقون المسيحية. وعلى النقيض من ذلك، يصل الذين اعتادوا أن يعلنوا ولاءهم للمسيحية إلى نقطة يشعرون معها أنه ليس فى وسعهم بعد أن يؤمنوا.

يتعين علينا أيضاً أن ندرك أن تغييرات كثيرة بالنسبة للآراء العالمية ليس لها علاقة بالتجدد المسيحى. بل إنه حتى الكاتب المسيحى المشهور (س.إس. لويس C. S. Leuis) اعترف بأنه هجر وجهة النظر العالمية عن الفلسفة الطبيعية لينضم إلى وجهة نظر العقلانية المسيحية وكان ذلك قبل تجديده الفعلى. وعلى الرغم من كل العقبات التى ذكرتها، إلا أن الناس بين آن وآخر، يبدأون فى التشكك فى النظم المفاهيمية التى قبلوها لسنوات. وأحياناً -وكما نعرف- يجرى الناس تغييرات دراماتيكية فى نظم معتقداتهم.

وهل من الممكن ذكر مجموعة واحدة من الظروف الضرورية التى تكون دائماً حاضرة حين يغير الناس وجهة نظر عالمية؟ إنى لا أشك فى هذا، وعلى أية حال، وكما سبق أن أشرت، يظل كثير من الناس غير مدركين أن لهم وجهة نظر عالمية، على الرغم من أن التغيير المفاجىء فى حياتهم، وأفكارهم جاء نتيجة تغييرهم وجهة نظر عالمية بأخرى. ويبدو من الواضح أن التغييرات المثيرة التى من هذا القبيل تتطلب وقتا لتدبر الشكوك حول العناصر الرئيسية لوجهة النظر العالمية. وحتى حين يبدو التغيير مفاجئاً، فإنه فى كل الاحتمالات يكون مسبوقاً بفترة تتسم بالشكوك وعدم وضوح الرؤيا. وفى كثير من الحالات يجىء التغيير الفعلى وليد حدث هام، غالباً ما يكون أزمة من نوع ما. إلا أننى سمعت أيضاً بعض الناس يروون قصصاً لها سيناريوهات مختلفة. ففجأةً-أو هكذا بدا أنه فجأة-طرأ حدث أو عرفوا جزءاً من معلومة جعلتهم يفكرون فى إطار خطة مفاهيمية كانت مختلفة تماماً بالنسبة لهم. وهؤلاء الناس -دون أى توقع على الإطلاق-"رأوا" أشياء كانوا قد غفلوها من قبل، أو أنهم على حين فجأة "رأوا" الأمور تتناغم معاً فى إطار كان له معنى، فيما لم يكن مفهوماً من قبل.

الناس مختلفون ونظم العقائد متباينة. يغير الناس فكرهم بالنسبة للموضوعات الهامة لأسباب عديدة ومحيرة (أو بدون أسباب). ولذلك فإنه من الحماقة أن تحاول أن تستعجل احتمالات وأسباب التغييرات التى تطرأ على الحياة بالنسبة لأية حالة.

العناصر الرئيسية التى تكون وجهة نظر عالمية

ما هى نوعية المعتقدات التى تكوّن وجهة نظر عالمية؟ إن وجهة النظر العالمية المصقولة تتضمن معتقدات تقع على الأقل فى خمس مناطق كبرى هى: الله، الواقع، المعرفة، الأخلاقيات، الجنس البشرى.

الله:

أكثر العناصر أهمية بالنسبة لأى وجهة نظر عالمية هو ما تقوله أو ما لا تقوله عن الله. تختلف وجهات النظر العالمية بدرجة كبيرة جداً من هذه الناحية. هل الله موجود؟ ما هى طبيعة الله؟ هل الله كائن شخصى؟ بمعنى، هل هو من نوعية الكائن الذى بمقدوره أن يعرف ويحب ويعمل؟ أم أنه قوة غير شخصية؟ ويسبب الآراء المتعارضة عن طبيعة الله، فإن نظماً مثل البوذية، والهندوسية، والشنتوية، والزرادشتية، ليست مجرد ديانات مختلفة، بل إنها تحتضن وجهات نظر عالمية متباينة. وبالنظر إلى أن المسيحية، واليهودية، والإسلام تُعد أمثلة على التوحيد، فإن المحافظين من معتنقى هذه الديانات يتمسكون بوجهات نظر عالمية بها أرضية مشتركة بأكثر مما يفعلون بالنسبة لمعتنقى مبدأ الإثنية، أو مذهب وحدة الوجود، أو الذين يشركون بالله. إذاً، هناك مكون واحد ضرورى لأية وجهة نظر عالمية، وهو نظرتها إلى الله.

من الخطأ أن ننظر إلى من يصفون أنفسهم بالإلحاد، على أن ذلك يشكل استثناءً من النقاط التى طرحناها فى الفقرة السابقة. فإذا ما أخذنا إله الشخص على أنه يستغرق اهتمامه الأساسى، هنا لن يكون هناك شىء نطلق عليه إلحاداً. هناك شخص اسمه چونز ينكر أن إله الكتاب المقدس له وجود. بل قد تصل به الحماقة ليعتقد بأنه ليس له إله على الإطلاق. إلا أن من لهم قوة ملاحظة سيلاحظون بسهولة أن هناك شيئاً فى الحياة يستولى على كل اهتمامات چونز الأساسية. ربما يكون الجنس، أو المال، أو ربما شئ نبيل كمحبته لعائلته أو للمساكين. وكما قال چون كالڤن: يجب أن يفهم كل متدين-قبل أم رفض أنه من طبيعتنا أن نقدم أنفسنا من كل قلوبنا، وبدون تحفظ لشىء ما، حتى لو تبين أن هذا الشىء قد لا يكون أكثر من تحسين النفس. ولكن أياً كان ذلك الشىء الذى استولى على كل اهتمامنا بالنسبة لنا، فإنه سيكون إلهنا. ولهذا السبب، فإن الملحدين الحقيقيين ليس لهم وجود. وعوض ذلك، نجد أولئك الذين قد يعجبون أو يعبدون أشياء بدلاً من الإله الحقيقى وحده. وكل هؤلاء يسقطون تحت الدينونة التى تتضمنها الوصية الأولى (خر ٢٠:٣).

الحقيقة الأساسية:

وتتضمن وجهة النظر العالمية أيضاً معتقدات عن الواقع الأساسى. كثيراً ما يُناقش هذا الموضوع تحت عنوان "ميتافيزيقا". وفى النظم الفلسفية لمفكرين مثل أفلاطون وأرسطو، تصبح الميتافيزيقا موضوعاً معقداً وغامضاً. غير أن وجهة النظر العالمية بالنسبة للشخص لا تحتاج إلى أن تكون معقدة كى تتضمن معتقدات ميتافيزيقية. وهذه المعتقدات تتضمن إجابات لأسئلة مثل: ما هى العلاقة بين الله والكون؟ هل وجود الكون حقيقة مطلقة؟ هل الكون أبدى؟ هل من خلق العالم هو إله أبدى، وشخصى، وكلى القدرة؟ هل الله والعالم متشاركان فى الأبدية، هل يُعرف العالم على أفضل وجه بطريقة آلية؟ أى بدون هدف؟ أم أن هناك هدفاً من

الكون؟ ما هي طبيعة الكون الجوهرية؟ هل الكون في جوهره مادي أم روحي أم شيء آخر؟ هل الكون هو نظام مغلق على نفسه بمعنى أن كل شيء يحدث (وهكذا يُفسر) نتيجة أحداث أخرى داخل النظام؟ أم يمكن لحقيقة تفوق الطبيعة (كائن خارج عن النظام الطبيعي) أن تعمل بشكل عارض في الطبيعة؟ وهل المعجزات ممكنة؟ وعلى الرغم من أن الكثير من هذه الأسئلة لم تخطر إطلاقاً على بال البعض، إلا أنه من المحتمل لأي شخص يقرأ هذا الكتاب أن يفكر في معظمها، وأن يكون له آراؤه بالنسبة لبعض منها.

المعرفة:

وهناك مكون ثالث لأي وجهة نظر عالمية، وهو وجهة نظر الشخص بالنسبة للمعرفة. وحتى أولئك الذين ليست لهم ميول فلسفية، لهم معتقداتهم بالنسبة لهذا الموضوع. وأسهل طريقة لرؤية هذا هو أن تسأل ببساطة ما إذا كانوا يعتقدون أن المعرفة عن العالم ممكنة. وبغض النظر عن إجابتهم، إلا أنها ستعرفنا بأحد عناصر المعرفة عندهم. وهناك أسئلة أخرى تتضمن الآتي: هل يمكننا الوثوق في حواسنا؟ وما هي الأدوار الصحيحة للعقل والمنطق في المعرفة؟ هل ندرك حالة الوعي بطريقة أخرى غير خبرات العقل والمنطق؟ هل بديهات حالات الإدراك يمكن أن نتكل عليها بأكثر مما نتكل على مفاهيمنا بالنسبة للعالم الخارجي؟ وهل الحق نسبيٌ، أم يجب أن يكون واحداً بالنسبة لكل الكائنات العاقلة؟ وما هي العلاقة بين العقيدة الدينية والمنطق؟ هل الطريقة العلمية هي الطريقة الوحيدة للمعرفة (أو ربما أفضلها)؟ وهل المعرفة عن الله ممكنة؟ وإذا كان الأمر كذلك، كيف يحدث؟ هل بمكن أن يعلن الله نفسه للناس؟ هل يمكن أن يكشف الله عن معلومات للبشر؟ وحتى وإن كانت قلة منا هي التي تفكر في أسئلة كهذه أثناء مشاهدتها لمباراة في البيسبول أو أثناء أي نشاط عادي في حياتنا اليومية، فإن كل ما هو مطلوب في العادة لاستخلاص فكرة هو أن تسأل السؤال.

الأخلاقيات:

إن إدراك معظم الناس بالمضمون الأخلاقي لوجهة نظرهم العالمية، أكثر من إدراكهم لمعتقداتهم عن الميتافيزيقيا والمعرفة. ونحن نصدر أحكاماً أخلاقية عن سلوك الأفراد (سواء بالنسبة لنا أو للآخرين) وكذلك عن الأمم. ومع ذلك فإن نوعيات المعتقدات الأخلاقية التي لها أهمية في هذا السياق، هي أكثر جوهرية من الأحكام الأخلاقية المتعلقة بالأعمال الفردية. فأن تقول إن عملاً لإنسان ما مثل صدام حسين، أو لدولة مثل العراق هو خطأ من الناحية الأخلاقية، فهذا شيء. لكن الأخلاقيات-كعامل من وجهة نظر عالمية-تهتم بالأكثر بالسؤال: لماذا يعتبر هذا العمل خطأ؟ هل هناك قوانين أخلاقية تحكم السلوك الإنساني؟ وما هي؟ وهل هذه القوانين الأخلاقية هي نفس القوانين بالنسبة للبشر كافة؟ وهل الأخلاقيات في جملتها شخصية (مثل مذاقنا للطعام)، أم أن هناك بُعداً موضوعياً للقوانين الأخلاقية تعني أن صدقها لا علاقة له برغباتنا وخياراتنا؟ وهل اكتشفت القوانين الأخلاقية (بطريقة مشابهة تقريباً للطريقة التي اكتشفنا بها أن ٧×٧ = ٤٩)، أم أنها وُضعت بمعرفة بشر (بطريقة مشابهة تقريباً لما نطلق عليه عادات المجتمع؟) هل الناحية الأخلاقية تتعلق بالأفراد، أو الثقافات، أو الحقب التاريخية؟ وهل هناك معنى لقولك أن نفس العمل قد يكون صحيحاً لأناس في مرحلة ما ثقافية أو تاريخية، وأنه يُعد خطأ بالنسبة لآخرين؟ أو، هل تسمو الناحية

الأخلاقية على النواحى الثقافية والتاريخية والحدود الفردية؟

الجنس البشرى:

كل وجهة نظر عالمية تتضمن عدداً من المعتقدات الهامة عن البشر. والأمثلة تتضمن الآتى: هل الناس أحرار؟ أم أنهم مجرد رهائن لقوى مصيرية؟ أم هل هناك بديل لهذه الأبعاد القصوى؟ وهل البشر أجساد فقط، أم هم كائنات مادية؟ وهل كان جميع المفكرين الدينيين والفلاسفة على صواب حين تكلموا عن نفس الإنسان؟ أو من الذى يميز بين العقل والجسد؟ وإذا كانوا على حق من ناحية ما، ما هى النفس البشرية أو العقل، وكيف تنتسب للجسد؟ وهل ينهى الموت المادى وجود الإنسان؟ أم أن هناك وجوداً شخصياً واعيا بعد الموت؟ وهل هناك ثواب وعقاب بعد الموت؟ وهل التعاليم المسيحية عن السماء وجهنم صحيحة.

أسئلة إضافية:

هل النقاط الخمس التى ذُكرت هى المكونات الوحيدة لما يمكن أن نطلق عليه وجهة نظر عالمية صحيحة؟ وفى حين أن الإجابة الصحيحة هى "كلا". فإن وجود عناصر أخرى لوجهة النظر العالمية قد تبدو أقل شيوعاً. ولسوف أعلق على اثنين منها:

١- وجهة النظر العالمية لشخص ما قد تتضمن مجموعة من المُثل تبين كيف يفكر فيما يجب أن تكون عليه الأمور. هذه المُثل تُوجد ثغرة بين الحال الذى عليه الأشياء، والحال الذى ينبغى أن تكون عليه. وبغض النظر عن الظروف الفعلية التى قد توجد فى حياة الشخص أو المجتمع، فإن الإنسان ينبغى أن تكون لديه رؤية أو صورة عن كيفية وجوب أن تكون الأمور مغايرة. ربما يجب أن يقلل الجهل والفساد فى صفوف السياسيين، ربما يجب أن أقلل نوبات غضبى، ربما يجب أن أغير من عادات تناولى الطعام، ربما يجب أن تكون هناك عدالة أكثر وفقراً أقل فى العالم. تنطبق هذه المُثل على نواحٍ كثيرة من الوجود الإنسانى مثل: العائلة، والكنيسة، والمدرسة، والعمل، والحكومة. ومن الممكن دائماً أن تكون الأمور بشكل أفضل مما هى عليه الآن.

٢- وجهة النظر العالمية التى أُحسن تكوينها قد تتضمن تفسيراً للتفاوت بين الطريقة التى عليها الأمور الآن وما يجب أن تكون عليه. فالماركسيون على سبيل المثال، يميلون إلى إلقاء اللوم بالنسبة للمشاكل التى يصادفونها على المؤسسات الرأسمالية. وتنسب المسيحية التفاوت بين ما هو مثالى وما هو فعلى فى الوجود إلى تغلغل الخطية.

شرط هام:

هدفى حتى الآن هو أن أوضح بقدر الإمكان موضوعاً معقداً. قد اضطررت أن أفرط فى تبسيط بعض الأمور فيه. وقد حان الآن أن أضع شرطاً مهماً. ولست أريد أن أُلمح إلى أن مناصرى نفس وجهة النظر العالمية العامة سيتفقون بالضرورة على كل موضوع. فالكلام عن وجهات نظر عالمية يشير إلى اتفاق بالإجماع، إنما هو كلام يجانبه الصواب إلى أبعد الحدود. فحتى المسيحيين الذين يتشاركون فى المعتقدات الخاصة بكل

الموضوعات الأساسية قد يختلفون حول نقاط مهمة أخرى. فقد يفهمون العلاقة بين حرية الإنسان، وسيادة الله بطرق مختلفة. وقد يختلفون حول كيفية تطبيق ناموس معلن من الله على مواقف فى القرن العشرين. وقد يتنازعون علانية حول موضوعات معقدة مثل الدفاع القومى، عقوبة الإعدام، والرفاهية، ناهيك عن الموضوعات التى تقسم العالم المسيحى إلى طوائف متباينة.

فهل هذه الخلافات المهمة والعديدة تبتعد عن الصورة التى كنت أرسمها عن طبيعة وجهة النظر المسيحية. إطلاقاً. فالدراسة الواعية لهذه الخلافات ستكشف عن أنها خلافات فى إطار أوسع من المعتقدات. فحين يتجادل مسيحى مع مسيحى آخر حول أى موضوع. فهو من ناحية تراه يبرر مواقفه ويحاول إقناع الآخر، ومن ناحية أخرى يحاول أن يبين أن وجهة نظره أكثر تناغماً مع المعتقدات الأساسية لوجهة النظر المسيحية العالمية.

ومع ذلك، فإنه لمن المهم أن ندرك أن الخلاف حول المعتقدات المسيحية الأساسية، يأتى نتيجة النظرة إلى المحاوِر على أنه هو شخص ترك مجموعة المعتقدات السابقة، بغض النظر عن رغبته فى مواصلة استخدام الوصف القديم- على سبيل المثال-يواصل كثيرون من المتدينين المتحررين فى الغرب استخدام الوصف المسيحى لآراء من الواضح أنها لا تتناغم مع معتقدات المسيحية التاريخية. وسواء أنكروا عقيدة الثالوث القدوس، أو شخصية الله، أو عقيدة الخلق، أو حقيقة فساد الإنسان أو تعليم الخلاص بالنعمة، إلا أنهم يوضحون أن النظام الدينى الذى يتبنّونه مختلف تماماً عن معنى المسيحية بحسب التقليد. والديانة بدون ابن الله المتجسد، الذى صُلب ومات وقام من الأموات، قد تكون تعبيراً عن إيمان ما، غير أنه من المؤكد أنها ليست الديانة المسيحية.

يمكن تفادى الكثير من التشويش إذا ما استطعنا أن نجد وسيلة تحمل الناس على استخدام تعبيرات مهمة مثل "المسيحية" بطريقة أمينة لمعناها التاريخى. وبالنظر إلى أن هذا لن يتم، فنحن مضطرون أن نتعايش مع هذا الخلل أو نجد طرقاً أخرى لنهتم للوصول إلى الفروق الدقيقة.

خاتمة:

سواء كنا نعرف ذلك أم لا -وسواء سيروقنا ذلك أم لا- فكل واحد منا لديه وجهة نظر عالمية. ووجهات النظر هذه تعمل كخطط مفاهيمية تفسيرية، لتشرح لنا لماذا "نرى" العالم بالطريقة التى نراه بها، ولماذا نفكر كثيراً ونتصرف بالطريقة التى نتصرف بها، وتتصارع وجهات النظر العالمية المتنافسة كثيراً. فقد تكون هذه التصادمات بريئة كحجة بسيطة بين الناس، أو خطيرة كحرب بين الأمم. ولذلك فإنه من المهم بالنسبة لنا أن نفهم أن وجهات النظر العالمية المتنافسة هذه هى السبب الجوهرى لاختلافاتنا.

والآراء العالمية هى أسلحة ذات حدين. والخطة المفاهيمية غير الكافية بمقدورها، مثل النظارات غير الصحيحة، أن تعوق جهودنا فى فهم الله والعالم وأنفسنا.

إن الخطة المفاهيمية السليمة تضع الأمور فجأة موضع الوضوح. إلا أن الخيارات بين وجهات النظر العالمية المتنافسة تتضمن عدداً من الأسئلة الصعبة، فمن ناحية يتعين علينا أن نناضل دائماً ضد الاحتمالية الدائمة

الوجود من ناحية العناصر التى لا تستند إلى نظرية ما التى تؤثر فى تفكيرنا بشكل معاكس. ومن ناحية أخرى، فإنه من الصعب أن نتأكد أن أى معايير أو اختبارات يتوجب استعمالها عند الاختيار من بين وجهات النظر العالمية.

الفصل الثانى

وجهة النظر العالمية المسيحية

بعد أن عرفنا أن عقيدة التوحيد المسيحية هى وجهة نظر عالمية، فإن الخطوة التالية هى أن نضع خطوطاً عريضة لمضمونها.

الله:

إن وجهة النظر العالمية للمسيحية هى التوحيد، بمعنى أنها تؤمن بوجود إله شخصى ذى قوة سامية. يختلف التوحيد عن عقيدة وحدة الوجود وذلك فى التأكيد على أنه لا يوجد سوى إله واحد (تث ٦:٤). والتوحيد ليس له علاقة بالأشكال المتباينة لعقيدة وحدة الوجود وذلك بإصراره على أن الله إله شخصى، ويجب عدم الخلط بينه وبين العالم الذى هو خليقته. يجب أيضاً التفريق بين عقيدة التوحيد وبين القائلين بوحدة الكون Pantheism، أى الوضع الذى يعتبر العالم كائناً أبدياً يحتاج إليه الله بقدر ما تحتاج نفس الإنسان إلى جسد. ثم إن أتباع عقيدة التوحيد يرفضون أيضاً محاولات القائلين بوحدة الكون فى أن يحدوا من قوة الله ومعرفته، الأمر الذى كان من نتيجته جعل إله القائلين بوحدة الكون كائناً محدوداً. وهناك سمات مهمة أخرى لله، مثل قداسته، وعدله، ومحبته، قد وُصفت فى الكتاب المقدس.

وعقيدة التوحيد المسيحية التاريخية هى أيضاً عقيدة الثالوث القدوس. وعقيدة الثالوث تعكس قناعة المسيحيين أن الآب والابن والروح القدس ثلاثة مراكز مميزة من الوعى تشترك بشكل تام فى الطبيعة الإلهية الواحدة، وفى أنشطة أقانيم الثالوث المقدس الأخرى. وهناك نتيجة هامة للعقيدة، تتمثل فى اعتقاد المسيحيين أن يسوع المسيح هو إله كامل وإنسان كامل. ويستخدم المسيحيون كلمة "تجسد" للتعبير عن اعتقادهم أن ميلاد يسوع المسيح يمثل دخول ابن الله القدوس الأبدى إلى الجنس البشرى.

حقيقة جوهرية:

يبدأ الكتاب المقدس بعبارة: "فى البدء خلق الله السموات والأرض". وجد كثيرون من المفكرين المسيحيين الأوائل أنه من المهم استخلاص مضامين معينة لوجهة النظر الكتابية عن الله، وقالوا بأن الله خلق العالم ex nihilo (من لا شىء)، وهذه عقيدة غيبية مهمة لوجهة النظر المسيحية العالمية. وكان هذا ضرورياً، بحسب اعتقادهم، لبيان التناقض بين المفهوم المسيحى للخليقة، وقصته عن أصل العالم التى تضمنتها فلسفة أفلاطون، وهى وجهة نظر تبناها عدد من المثقفين فى القرون الأولى للمسيحية.

وقد اقترح أفلاطون، أن كائناً يشبه الإله، وهو الصانع الأعظم، جاء بالعالم إلى الوجود، وذلك عندما شكَّل مادة أبدية على نمط الأفكار الأبدية التى كانت موجودة مستقلة عن "الصانع الأعظم". وفضلاً عن ذلك، فإن هذا النشاط الخلاق وقع فى إناء مساحة زمنية مكانية، أو صندوق كان أيضاً موجوداً بمعزل عن "الصانع الأعظم". وهناك مفكرون مسيحيون قدامى مثل أغسطينوس أرادوا للعالم أن يعرف أن إله المسيحيين، ووجهة نظرهم فى الخليقة تختلف تماماً عن هذه الصورة الأفلاطونية. فإله أفلاطون (إذا كانت هذه بالفعل صفة مناسبة لصانعه الأعظم) لم يكن غير المحدود، أو كلي القوة، أو الإله والسيد الذى نجده فى الأسفار المقدسة المسيحية. ذلك أن إله أفلاطون كان محدوداً وله نهاية. وفى القصة المسيحية عن الخلق، لم يكن شىء موجوداً

قبل الخليقة سوى الله. ولم يكن هناك زمان أو مكان، ولم تكن هناك مادة سابقة الوجود. وكل الأشياء الموجودة كانت تعتمد على الله في وجوده. ولو لم يكن الله موجوداً، ما كان للعالم وجود. والكون ليس أبدياً أو مكتفياً بذاته أو يفسر نفسه بنفسه، بل خلقه الله بمحض حريته.

ولذلك فوجود العالم ليس حقيقة مطلقة، بل وإذا كان العالم آلة لا غرض لها. فالعالم موجود نتيجة قرار حر بالخلق، أصدره إله أبدي، يسمو على الكل، روحاني (أي غير مادي)، كلي القوة، وكلي العلم، وكلي الصلاة، إله محب وشخصي. وبالنظر إلى أنه يوجد نظام وضعه الله للخليقة، فإن البشر بمقدورهم اكتشاف هذا النظام. هذا النظام هو الذي جعل العلم ممكناً، وهذا النظام هو ما يحاول العلماء أن يضمّنوه في قوانينهم.

يجب التفرقة بين وجهة النظر العالمية المسيحية وبين أي نوعية أخرى من الربوبية. فقد تجرأت هذه النظرية على القول بأنه على الرغم من أن الله خلق العالم، إلا أنه أبعد نفسه عن الخليقة وتركها تدير شئونها بنفسها. ووجهة النظر هذه، والعديد من وجهات النظر الأخرى المتباينة في القرن العشرين يبدو أنها تقدم صورة لله (أو لإله) عاجز عن أن يتصرف في الطبيعة في إطار من السببية. وفي حين أنه ما من مسيحي متعلم سيناقش النتائج المؤكدة لعلوم مثل الفيزيا، والأحياء، والجيولوجيا، إلا أن وجهة النظر العالمية المسيحية تصر على أن الأنشطة الإلهية مثل المعجزات، والإعلان الإلهي، والعناية الإلهية هي أمور ممكنة.

المعرفة:

إن دراسة نظرية المعرفة يمكن وبسرعة أن توقع الإنسان في مشاكل صعبة للغاية. والواقع أننا يجب أن نعترف أنه بالنسبة لكثير من الموضوعات المعرفية (على سبيل المثال، النزاع بين العقلانيين والتجريبيين). فإن سلسلة عريضة من الخيارات تتناغم مع نواح أخرى من وجهة النظر المسيحية. إلا أنه يبدو أن هناك حدوداً لهذا الاحتمال. وعلى سبيل المثال، من الواضح أن وجهة النظر المسيحية العالمية لا تتناغم مع مذهب الشك العالمي، والادعاء الذي يهزم نفسه بأنه ما من معرفة عن أي شيء يمكن الوصول إليها. وحقيقة أن هذه النوعية من الشك تدمر نفسها تصبح واضحة حينما نسأل مثل هذا الشكاك ما إذا كان يعرف أن المعرفة لا يمكن الحصول عليها.

كذلك يبدو من الجلي أن وجهة النظر العالمية المسيحية التي أحسن وضعها، تستبعد الآراء التي تقول بأن البشر ليس في وسعهم الحصول على معرفة عن الله. والمسيحية تعلن بكل وضوح أن الله أعلن عن نفسه. بل وما من مسيحي متعلم ينكر أهمية الحواس في تقديم معلومات عن العالم. وكما قال القديس أغسطينوس فإن المسيحي "يأخذ أيضاً بدليل الحواس التي يستخدمها العقل بمساعدة الجسم، لأنه حتى وإن كانت الثقة في الحواس تؤدي إلى الخداع في بعض الأحيان، فإن الذي يتخيل أنه لا يجب الثقة فيها إطلاقاً سيُخدع بالأكثر وبطريقة مفجعة. وفي نظريته الخاصة عن المعرفة كان أغسطينوس عقلانياً بمعنى أنه كان يعطي الأولوية للعقل قبل اختبار الحواس. وربما كان لدى أغسطينوس مبرراً لاهوتياً للدفاع عن الاستناد بصفة عامة على اختبار الحواس. وليس هناك شك في أنه أدرك أن كثيراً من الادعاءات التي تضمنها الكتاب المقدس اعتمدت على شهادة شهود عيان. وإذا كان لا يمكن التعويل على الحواس بأي شكل كان، فإنه لن يكون بوسعنا الثقة في

تقارير الشهود الذين قالوا إنهم سمعوا يسوع يعلم، أو رأوه يموت، أو شاهدوه حياً بعد صلبه بثلاثة أيام. وإذا كانت اختبارات الذين رأوا وسمعوا المسيح المقام كانت بالضرورة خادعة لا يعوّل عليها، هنا يكون قد تم التهاون فى حق مهم من حقوق الإيمان المسيحى.

فى الكتابات المسيحية الحديثة عن نظرية المعرفة، يبدو أن الفلاسفة الذين كانوا يعملون فى مجالات مختلفة قد تلاقوا حول نقطة مهمة. وبالنسبة للاتجاه الخاص بى (نوع من العقلانية المسيحية التى كانت بدايتها فى كتابات القديس أغسطينوس) فإنه من الخطأ قبول صيغة تجريبية مبالغ فيها تدعى أن كل المعرفة البشرية تنبع من اختبار الحواس. اعتاد أتباع هذه التجريبية القدامى أن يوضحوا ادعاءهم الأساسى بالقول إن العقل البشرى عند الميلاد يشبه لوحاً فارغاً "a tabula rasa". فعند الميلاد يكون عقل الإنسان مثل سبورة نظيفة تماماً، لم يُكتب عليها شىء إطلاقاً. وبعبارة أخرى، فإن البشر يولدون وليس لديهم أفكار أو معرفة متأصلة فيهم. وفيما يكبر الإنسان ويتطور تقوم الحواس بإمداد العقل بمخزون من المعلومات يتزايد بصفة مستمرة. وطبقاً لهذا النمط، فكل معرفة بشرية تتأتى مما يفعله العقل بالأفكار التى أمدته بها الحواس التى هى كتل المبانى الأساسية للمعرفة.

والبديل الذى أطرحه لهذه النوعية من التجريبية المفرطة، يمكن تلخيصه بالقول إن بعض المعرفة البشرية لا تتأتى من تجربة حسية. وكما ذكر كثيرون من الفلاسفة، فإن المعرفة الإنسانية بالعالم المحسوس أمر ممكن لأن البشر يأتون بأفكار ونوعيات وميول معينة لاختبارهم الخاص بالعالم. وعجز الاتجاه التجريبى(*) واضح بصفة خاصة فى حالة المعرفة البشرية وذلك لبلوغ الحقيقة الشاملة. فهناك أشياء كثيرة فى العالم كان من الممكن أن تكون على غير ما هى عليه الآن. فالآلة الكاتبة التى أستخدمها فى هذه اللحظة لونها بنى، وكان من الممكن أن تكون حمراء. وسواء كان لونها بنى أم لا، فإن هذا أمر يتوقف تماماً على الحقيقة. وبغض النظر عن اللون الذى تصادف أن كانت عليه الآلة الكاتبة، فإنه كان من المحتمل أن يكون لها لون آخر. إلا أن المهم فى الأمر هى أن الآلة الكاتبة ما كان لها أن تكون بنية اللون تماماً وحمراء اللون تماماً فى ذات الوقت، والحقيقة الأكيدة وهى أن الآلة الكاتبة بنية اللون تماماً وليست فى ذات الوقت حمراء اللون تماماً لا يمكن أن تكون قد حدثت نتيجة اختبار حسى. قد يكون الاختبار الحسى قادراً على تبليغ ما هو حقيقة فى وقت معين. غير أن الاختبار الحسى لا يستطيع أن يعرف ما يجب أن يكون عليه الحال فى كل الأوقات. إن الأفكار الكلية والأساسية لا يمكن استخلاصها من خبرتنا فقط. بل هى بالأحرى أفكار (ضمن أفكار أخرى) نأتى بها إلى اختبار العقل ونستخدمها فى إصدار أحكامنا عن الحقيقة.

وكيف لنا أن نعلل امتلاك الإنسان لهذه النوعيات من الفكر أو الأُفكار الفطرية أو الميول التى لها دور لا يمكن الاستغناء عنه فى المعرفة البشرية؟ وطبقاً لتقليد فلسفى طويل ومحترم يشمل أغسطينوس وديكارت وليبنيز، فإن البشر لهم هذه الأفكار والميول المتأصلة ونوعيات الفكر نتيجة خلقتهم بواسطة الله. والواقع أن

(*) الاتجاه التجريبي هو المذهب الذي ساد في الفكر، وتزعمه الإنجليز أمثال نيوتن ولوك وهيوم وغيرهم، وفيه يرون أن كل معرفة إنما مرجعها إلى الحس أو التجربة–أى اعتماداً على التجربة المباشرة

هذا ربما يكون بالفعل جزءاً مما قُصد من عبارة "صورة الله". وعلى أي حال (يؤمن المسيحيون) أن الله خلق العالم. ومن المعقول افتراض أنه خلق البشر بطريقة تجعلهم قادرين على الحصول على المعرفة من خليقته. ولكي نذهب حتى إلى أبعد من هذا، فإنه من المعقول أن نؤمن بأنه زود العقل البشرى بالقدرة على الحصول على معرفة عن نفسه.

لاحظ الفليسوف (ألفين بلانتينجا Alvin Plantinga) تشابهاً مهماً بين الدور الذى تقوم به النوعيات والميول المعطاة من الله فى المعرفة البشرية، وما قاله المفكرون المصلحون من أمثال چون كالڤن عن الإيمان بالله.

يقول اللاهوتيون المصلحون من أمثال كالڤن.. بأن الله زرع فينا ميلاً.. لقبول الإيمان بالله فى ظل ظروف معينة. ويتحدث كالڤن فى هذا الخصوص عن "إحساس بالألوهية منقوش فى قلوب الكل تماماً مثلما أن لنا ميلاً طبيعياً لأن نصوغ معتقدات حسية فى ظل ظروف معينة، ولذلك يقول كالڤن أن لنا ميلاً طبيعياً مثل: "الله يتكلم معى"، و "الله خلق كل هذا"، أو "الله لا يقبل ما عملته فى ظروف من المؤكد أنها معروفة وعلى نطاق واسع". ولا يظهر (بلانتينجا) أى نفور من فكرة وصف الله على أنه "متأصل"، أى أنه موجود فى العقل منذ الولادة، وليس هذا نتيجة الاختيار.

هذه موضوعات معقدة. إلا أنه من الواضح أن وجهة النظر العالمية المسيحية لبست حليفة للشك. فالبشر بوسعهم أن يعرفوا خليقة الله، كما أنه بمقدورهم أيضاً أن يصلوا إلى معرفة عن الله. وما يجب أن يدهش أحد لذلك. فإن هذا ما كان يجب أن نتوقعه.

الأخلاقيات:

يحمل الناس جميعاً صورة الله (وهذه من بين المعتقدات المسيحية الأخرى عن طبيعة الإنسان) تفسر لنا السبب فى أن البشر مخلوقات قادرة على التفكير والحب وإدراك وجود الله، كما تفسر لنا أيضاً السبب فى أننا مخلوقات أخلاقية. ومن الطبيعى أن الخطية (وهذه فرضية مسيحية مهمة أخرى عن الإنسان) شوهت صورة الله فينا، كما تفسر لنا سبب ابتعاد الإنسان عن الله عن القانون الأخلاقى، ولماذا نخطىء أحياناً بالنسبة لعواطفنا وسلوكنا وتفكيرنا.

وبسبب صورة الله. علينا أن نتوقع أن تعكس التوصيات الأخلاقية لوجهة النظر المسيحية العالمية ما نعرفه جميعاً على أعمق مستوياتنا الأخلاقية أنه حق. وكما قال (سى.إس.لويس):

"لم يأت المسيح ليعظ بأية نوعية جديدة من الأخلاقيات...والواقع أن عظماء المعلمين الأخلاقيين لم يقدموا على وجه الإطلاق أخلاقيات جديدة، ومن يفعل ذلك إنما يأتى دجلاً وهوساً... فالوظيفة الحقيقية لكل معلم أخلاقى هى مواصلة إعادتنا من وقت لآخر إلى المبادىء القديمة البسيطة، والتى لا نتلهف لمعرفتها".

وحين نتفحص أخلاقيات الثقافات والديانات المختلفة، تبرز أمامنا اختلافات معينة. غير أن (لويس) كان أكثر تأثراً بالتشابهات الأساسية الضمنية:

"لتفكر مثلاً فى بلدة يحظى الناس فيها بالإعجاب لهربهم من المعركة، أو يشعر فيها الشخص بالفخر نتيجة خيانته لكل الناس الذين كانوا فى غاية العطف عليه. لعلك ستحاول أيضاً أن تتخيل بلداً يكون فيها ٢+٢ = ٥. وقد اختلف الناس بالنسبة لمن يجب ألاّ تكون أنانياً معهم-هل هم عائلتك فقط، أو مواطنوك، أم كل الناس. ولكنهم اتفقوا دائماً إنه لا يجب أن تكون أنانياً، حيث لم تلق الأنانية قبولاً فى يوم من الأيام".

وطبقاً لوجهة النظر العالمية المسيحية، فإن الله هو أساس القوانين التى تحكم العالم المادى، وهذا ما جعل نظام الكون ممكناً. والله هو أيضاً أساس القوانين الأخلاقية التى ينبغى أن تحكم السلوك الإنسانى، وتجعل النظام ممكناً بين الناس وفى الناس.

ويصر مذهب التوحيد المسيحى على وجود قوانين أخلاقية شاملة. وبعبارة أخرى، يجب أن تنطبق القوانين على كل الناس، بغض النظر عن الزمان والمكان، الذى عاشوا فيه. كما يجب أيضاً أن تكون هذه القوانين موضوعية بمعنى أن تكون بمنأى عن خيارات الناس ورغباتهم.

وكثير من التشويش الذى يحيط بالأخلاقيات المسيحية ناجم عن الإخفاق فى مراعاة الفرق المهم بين المبادىء والقواعد. ودعنا نحدد المبادىء الأخلاقية على أنها مبادىء أخلاقية أكثر عمومية، فهى عامة بمعنى أنها تغطى عدداً كبيراً من الأمثلة، ومن ناحية أخرى، فإن القواعد الأخلاقية ينظر إليها على أنها قواعد أخلاقية أكثر تحديداً، وأنها فى الواقع تطبيقات للمبادىء على مواقف أكثر واقعية.

والفرق بين المبادىء والقواعد له حسناته وسيئاته. ومن بين حسنات المبادىء الأخلاقية أنها أقل عرضة للتغيير. وبالنظر إلى عدد الأمثلة الأكبر التى يمكن أن تنطبق عليها، فإن لها درجة أكبر من الشمولية. ومن بين سيئات أى مبدأ أخلاقى هو غموضه. وبالنظر إلى أن المبادىء تغطى عدداً كبيراً من المواقف، فإنه كثيراً ما تكون هناك صعوبة أن نعرف على وجه التحديد متى يطبق مبدأ بعينه. ومع ذلك، فإن للقواعد ميزة أنها أكثر وضوحاً. أما مشكلتها فتتمثل فى قابليتها للتغيير. ولأنها مرتبطة بشكل وثيق بمواقف معينة، فإن التغيير فى الظروف يتطلب تغييرات فى القاعدة المناسبة. فعلى سبيل المثال، حذر القديس بولس النساء المسيحيات فى كورنثوس بألا يشتركن فى العبادة ورؤوسهن مكشوفة. ولكن فهم بعض المسيحيين خطأ أن نصيحة بولس هى قاعدة أخلاقية يجب أن تراعيها كل النساء المسيحيات فى كل ثقافة وفى كل الأوقات. ولكن دراسة الظروف التى سادت فى كورنثوس قديماً كشفت عن أن عاهرات المدينة كن يعرّفن أنفسهن لزبائنهن المرتقبين بأن يجعلن رؤوسهن مكشوفة. فيبدو على ضوء هذا، أن نصيحة بولس لم تكن تشكل مبدأ أخلاقياً قُصد به أن يُطبق على جميع المسيحيات فى كل الأجيال، بل كانت قاعدة لا تنطبق إلا على وضع معين لنساء كورنثوس المسيحيات، وعلى النساء الأخريات فى ظروف مماثلة.

والجدول الآتى قد يساعد على توضيح نقاط الفقرة السابقة

	الفائدة	الضرر
المبادىء	شاملة	غامضة
القواعد	محددة	طبقاً للموقف

وإنى لأدرك أن الفرق الذى وضعته هنا تعوزه الدقة. وهذا يرجع بشكل جزئى إلى حقيقة أن الفرق بين المبادىء والقواعد أحياناً يكون نسبياً. وأقصد بذلك أن الكتاب المقدس يقدم فى الواقع تسلسلاً للوصايا الأخلاقية حيث يبدأ بأكثر المستويات عمومية وهو واجب المحبة. وواجب المحبة تفرع إلى واجبات محبة الله ومحبة الناس (مت ٢٢:٣٧-٤٠)، ثم بعد ذلك تدرّج في تقسيم الواجبات الأكثر تحديداً فى الوصايا العشر (رو ١٣:٩-١٠). ومن الطبيعى أن الواجبات الأكثر تحديداً قد تم شرحها فى العهد الجديد، مثل تحريم النظرة بالاشتهاء، والكراهية، فهذه توضيحات أكثر للوصايا العشر (مت ٥:٢١-٣٠). إن الفرق بين المبادىء والقواعد يتضح بأنه عندما تكون بصدد وصيتين كتابيتين، وتجد أنه بإمكانك أن تستخلص من واحدة منهما وصية أكثر تحديداً ووضوحاً فإنه، فبمقدورك أن تعتبر الوصية الأكثر تحديداً كقاعدة والأخرى كمبدأ. ومن الممكن أن تقرأ (١كو ١٣) بهذه الطريقة. أولاً، يقترح بولس المحبة كواجب أخلاقى ملزم للجميع. ثم يواصل كلامه ليقدم قواعد أكثر تحديداً عن كيفية سلوك الشخص المحب، فعلى سبيل المثال، يتوجب أن يكون عطوفاً صبوراً.

وعلى أساس الفرق الذى وضعناه بين المبادىء والقواعد، فضلاً عن دراسة واعية للعهد الجديد، بمقدورنا أن نستخلص عدة استنتاجات:

١- قدم العهد الجديد لمسيحيى القرن الأول كثيراً من القواعد. غير أن القواعد بالطبع كانت تغطى مواقف لم تعد تواجه مسيحيى القرن العشرين، مثل وصية بولس ضد أكل ما ذبح للأوثان.

٢- لم يقدم العهد الجديد لمسيحيى القرن العشرين أعداداً كبيرة من القواعد بشأن مواقف محددة، وسبب ذلك واضح. فقد أُعطيت القواعد لتغطى المواقف التى كانت سائدة فى القرن الأول. فإذا صدر كتاب فى القرن الأول، وحاول أن يعطى قواعد أخلاقية لتغطى مواقف معينة فى القرن العشرين، لكان غير مفهوم أو غير مناسب بالنسبة للقراء فى المدة التى بين الفترتين والتى بلغت ١٩٠٠ سنة. فما هو النفع الأخلاقى الذى كان يمكن أن يعود لمسيحيى القرن الأول فى روما أو فى أفسس من قواعد أخلاقية مثل: "عليك ألا تقوم بضربة أولى بالأسلحة النووية"، أو، "إنه لمن الخطأ أن تتعاطى الكوكايين"؟

٣- نجد فى ذات الوقت أن بعض القواعد التى جاء بها العهد الجديد تنطبق على مواقف ظلت قائمة طوال

الوقت. فالفقرات التى تتناول موضوعات الكراهية والسرقة والكذب وما إلى ذلك ظلت مناسبة لأن الأعمال مماثلة.

٤- غير أن أغلب ما يغفل عنه كثيرون من الناس هو أهمية استخلاص المبادىء الأخلاقية التى وراء قواعد العهد الجديد. وهذه المبادىء ملزمة للناس بقدرٍ متساوٍ وفى جميع الأجيال. إن التأمل الواعى لقواعد الإنجيل فى القرن الأول يمكِّننا من الاستدلال على المبادئ الأكثر عمومية الموجودة بين طيات تلك القواعد، وهى مبادىء تنطبق علينا اليوم فربما لا تكون هناك أهمية لكى تغطى النساء المسيحيات رؤوسهن، غير أنه من المهم أن يتجنبن الملابس والسلوكيات المثيرة. وعلى الرغم من أن قليلاً من المسيحيين فى جيلنا هذا لا يزعجهم جزّارون يقدمون الذبائح لآلهة مزيفة، إلا أنه بوسعنا أن نستفيد من المبدأ القائل بأنه علينا ألا نفعل شيئاً من شأنه أن يعثر شخصاً ضعيفاً من الناحية الروحية.

وفى حين أن وجهة النظر المسيحية التى صيغت على وجه صحيح تسمح بمرونة كبيرة جداً بشأن المواقف التى قد يتخذها المسيحيون المخلصون بالنسبة لكثير من المواقف الصعبة التى قد تنشأ عند تكوين نظرية أخلاقية، فإن المسيحيين الشكليين سيكون عليهم أن يرفضوا آراء معينة، ومن بين هذه الآراء هو الموضع الذى يُطلق عليه أخلاقية الموقف، والتى تؤكد أن الأخلاقيات المسيحية لا تفرض أية واجبات سوى واجب المحبة. وفى تحديد ما يجب عمله فإن من يتبنَّى أخلاقيات الموقف يعلن أن المسيحى عليه أن يواجه الموقف الأخلاقى، ويسأل نفسه ما هو عمل المحبة الذى يتعين عليه أن يعمله فى هذه الحالة الخاصة. وما من قواعد أو مبادىء تصف لنا كيف ستتصرف المحبة. والواقع أن كل شخص محب له الحرية فى أن يتصرف بأية طريقة يعتقد أنها تتناغم مع المحبة كما يفهمها هو. إذاً، الموضوع بالنسبة لأخلاقيات الموقف هى أن الأخلاقيات المسيحية لا تقدم مبادىء شاملة ولا قواعد محددة. وما من شىء صالح جوهرياً إلا المحبة، ولا شىء سئ من الناحية الجوهرية سوى عدم المحبة. ولا يمكن أن يُوصف مقدماً ما ينبغى على المسيحى أن يفعله وما يجب عليه تجنبه. فبالنظر إلى كل موقف على حدة فقد قد تتطلب المحبة تصرفات لا تدخل تحت بند المثالية، فالمطلق الوحيد هو المحبة.

والرد المناسب على أخلاقيات الموقف يبدأ بتوضيح أن المحبة ليست كافية فى حد ذاتها لتقديم التوجيه الأخلاقى لكل عمل أخلاقى. والمحبة تتطلب التوضيحات الأخرى للمبادىء والقواعد التى تقترح السبل الصحيحة التى يمكن إظهار المحبة من خلالها. ولأن البشر ساقطون، وأحكامهم على النواحى الأخلاقية قد تتأثر بضعف أخلاقى، فمن ثم تحتاج المحبة إلى توجيه من الحق الأخلاقى المعلن من الله. ومن حسن الطالع أن المسيحيين على قناعة أن هذا المضمون قُدم فى المبادىء الأخلاقية المعلنة فى الكتاب المقدس.

وعلى الرغم من كل هذا، فكثيراً ما تواجهنا الحياة بمواقف أخلاقية غامضة، يتعذب فيها أكثر الناس إخلاصاً بسبب ما يجب أن يفعلوه. وفى بعض الأحيان لا نعرف ببساطة ما يكفى عن أنفسنا وعن الموقف، أو المبدأ الأخلاقى الذى ينبغى تطبيعه لنتأكد من أننا نعمل الشىء الصحيح. وكما يعرف كثيرون منا، إنه من الممكن لضعف الإرادة أن يعطل اتخاذ القرار الأخلاقى.

فى ظروف الحياة العادية التى لا يشوبها غموض يعلمنا الكتاب المقدس، أن الله يديننا على ضوء طاعتنا لناموسه الأخلاقى المعلن. ولكن كيف يحاكمنا الله فى المواقف الغامضة، حيث لا تتضح واجباتنا على نحو دقيق؟ هنا ينظر الله إلى القلب، ويعرفنا الكتاب المقدس أننا سنُدان إذا كسرنا وصايا الله. وهذا أمر مؤكد. إلا أنه فى الحالات التى قد لا نعرف فيها أية وصية تنطبق عليها، أو لا تتوافر لنا معرفة كافية عن الموقف، فإن دينونة الله ستأخذ فى الحسبان، ليس مجرد نتائج عملنا الصائبة (وهو أمر كثيراً ما نعجز نحن أنفسنا عن تحديده فى المواقف الغامضة) بل نوايانا الحسنة أيضاً.

البشرية:

فى مقدمة للموضوع المعقد بشأن ما تعلمه لنا وجهة النظر المسيحية العالمية عن البشر، (كتب وليم. ج. ابراهام) يقول:

"خُلق الناس على صورة الله، ومصيرهم يعتمد على علاقتهم به. وهم أحرار فى أن يقبلوا الله أو يرفضوه، ولسوف يدانون على أساس كيفية تجاوبهم مع الله. تبدأ هذه الدينونة الآن، ولكنها تتم أخيراً بعد الموت فى حياة آتية. يقدم المسيحيون علاوة على ذلك تحليلاً لما هو خطأ فى هذا العالم. وهم يقولون من الناحية الجوهرية إن مشاكلنا هى مشاكل روحية: نحن فى حاجة إلى أن يخلقنا الله من جديد. فقد أساء البشر استخدام حريتهم، وهم فى حالة تمرد على الله، فهم خطاة. وتؤدى بنا هذه النتائج إلى مجموعة من الحلول لهذا الشر. وكما قد نتوقع، فالحل الأساسى هو أيضاً حل روحى... (١) فالله تدخل بواسطة يسوع الناصرى كى يخلّص البشرية، ويجعلها خليقة جديدة. وكل شخص فى حاجة إلى أن يستجيب لهذا، وأن يصبح جزءاً من جسد المسيح الذى هو الكنيسة حيث ننمو فى النعمة ونصبح بالأكثر شبه المسيح. وهذا بدوره يولد رؤية معينة للمستقبل. فبمجىء المسيح افتتح الله ملكوته، ولكنه سيُستكمل فى وقت لم يُعين فى المستقبل حين يعود المسيح.

فيا له من تناقض يقع فيه الجنس البشري، فالبشر الذين يحملون صورة الله فى هذا الكوكب تراهم قادرين على ارتكاب أبشع الأعمال. وكما يقول (بسكال Pascal) فى وصفه للإنسان: يا له من أمر غريب، ويا لها من فوضى، ويا له من تناقض وياله من عجب!، حاكم كل الأشياء وفى ذات الوقت معتوه ودودة الأرض، مالك الحق غارق فى الشك والخطأ، مجد الكون ونفايته. وفى فقرة أخرى كتب (بسكال Pascal):

ما الإنسان سوى قصبة، أضعف ما فى الطبيعة، لكنه قصبة مفكرة. والكون كله ليس فى حاجة إلى أن يسلح نفسه لكى يسحقه، فنقطة ماء أو تجمع بعض البخار يكفى لقتله. إلا أنه حتى لو سحقه الكون فلسوف يظل الإنسان أنبل ممن سحقه، لأنه يعرف أنه سيموت، والميزة التى تميز الكون عليه لا يعرف الكون نفسه عنها شيئاً.

وجاء التناقض الرئيسى هنا -عظمة البشرية وبؤسها- وليد حقيقتين مهمتين. فقد خلق الله البشر كقمة خليقته، وغايتنا الرئيسية هى -بحسب تعليم قانون ويستمنستر - أن نمجد الله ونتمتع به إلى الأبد. ولكن

سقط كل إنسان، وأصبح فى حالة تمرد على الله الذى خلقه والذى يحبه.

ببساطة لن يكون للمسيحية معنى لأولئك الذين يخفقون فى فهم وتقدير التعليم المسيحى عن الخطية. فكل إنسان يعيش فى حالة الخطية متغرباً عن خالقه. "إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله" (رو ٣:٢٣). وكما قال (چون ستوت): الخطية ليست اختراعاً مريحاً من قريحة الرعاة ليحفظهم فى وظيفتهم، إنها حقيقة واقعة فى اختبار الإنسان. فالخطية هى التى فصلتنا عن الله واستعبدتنا.

هى أكثر من مجرد عمل خارجى تعيس جاء وليد العادة، إنها فساد داخلى متأصل. والواقع أن الخطايا التى نقترفها ما هى سوى مظهر مرئى وخارجى لهذا المرض الداخلى غير المرئى، وأعراض لمرض أخلاقى.... وبالنظر إلى أن الخطية هى فساد داخلى لطبيعة الإنسان، فنحن فى عبودية. وليست أعمال معينة أو عادات هى التى تستعبدنا، بل هى بالأحرى مؤثر شرير تنبعث منه تلك الأعمال.

نقرأ فى كتابات (سورين كيركجارد Soren Kierkgaard)، وهو كاتب مسيحى من القرن التاسع عشر، إن تغرب الإنسان عن الله كثيراً ما يطفو على السطح فى شكل نوبات مثل اليأس. وبحسب وصف (كيركجارد) بطريقته الرائعة، هناك ناحيتان فى الوجود البشرى (المحدود/ الزمنى، غير المحدود/ الأبدى) تتنافسان على السيطرة على حياة كل إنسان. وما لم ينجح الإنسان فى إيجاد علاقة سليمة بين هذين البعدين ويحاول بطريقة ما أن يوحد بينهما، فلن يكون أبداً فى حالته الفضلى. وفى حالة البعد عن الله، يصبح كل إنسان نفساً منقسمة.

ومن الواضح أن كل واحد منا محدود من نواح كثيرة. فنحن محدودون ومقيدون بأجسادنا، وظروفنا، وضعف إرادتنا وما يحيط بنا. وهناك مايذكرنا باستمرار ولا يمكن تجنبه، بمحدودية وجودنا، ألا وهو الموت -الموت الفعلى سواء لنا أو للآخرين، إلا أنه هناك أيضاً جانب آخر لوجودنا، وهو جانب يتخذ أبعاد الأبدية أو اللامحدودية. ومن بين أسباب ذلك أنه يبدو أن رغباتنا تسمو على محدودية أجسادنا. فدائماً نرغب فى أكثر مما لدينا، ودوماً نريد أكثر مما يمكن أن ننجزه. ويغض النظر عما نكون قد أنجزناه أو وصلنا إليه فى طريق الشهرة، أو الثروة، أو السرور، أو السعادة، فإننا نريد المزيد. وبمعنى واقعى للغاية، شهيتنا لا تشبع إطلاقاً. وليس معنى هذا أن نتجاهل المرات التى توقف فيها الأفراد الذين شبعوا تماماً، قانعين مؤقتاً بالإشباع الذى تم حديثاً جداً لرغباتهم. ولكن سرعان ما تختفى القناعة. ويعودون ثانية للبحث عن المزيد.

والإحباط الناجم عن عدم قدرة الإنسان بشكل أساسى على إشباع كل رغباته ما هو إلا ظاهرة واحدة للتوتر بين قطبى كياننا المحدود وغير المحدود. وهناك مثال آخر وهو ميل الكثيرين للسعى إلى الهرب من الواقع وذلك بالهرب إلى الخيال. وبدلاً من مواجهة الحقيقة بالنسبة للحدود المغلقة لوجودهم، نجد أن الكثيرين من الناس يفضلون الحياة فى عالم الأحلام والأوهام. وبالرغم من تقدمهم فى العمر، فإن مثل هؤلاء الناس يعانون من طول فترة عدم نضجهم. فهم فى واقع الأمر لا يكبرون إطلاقاً.

وبالنظر إلى أن معظم الناس لا ينجحون إطلاقاً فى جذب الجانبين المحدود وغير المحدود من حياتهم معاً،

فهم يواصلون حياتهم وهم يعانون من العواقب الروحية والعاطفية لكونهم نفوساً منقسمة. فاليأس هو أحد نتائج الفشل عندما يجمع الإنسان الجوانب المختلفة لحياته معاً. واليأس بالضرورة هو حماسة ضلت طريقها، وفقدت معانيها، إنها حماسة لأشياء إما أنها تختفى حين يكون الطلب عليها شديداً، أو تفشل فى تلبية كل ما بدا أنها وعدت به. وإذا بدا للشخص -وهو غير واعٍ أن كل مشتهيات النفس المترسخة فى أعماقه لن تتحقق فى النهاية، فإن بداية اليأس ستُوجد نوعاً من الإحساس المضلل. ومن المفهوم تماماً كيف أن "لا وعى" الإنسان فى ظل هذه الظروف قد يتفاعل بأن يخمد الحماسة، ومن ثم يولد نوبة من القنوط.

إن الإنسان الذى يقع ضحية نوبات اليأس هذه أو ما يماثلها كثيراً ما يكون غير واعٍ بالمشكلة. ويقول "كيركجارد" بجلاء إن اليأس كثيراً ما لا يعيه من يمتلك عليه. فكل ما يشعر به الفرد هو إحساس باهت بأن هناك خطأ ما، دون أن يقدر إطلاقاً على معرفته وعلى المدى الواسع الذى يعمل فيه اليأس فى حياة الإنسان، وبعيداً عن مستوى الوعى قد يحدث شيئاً آخر نتيجة لرفض كثيرين من الناس مواجهة الحقيقة بالنسبة لأنفسهم وبالنسبة لعالمهم. فالشخص التعيس حقاً والذى يتوهم عن خطأ أنه سعيد يميل إلى اعتبار أى شخص يهدد وهمه هذا بأنه عدوه.

تُعد نوبات اليأس وما يماثلها، دلالات على أن المصدر الرئيسى لمتاعب الإنسان يقع فى داخله، وليس فى الظروف الخارجية. لنتأمل التباين فى كتابات القديس بولس بين الخطايا "كأعمال صريحة"، والخطية، الطبيعة الفاسدة فى الداخل. والبشر ليسوا مكتفين بذواتهم، فنحن لا نستطيع أن نشفى أنفسنا. نعم نحن نستطيع أن نكون، وبمقدورنا أن نكبر وننمو إلى بشر كاملين، ولكن ذلك لا يتحقق إلا من خلال علاقة صحيحة بالله. يجب أن يلتقى المحدود وغير المحدود من خارجه، بواسطة الله نفسه. وما اليأس إلا دلالة واحدة من دلالات التغرب عن الله ومن ثم عن الذات. والأنفس المنقسمة لا يمكن أن تحقق وحدة الذات إلا من خلال علاقة إيمان بالله.

وهناك جانب أخير من تحليل (كيركجارد) جدير بالاهتمام، وهو أن نوبات كنوبة اليأس تشير إلى:

إن الناس لم يخلقوا أساساً لهذا العالم. ذلك أنه يوجد "شيء أبدى" فينا. ولسوف نحقق اشتياقنا إلى المعنى والأمن، الأمر الذى يُعبَّر عنه بطريقة مشوهة بانغماسنا فى مشروعات دنيوية، وفى عالم غير قابل للاختفاء. فالإنسان ليس سخافة، أو هوى لا طائل تحته، خُلق ليعيش فى ظل القمع، أو التعاسة البالغة. بل بالأحرى هو ابن متمرد لله، يمكن بل يجب أن يدفعه ضجره وقلقه ويأسه إلى ذراعى أبيه السماوى. والواقع أن يأسه مرضى، ولكنه يشفى منه إذا ما وجد بيته الحقيقى.

العنصر الأبدى الذى زرعه الله فى داخلنا يجعلنا جميعاً نشعر باليأس، ونظل محبطين، تعساء، ويتملكنا القلق، إلى أن ندخل أخيراً فى راحته. وكما قال أغسطينوس فى هذا الشأن. لقد خلقنا الله لنفسه، وقلوبنا لن تجد راحتها إلا فيه. والناس مسوقون للسعى وراء سلام أبدى، كل شيء سيكون فيه أخيراً فى مكانه الصحيح، وفيه يتحقق النظام الكامل سواء فى العالم أو فى النفس. وقد يكون اليأس من الطرق التى يخبرنا الله من خلالها أنه علينا أن نتجاوز أنفسنا فى سعينا وراء السلام الحقيقى. وإن الحالات العديدة

والفعالة، التى يجب أن تذكر الشعب المتنبه، أنه علينا أن تكون معرفتنا أفضل من أن نعتقد أن صالحنا الأسمى يمكن أن نجده فى هذه الحياة.

تدرك وجهة النظر العالمية المسيحية حاجة الإنسان إلى المغفرة والفداء، وتشدد على أن بركات الفداء أصبحت ممكنة نتيجة موت يسوع وقيامته. وعمل المسيح الفدائى هو أساس خلاص الإنسان. غير أنه مطلوب من الناس أن يتوبوا عن الخطايا (يندمون عليها ويبتعدون عنها) ثم يؤمنون. إن قبول المسيح كسيد ومخلص للإنسان ينتج عنه ولادة جديدة، وقلب جديد، وعلاقة جديدة، وقوة جديدة يحيون بها. والتجدد المسيحى لا يجعل المسيحى الجديد كاملاً فجأة. لكن المسيحى له فى داخله طبيعة الله والروح القدس، وهو مدعو لأن يعيش نمطاً معيناً من الحياة فى طاعة مشيئة الله. وأخيراً، تعلم وجهة النظر المسيحية أن الموت البدنى ليس هو نهاية الوجود الشخصى.

الفرض القياسى المسيحى

قد يبدو ذلك العرض الموجز لوجهة النظر العالمية المسيحية مشوش لبعض القراء. هل من الممكن اختزال كل شىء إلى اقتراح واحد؟ فى هذا الخصوص، يدلى (وليم هالفرسون William Halverson) بملاحظة هامة:

"يوجد فى قلب كل وجهة نظر عالمية ما يمكن أن نطلق عليه "فرض قياسى" لوجهة النظر العالمية هذه. وهى فرضية يُنظر إليها على أنها الحق الأساسى عن الواقع، وتعد معياراً لتحديد أى من الافتراضات الأخرى تصلح أو لا تصلح لتصديقها".

فإذا فُرض أن الاقتراح (أ) غير متناغم مع "الفرضية المعيارية" أو مع وجهة النظر العالمية للشخص، فإنه، طالماً تمسك الشخص بوجهة النظر العالمية هذه، فإن الاقتراح (أ) لابد وأنه يعتبر زائفاً".

وهناك فائدة فى معرفة كيفية تطبيق اقتراح (هالفرسون) على ما سبق قوله عن وجهة النظر المسيحية: هل الفرضية المعيارية، أو الاعتقاد الأساسى، أو الافتراض الرئيسى المسبق الذى يشكل الحق الجوهرى لوجهة النظر العالمية المعينة هذه يمكن أن يُستخدم كاختبار يجب أن يُطبَّق على كل مُعتقد حتى يمكن تضمينه كجزء من وجهة النظر العالمية؟

وهناك اقتراح قد يفى بالمراد، وهو: "البشر والكون الذى يسكنونه يشكلون خليقة الله الذى أعلن عن نفسه فى الكتاب المقدس". الافتراض الأساسى لوجهة النظر العالمية المسيحى هو وجود الله المُعلن فى الكتاب المقدس.

هذه الرابطة بين الله والكتاب المقدس صحيحة. أنها حقيقة، فهذا الغرض الموضوع كقياس يتيح للمسيحى طريقاً سهلاً لمعرفة كل ما يقوله الكتاب المقدس عن الله والعالم والبشرية. وفى حين أن هذا تميز إلا أنه لن يكون من العدل أوالحكمة عندما يحدث الفصل ما بين ما يعتقده المسيحيون فى إلههم وما أعلنه هو عن نفسه. وكما يقول (كارل.ف. هنرى Carl F. H. Henry)، الله "ليس روحاً بلا اسم ينتظر تقرير فحص الجثة

في مشرحة لاهوتية. فهو إله ألوهيته واضحة، معروف من البداية، على أساس أعماله وإعلانه عن نفسه فقط على أنه الإله الحى الوحيد".

إن أى قرار نهائى يتعلق بوجود إله المسيحيين وحقيقة وجهة النظر العالمية المسيحية، سيتضمن قرارات عن موضوعات تتصل بالكتاب المقدس المسيحى. وبالنظر إلى أن وجهة النظر تلك جاءت من السلطان المسيحى الأساسى، أى الكتاب المقدس، فإن أى رد فعل سلبى بالنسبة لأى قرار من المحتمل أن ينجم عنه ردة فعل سلبية على القرار الآخر. وإذا عكسنا الموضوع، فمن الطبيعى أن تقييماً إيجابياً لأحد جانبى هذه المعادلة سيكون له أثر إيجابى على القرار الآخر. وليس بوسع المسيحى أن يتظاهر أن وجهة نظره العالمية صيغت بعيداً عن الإعلانات الإلهية.

خاتمة:

لا يدرك كثيرون حقيقة أن كل شخص ناضج مفكر لديه وجهة نظر عالمية. كثيراً ما يختبر الناس صعوبة شديدة فى إدراك العناصر الرئيسية لوجهة نظرهم العالمية. ويعرف معظمنا أشخاصاً نادراً ما يفكرون بعمق كاف ليطرحوا الأسئلة الصحيحة عن الله، والغيبيات، والمعرفة، والأخلاقيات، والبشرية. وكما سبق أن ذكرت، فإن من بين مهام الفلاسفة، والمفكرين اللاهوتيين، بل والواقع، كل من هو مهتم بمساعدة الآخرين فى هذا الموضوع المهم، أن يعملوا أولاً على مساعدة الناس على إدراك أن لهم بالفعل نظاماً مفاهيمياً. **أما الخطوة الثانية** فهى مساعدة الناس على أن تكون لهم نظرة أوضح بالنسبة لمضمون وجهة نظرهم العالمية. ماذا يعتقدون عن وجود الله وطبيعته، وعن البشرية، والأخلاقيات، والمعرفة، والحقيقة المطلقة؟ **أما الخطوة الثالثة** فهى مساعدة الناس على تقييم وجهة نظرهم العالمية، وإما آن يحسّنوها (وذلك بإزالة كل المتنافرات وسد كل الثغرات)، أو أن يستبدلوها بوجهة نظر عالمية أفضل. ولسوف نستعرض فى الفصل التالى التوصيات الخاصة بأفضل أو أكثر طريقة واعدة للاختيار من بين وجهات النظر العالمية المتنافسة.

الفصل الثالث

كيف تختار وجهة نظر عالمية؟

بالنظر إلى أن مذهب التوحيد المسيحى ما هو إلا واحد من بين وجهات نظر عالمية كثيرة، فعلى أى أساس يمكن للناس أن يختاروا اختياراً معقولاً من بين النظم العديدة؟ وأى وجهة نظر عالمية من المرجح أن تكون صحيحة؟ وما هى أفضل طريقة واعدة لتناول مثل هذه النوعية من الأسئلة؟

وحين نُواجه بأنه علينا أن نختار من بين فرضيات معيارية متنافسة لوجهات نظر عالمية مختلفة، ينبغى أن نختار واحدة، بحيث إذا ما طُبقت على الحقيقة كلها، فإنها تعطينا صورة متماسكة للعالم. وعلى أية حال، وكما يقول (جوردن كلارك Gordon C. Clark): "إذا كان بمقدور أحد الأنظمة أن يقدم لنا حلولاً مقبولة لكثير من المشاكل، فى حين أن آخر يترك الكثير من الأسئلة دون حل، وإذا كان أحد الأنظمة أقل ميلاً للشك، يعطى معنى أزيد للحياة، وإذا كانت إحدى وجهات النظر العالمية متناغمة فى حين أن الأخرى تناقض نفسها، وبالنظر إلى أنه يتعين علينا أن نختار فمن ذا الذى ينكر علينا - الحق أن نختار المبدأ الأول الواعد بالأكثر. والغرض من هذا الفصل هو مواصلة هذا النهج الفكرى العام، واستيفاء الكثير من البيانات اللازمة.

اختبار وجهة نظر عالمية:

هناك ثلاثة اختبارات هامة يجب استخدامها عند تقييم وجهات النظر العالمية. وهى:

اختبار العقل.

اختبار الخبرة.

اختبار الممارسة.

اختبار العقل:

ينظر كثير من المسيحيين إلى العقل على أنه إلى حد ما عدو للإيمان المسيحى. وإنى أختلف بشدة مع هذا الرأى الواسع الانتشار، إلا أنه فى نفس الوقت رغم اتساع انتشاره يدمر نفسه.

ما أقصده باختبار العقل هو المنطق، أو، لكى أكون أكثر وضوحاً، فإنى أقصد به قانون عدم التناقض. ومحاولات تحديد قانون عدم التناقض نادراً ما تتضمن أية دلالات، إلا أننى على أية حال سأقدم له تعريفا: يقرر قانون عدم التناقض أن (أ) أياً كان ما ترمز إليه، لا يمكن أن تكون (ب) وألا تكون (ب) فى ذات الوقت. وعلى سبيل المثال فإن أى افتراض لا يمكن أن يكون صحيحاً وزائفاً فى نفس الموت، والشىء لا يمكن أن يكون مستديراً ومربعاً، والكائن الحى لا يمكن أن يكون إنساناً وكلباً فى ذات الوقت.

إن وجود التناقض يعد علامة على الخطأ. ومن ثم لنا الحق فى أن نتوقع فى أى نظام مفاهيمى أن يكون متناغماً من الناحية المنطقية، سواء فى أجزائه (فرضياته كل على حدة) وفى مجموعه. ويواجه النظام المفاهيمى متاعب واضحة إذا أخفق فى أن يكون متماسكاً منطقياً.

قد يكون الافتقار إلى التماسك المنطقى خطيراً، وهذا يعتمد على ما إذا كان التناقض يوجد فى المعتقدات الأقل أهمية أم يقع فى جوهر النظام. وبسبب هذه النقطة الثانية، نجد نوعاً من الإخفاقات الأكثر خطورة حتى أن نظماً مثل الشك والأنانة (من الأنا) تدمر نفسها.

وقد تعرّف (كلارك) على النقاط الضعيفة (الجزء الضعيف) فى مذهب الشك:

الشك هو الوضع الذى لا يمكن إثبات شيء معه. ونحن نسأل، كيف يمكنك أن تثبت أنه لا يوجد شيء يمكن إثباته؟ يؤكد المتشكك أنه ما من شيء يمكن أن يُعرف. وفى تسرعه يقول إن الحقيقة غير ممكنة. وهل الحقيقة غير ممكنة بالفعل؟ لأنه إذا لم تكن أية فرضية صحيحة، هنا على الأقل تكون إحدى الفرضيات صحيحة، وهى الفرضية القائلة إنه ما من فرضية صحيحة. وإذا كانت الحقيقة غير ممكنة، فإن معنى هذا أننا نكون قد وصلنا إليها بالفعل.

يؤكد المتشكك وجود تناقض، لأنه فيما يتمسك بأنه ما من أحد يستطيع أن يعرف أى شيء، فإنه متأكد تماماً بأنه هو نفسه "يعرف" أنه لا يوجد أحد يستطيع أن يعرف أى شيء، أو هو على الأقل "يعرف" أنه يشك فى أن أى أحد يستطيع أن يعرف أى شيء.

وصف بعض الفلاسفة مثل هذه الآراء بأنها "سخف مرجعية الذات". وما يعنيه هذا هو أنه حينما يُطبق هذا الموقف على نفسه، تكون النتيجة هى هراء هزيمة النفس. و"الأنانا" عبارة عن نظرية أخرى يبدو أنها تقع فى نفس هذه المصيدة. فالأنانى (أو المتفرد بنفسه) هو الشخص الذى يدعى أنه هو وحده الموجود. فلا يوجد شيء أو أحد غيره. ولكننا أمام هذا الموقف يتوجب أن نتساءل، لمن يوجه الأنانى هذا الإدعاء؟ ما الذى يجعل أى شخص يعتقد بجدية أنه الكائن الوحيد الموجود الذي يبذل جهداً فى إيجاد حجج تدعم اعتقاده؟

وبسبب أهمية اختبار العقل، والصعوبة التى واجهت بعض الناس فى فهمه، سأعود للتعليق عليه ثانية فى الفصل الرابع. أما الآن، فلقد قنعت بأن وضحت النقطة القائلة بأنه يجب أن تُخضع وجهات النظر العالمية لاختبار قانون عدم التناقض. فالتنافر دائماً هو علامة على وجود خطأ. وكما سبق القول، يبدو أن بعض المواقف أو النظم الفلسفية تدمر نفسها، بمعنى أنها تهزم نفسها داخلياً.

يجب أن يُؤخذ اتهام التنافر بجدية. وما لم يستطع مناصرو أية وجهة نظر عالمية أن يدحضوا الاتهام بنجاح، فعليهم أن يعتبروا نظامهم فى النهاية أنه سقيم.

ومع ذلك، فإن اختبار التناغم المنطقى، برغم كل ما له من أهمية لا يمكن أن يكون المعيار الوحيد الذى نقيّم بواسطته وجهات النظر العالمية. وفى الغالب، لا يمكن أن يكون المنطق إلا اختباراً سلبياً. وفى حين أن وجود تناقض سينبهنا إلى وجود خطأ، فإن عدم وجود التناقض لا يضمن وجود الصدق. ولهذا نحن فى حاجة إلى محك آخر.

اختبار التجربة:

وجهات النظر العالمية يجب أن تجتاز ليس فقط اختبار العقل، بل ينبغى أيضاً أن تجتاز اختبار التجربة. يجب أن تكون وجهات النظر العالمية ذات صلة بما نعرفه عن العالم وعن أنفسنا.

ومع ذلك، يجب أن نذكر فرقاً هاماً عند هذه النقطة. من المؤكد أن تجربة الإنسان التى تعمل كاختبار لمعتقدات وجهة نظر عالمية تتضمن خبرتنا عن العالم الخارج عنا. ومن المناسب للناس أن يعترضوا حين تتعارض ادعاءات وجهة نظر عالمية مع ما نعرفه أنه صحيح بالنسبة للعالم المادى. وهذا من بين الأسباب التى من أجلها يعتقد قارىء هذا الكتاب أن العالم مسطح أو أن الشمس هى مركز الكون. ومع ذلك، يبدو أن الكثيرين ممن يحثون على تأييد موضوعى، يخفقون فى التعبير عن الثقة للتأييد الشخصى الذى يصل إلينا عن طريق إدراكنا "بعالمنا الداخلى"، ولهذا السبب فإن العرض الموجز لاختبار التجربة سوف ينُقسم إلى جزئين: اختبار العالم الخارجى، واختبار العالم الداخلى.

اختبار العالم الخارجى:

لنا الحق فى أن نتوقع أن تمس وجهات النظر العالمية أعماق خبرتنا بالعالم من خارجنا. ويجب أن تساعدنا على فهم ما نراه.

وقد تعثرت بعض المعتقدات الخاصة بوجهات النظر العالمية فى هذا الاختبار، وهى تتضمن الآتى:

١- خلق الله العالم منذ ستة آلاف سنة.

٢- الألم والموت أوهام.

٣- كل البشر صالحون بالفطرة.

٤- المعجزات مستحيلة.

ومن حسن الحظ أن مسيحيين قليلين الآن هم الذين يتبعون أفكاراً من يعلّمون بأن العالم عمره ستة آلاف سنة فقط. والحساب الخاطىء للترتيب الزمنى الكتابى الذى قاد رئيس الأساقفة (أوشير Ussher) إلى هذا الاستنتاج، قد هُجر إلى حد بعيد. ولهذا السبب فإن قلة من المسيحيين يجدون صعوبة فى فهم طبقات الفحم الحجرى والأحافير التى على هذا الكوكب، أو الضوء الآتى من الشموس التى تبعد عنا بملايين السنوات الضوئية. ومازال قلة من الدينيين المسنين وأتباع عبادات "العصر الجديد The New Age" يعتقدون بالصلاح الكامن فى الناس. يدرك المسيحيون وبعض المراقبين الآخرين من الواقعيين ميل الناس إلى الخطية دون أن يعلمهم ذلك أحد. وكما سنرى الآن أن الرفض الحديث للمعجزات ليس نتيجة دليل لا يُدحض، ولكنه نتيجة التزام شبه دينى لوجهة النظر العالمية المعروفة باسم مذهب الطبيعيين.

وعجز الفرضية الثانية فى القائمة التى ذكرتها سابقاً - بأن الألم والموت أوهام- عن اجتياز اختبار العالم

الخارجي، هو واحد من الأمور التى أفكر فيها نتيجة اختبار مؤسف مررت به منذ سنوات كثيرة خلت. فمنذ سنوات مضت كنت أعمل فى مجال الخدمات العامة فى مستشفى (New England). وذات يوم دخلت المستشفى عالمة مسيحية مصابة بمرض السرطان المميت. وإذ كنت أدرك أن العلم المسيحى أنكر حقيقة المرض والألم والموت، فقد تملكتنى الدهشة لوجودها هناك. ثم علمت بأنه فيما انتشر مرض السرطان وأصبحت حالتها ميئوساً منها وأصبحت الرائحة المنبعثة من جسدها المريض غير محتملة، لدرجة أن عائلتها أدخلتها المستشفى لتخليص البيت من هذه الرائحة النتنة. وقد ماتت فى غضون أيام قليلة. وبمقدورى أن أكرر القول: "كل هذا ما هو سوى وهم"، وهو كل ما يريده المرء. وهذه الادعاءات تتناقض مع اختبار العالم الخارجي.

ولا أود أن يساء فهم موقفى من هذا الاختبار، فالتناغم مع الملاحظة البشرية ليس هو الاختبار الوحيد لادعاءات وجهة نظر عالمية.

ويجب أن يكون هذا واضحاً بسبب ما سبق أن ذكرته عن العقل كاختبار. فلست أنا من أنصار النظرية التجريبية، بمعنى أننى لا أعتقد أن المعرفة الإنسانية بجملتها تبدأ باختبار حسى. بل ولا أفترض أن الناس قادرون دائماً على تناول المعلومات الحسية بنفس الطريقة. غير أنى أُصر بالفعل على تبنى وجهة نظر الفطرة السليمة بأنه ما من وجهة نظر عالمية تستحق الاحترام إذا ما تجاهلت أو جاءت متنافرة مع الاختبار الإنسانى. ومع ذلك فإنى أُصر أيضاً على أن التجربة الإنسانية التى نأخذها فى الاعتبار عند تقييم وجهات النظر العالمية يجب أن تكون واسعة بما فيه الكفاية لتتضمن خبرة من العالمين الخارجي والداخلى.

اختبار العالم الداخلى:

وكما سبق ورأينا، يجب أن تتناسب وجهات النظر العالمية مع ما نعرفه عن العالم الخارجى. إلا أنها فى حاجة أيضاً إلى أن تتناغم مع ما نعرفه عن أنفسنا. أمثلة من هذه النوعية الثانية من المعلومات تتضمن الآتى: أنا كائن يفكر، ويأمل، ويختبر السرور والألم، ويعتقد ويرغب. كذلك أنا أيضاً كائن كثيراً ما يدرك الصواب والخطأ، ويشعر بالذنب والخطية لفشله فى عمل ما هو صواب. فأنا كائن يتذكر الماضى، ومدرك الحاضر، وأتوقع المستقبل. بمقدورى أن أفكر فى أشياء ليست موجودة. وبوسعى أن أخطط ثم أنفذ خططى. وأقدر أن أتصرف بقصد، عوض أن أقوم بمجرد الاستجابة إلى حافز، أستطيع أن أريد عمل شيء ثم أعمله بالفعل. وأنا شخص يحب الناس الآخرين. وأستطيع التعاطف مع الآخرين وأشاطرهم أفراحهم وأتراحهم. وأعرف أنه سيأتى يوم أموت فيه، فإنى أؤمن إنى سأحيا بعد موت جسدى. وكما سبق وشرحت فى فصل سابق، فكثيراً ما يبدو أن هناك طباعاً وعواطف تهزمنى وتشعرنى بأن الرضى التام الذى أسعى إليه لن يتحقق فى هذه الحياة.

وهناك مثال عن كيفية استخدام اختبار العالم الداخلى بشكل مفيد والذى يتمثل فى كتاب لويس "مجرد مسيحية" وهو يبدأ بأن يحمل قراءه على التفكير فى معاييرهم الأخلاقية. فكل إنسان يضع فروقاً بين الصواب والخطأ. فحتى أولئك الذين يعلنون أنهم من الناحية الأخلاقية يعتنقون المذهب النسبى تراهم

يتصرفون على النقيض مما يعلنون حين يخطئهم أحد، فعندما يتهمنا أحد بأننا أخطأنا فإننا نعتقد أن الشخص الآخر على دراية بنفس القانون الأخلاقى. والشئ الذى لفت انتباه لويس بالنسبة للملاحظات التى تصدر عن الناس حين يتشاجرون هى:

"إن الشخص الذى يبدى هذه الملاحظات لا يقول إن تصرفات الشخص الآخر لم ترق له. إنه يلجأ إلى نوع ما من معايير السلوك والتى يتوقع من الآخر أن يكون على علم بها. ونادراً جداً ما يجيب الآخر قائلاً: إلى جهنم أنت ومعاييرك. بل هو دائماً يحاول أن يبرهن أن ما كان يعمله لا يتعارض فى الواقع مع تلك المعايير، وأنه إذا تعارض فهناك عذر خاص. فهو يحاول أن يثبت أن هناك سبباً خاصاً فى تلك الحالة بالذات لتبرير وجوب عدم احتفاظ ذلك الشخص بالمقعد الذى أخذه لنفسه، أو أن الأمور كانت مختلفة تماماً حين أُعطيت له قطعة من البرتقال، أو أنه قد طرأ أمر جديد حمله على ألا يحفظ وعده. والواقع أن الأمر يبدو كما لو أن كلا الطرفين كان فى ذهنهما نوع من قانون أو قواعد الإنصاف أو السلوك المهذب أو الأخلاقيات أو كيفما تحب أن تسميها، كانا فى الحقيقة متفقين عليها. وكان لديهما هذا بالفعل، ولو لم تكن لديهما مثل هذه القواعد، لتشاجرا بالطبع مثل الحيوانات، ولكنهما لم يقدرا أن يتشاجرا بالمعنى الإنسانى للكلمة. فالمشاجرة معناها محاولة إثبات أن الرجل الآخر على خطأ. ولن يكون هناك اتفاق ما بينك وبينه بالنسبة لما هو صواب وما هو خطأ، تماماً مثلما لن يكون هناك معنى فى قولك أن لاعب كرة قد ارتكب خطأ ما لم يكن هناك اتفاق ما حول قواعد كرة القدم.

ما هى الظروف التى تشرح على أفضل نحو حقيقة الوعى الأخلاقى لدى الإنسان؟ ما هى أفضل وجهة نظر عالمية يرجع إليها الفضل فى هذه المعلومات عن عالمنا الداخلى؟ ويواصل (لويس) كلامه ليختبر عدة وجهات نظر عالمية من ناحية كفايتها كتوضيح لهذه الظاهرة. وهو يرفض الآراء المادية عن الكون لأن ليس لها علاقة بتوضيح الوعى الأخلاقى. كما رفض مذهب وحدة الوجود لأن إله هذا المذهب ليس له علاقة بالخير والشر، ولا يمكن وجود فروق أخلاقية حقيقية فى كون يتناغم مع مذهب وحدة الوجود. ورفض مبدأ الإثنية (الاعتقاد فى وجود إلهين متناظرين ومتشاركين فى الأزلية، أحدهما خيِّر والآخر شرير) لأن ذلك لا يمكن أن يفسر لنا كيف نعرف أياً من الاثنين هو الطيب.

يفضل كثيرون التركيز على العالم الخارجى باعتباره الاختبار التجريبى الرئيسى لوجهات النظر العالمية، وذلك نظراً للصعوبات التى تصاحب الجهود المبذولة للنظر "إلى داخل". ويقول (إدوارد چون كارنيل):

عند محاولة صياغة فلسفة للحياة فإن آخر حقيقة وبالتالى أصعبها فى التقسيم والتصنيف هى البيئة الأخلاقية والروحية المعقدة الخاصة بالفيلسوف نفسه. ومعظم الجهود التى تُبذل فى التجريد فشلت فى التأثير على الرجل العادى، لأن الحكماء نادراً ما يستغرقون وقتاً لتفسير الحياة من داخل مركز منظورهم كأفراد... تظل وجهة النظر العالمية مبتورة لدرجة أن المفكر يفشل فى التعامل مع معلومات تم الحصول عليها من مشاركة متواضعة من البيئة الأخلاقية والروحية... والمقصود أن ما يمكن إدخاله إلى الوسط الأخلاقى والروحى لا يمكن تعلمه إلا عندما يعرف الإنسان نفسه الحقائق التى سبق أن أبقته فى الوجود نفسه. وهذه

الرحلة إلى الداخل هى مسئولية شخصية مؤلمة، لأن الفرد نفسه هو الذى يعرف أسرار حياته الأخلاقية والروحية.

إلا أنه مهما كان الأمر صعباً أن ننظر بأمانة إلى ذاتنا الداخلية، إلا أنه لنا الحق فى أن نتشكك فى أولئك الذين فى دفاعهم عن وجهة نظر عالمية ينكرون العالم الداخلى أو يرفضونه.

اختبار الممارسة:

يجب اختبار وجهات النظر العالمية ليس فى حصة الفلسفة فقط، بل فى معمل الحياة أيضاً. وأن تجتاز وجهة نظر عالمية اختبارات نظرية معينة (العقل والتجربة) شئ وأن تجتاز وجهة النظر أيضاً اختباراً عملياً مهماً، فهو شيء آخر وأقصد بذلك، هل بمقدور الشخص الذى يؤمن بأن وجهة النظر العالمية تعيش بصفة دائمة في تناغم مع النظام الذى يؤمن به؟ أم يضطر لأن يعيش طبقاً لمعتقدات مأخوذة عن نظام منافس؟ وإنى أرى أن مثل هذا الاكتشاف يجب أن يتولد عنه شيئاً أكثر من مجرد الارتباك والتداخل.

لعب هذا الاختبار العملي دوراً هاماً فى أعمال المفكر المسيحى (فرانسيس سكايفر Francis Schaeffer). ويشرح (توماس موريس Thomas Morris) موقف (سكايفر) بقوله:

"لا يمكن لغير المسيحيين أن يستمروا ثابتين فى تناغمهم-على الأقل بالنسبة لبعض أفكارهم وأعمالهم اليومية-مع النتيجة المتعلقة بذلك، والتي ستتأتى منطقياً من مجموعة فرضياتهم الأساسية". ووجهة نظر (سكايفر) هو أن غير المسيحيين سيجدون وقتاً عصيباً من العمل المتواصل لوضع فرضياتهم فيما يعيشون فى سياق (عالمهم الداخلى) والعالم الخارجي.

ساعد اختبار (سكايفر) العملي أو الوجودى على وضع أساس لكلمات (موريس) الأخيرة:

"تستطيع افتراضات المسيحية التاريخية وبشكل كاف أن تشرح وتتناغم مع البيئتين اللتين يجب أن يعيش فيهما كل رجل: العالم الخارجى بشكله وتعقيده، والعالم الداخلى بسمات الإنسان نفسه كبشر. وهذا "العالم الداخلى" يتضمن سمات بشرية مثل: الرغبة فى الأهمية، الحب، المعنى، والخوف من عدم وجوده، وذلك ضمن سمات أخرى".

وهناك شيء واحد ينبغى أن يكون واضحاً: إن أى قارئ يعتقد أن تعليق (سكايفر) صادق، سيتوافر لديه سبب قوى لقبول وجهة النظر العالمية المسيحية. ويجب أن نحتفظ بكلماته فى ذاكرتنا فيما نواصل رحلتنا.

سؤال عن الطريقة:

عرضت فى الجزء الأول من هذا الفصل عدة اختبارات مختلفة يمكن استعمالها لدعم أحكامنا عن كفاية وجهات النظر العالمية المتنافسة. أما الآن فأود أن أواصل موضوع اختبار وجهات النظر العالمية إلى أبعد من ذلك بقليل وذلك بإلقاء الضوء على نوعية الطريقة أو الإجراء الذى أوصى به.

وهناك شيء واحد، أود أن أوضحه بصفة خاصة، وهو أن طريقتي ليست استدلالية.

وأشهر قياس منطقى فى التاريخ يبدأ بالمقدمة المنطقية الكبرى بأن "كل إنسان نهايته الموت"، وهذه تقدم لنا فرضية صغرى أكثر وضوحاً ("سقراط إنسان") وتنتهى بنتيجة ("سقراط نهايته الموت")، حقيقتها كانت كامنة فى المقدمات. وصحة الحجة الاستدلالية هى وظيفة صيغتها وليس مضمونها. أى أن أية حجة تكون صحيحة إذا كانت لها نفس الصيغة المنطقية التى لهذا النموذج بغض النظر عن الكلمات المعينة التى يمكن استبدالها. ونتيجة أية حجة استدلالية صحيحة لا تتضمن إطلاقاً أية معلومات لم تكن موجودة من قبل فى المقدمة المنطقية. والميزة الكبرى لأية حجة استدلالية صحيحة، هى أنها تقدم يقينية منطقية. وبالنسبة لأية حجة صحيحة، إذا كانت المقدمات المنطقية صحيحة، فلابد إذاً أن تكون النتيجة صحيحة.

الاستدلال الاستقرائى يفترض أيضاً عدداً من الصيغ المختلفة. وقد يتضمن استدلالاً من حالات معينة قليلة إلى تعميم لحالات كثيرة. وإما أنه قد يتضمن ما يُطلق عليه الاستنتاج القياسى: فالاعتقاد أن شيئين متماثلين أو متشابهين فى ناحية ما، يؤدى إلى الاستدلال بأنهما متشابهان فى ناحية أخرى. والصيغة الرئيسية التى يختلف فيها الاستدلال الاستقرائى عن الاستدلالى هى الصيغة التى تفتقر إلى اليقينية المنطقية فى التفكير الاستدلالى، وأكثر ما يمكن أن تقدمه أية حجة استدلالية هو احتمال.

وبالنظر إلى أن الطريقة التى استحسنها هذا الفصل ليست استدلالية، فإن نتائجها تفتقر إلى اليقينية المنطقية، والاحتمال في هذه النوعية من الاستنتاج لا يمكن تجنبه. ويجد بعض الناس صعوبة فى فهم هذا أو تقبله. وهم يتصرفون كما لو كانوا يزكون إجراء لا يقدم إلا مجرد احتمال، وهذا ليس مجرد أمر مفعم بالشك بل إنه مدمر بصفة صريحة. وبالنظر إلى أن مثل هذه الأحكام تظهر سوء فهم واضح لما هو ممكن أو غير ممكن من الاستدلال الاستقرائى، فإنى أقدم التوضيح التالى:

هناك عدة أسباب توضح النهج الذى أفكر فيه. ولقد شبه الفيلسوف البريطانى (باسيل ميتشل Basil Mitchell) اختبار وجهات النظر العالمية، بالطريقة التى يبحث بها الإنسان عن التفسير الصحيح لنص مكتوب. وكل دارس للكتاب المقدس والكتابات العظيمة الأخرى يعرف كيف يمكن أن يصبح الأمر صعباً فى بعض الأحيان أن تنتبه إلى المعنى الذى قصده الكاتب فى عبارة أو جملة أو فقرة معينة. وأفضل تفسير هو ذاك الذى يأخذ بكل أمانة فى حسبانه رسالة النص كله فى إطاره التاريخى والأدبى. وقبل اقتراح تفسير نهائى، يتوجب وبكل حرص دراسة مفردات اللغة والسياق الذى ورد فيه النص، والوضع التاريخى الذى كتب فيه. وأكثر تفسير مقبول هو الذى تتجمع فيه كل المعلومات المتعلقة بالموضوع فى تناغم وعلى أفضل وجه. وبغض النظر عن كيفية قيام المفسر بعمله بكل حرص، فما من تفسير يمكنه أن يحقق إطلاقاً يقينية منطقية. والتفاسير المتنافسة ستكون محتملة تقريباً، وهذا يعتمد على مدى تناغمها وجودته.

ويُعد تفسير الأحداث التاريخية مثالاً آخر لنوعية التفكير المستخدم فى تقييم وجهات النظر العالمية. فحين أصبحت إليزابيث الأولى ملكة لإنجلترا سنة ١٥٥٨، كان لقبها الرسمى: "إليزابيث بنعمة الله، ملكة

انجلترا وفرنسا وأسبانيا، وحامية الإيمان، إلخ.." وهذا ما يثير سؤالاً هاماً. ماذا تفعل كلمة "إلخ" فى لقب الملكة. وهذا أمر يبدو أنه يصرخ طالباً الإيضاح. ولقد لخص (إرنست ناجيل Ernest Nagel) محاولة قام بها أحد المؤرخين ليجعل هذا أمر له معنى.

اقترح المؤرخ القانونى (ف.و. ميتلاند Maitland's) التفسير التالى، فقد بين أولاً أن كلمة ("إلخ") لم تُذكر نتيجة خطأ أو إهمال بل ذُكرت عمداً. كما أشار أيضاً إلى أن إليزابيث وُوجهت أيضاً بالبدائل، إما بالاعتراف (مع أختها غير الشقيقة، الراحلة الملكة مارى) بسمو السلطة الكنسية للبابا، أو بإبطال القوانين المريمية ومقاطعة روما كما سبق أن فعل والدها. واتخاذ قرار بالنسبة لأى من البديلين كان مشحوناً بالمخاطر الجسيمة، لأن تحالفات القوى العسكرية والسياسية فى الداخل والخارج، والتى كانت تناصر أى من البديلين لم تكن مُحكمة. ولذلك كان يمكن لتلك الصيغة أن تتناغم مع أى قرار قد تتخذه فى النهاية- ولذلك بوسعنا أن نوسع الشعار هكذا: ("إلخ")- وكان من شأن ذلك، وطبقاً لقوله البليغ الموجز عن التفسير (يُترك لأحداث المستقبل أن تقرر ولكن ليس شيئاً أبعد من ذلك أو شئ خلاف ذلك) أن كنيسة إنجلترا وكذلك ايرلندا الرئيس الأعلى فى كل الأرض.

ويتناول المؤرخ مادته بنفس الطريقة التى يتناول بها المفسر نصه. فكل منهما يواجهان تحدى تفسير وفهم شىء ما. وكلاهما يجمعان أكبر قدر ممكن من المعلومات المتصلة بالموضوع. وكلاهما يقدم فرضية أو نظرية، وربما يقدم مفسرون ومؤرخون آخرون فرضيات متنافسة. ونظرية (ميتلاند) هى أن ظهور كلمة "إلخ" فى لقب الملكة إليزابيث لم يكن قد وُضع بالخطأ بواسطة طرف ما، بل وُضع لسبب ما يرجع للظروف التاريخية الخطرة التى وُجدت حين اعتلت إليزابيث العرش. وإذا كانت قد ادعت علانية رئاستها لكنيسة انجلترا سنة ١٥٥٨ فمن المؤكد أن ذلك كان سيؤدى إلى حرب مع أسبانيا وربما إلى عصيان مسلح داخل انجلترا. لدرجة أن المطالبة بإنكار هذا السلطان على كنيسة انجلترا فى ذلك الحين كان يعتبر أمراً لا يتسم بالحكمة. وهكذا تخيل (ميتلاند) أن إليزابيث قررت تجميد الأمر إلى حين بتضمينها تلك الكلمة الحميدة "إلخ" فى لقبها الرسمى. وبعد ذلك، وحين أوضحت أحداث المستقبل خياراتها وأنه بمقدورها إصدار قرارها الأخير بأمان، استطاعت أن تعلن كل ما تعنيه بكلمة "إلخ". فهل تفسير (ميتلاند) صحيح؟ إن أى قرار نهائى يعتمد على ما إذا كان يتناغم مع كل ما نعرفه عن الأزمنة، وعن تكوين فكر إليزابيث وبأفضل من أى تفسير منافس. ونعود للقول بأن أكثر ما يمكن أن يأمل أى تفسير فى الوصول إليه هو درجة عالية من الاحتمالية.

وهناك تشابه ثالث آخر فى العمليات التى ينتهجها المخبرون فى القصص البوليسية الخيالية مثل شرلوك هولمز، وهيركول بويرت وذلك عند كشفهم غوامض الجريمة التى فى القصة. معظم الذين قرأوا قصص سير "أرثر كونان دويل"، و "أجاثا كريستى" يحاولون أن يحلوا اللغز قبل أن تكشف بقية أحداث القصة أخيراً عن الإجابة الصحيحة. ويقدم القارىء، بوعى أو بدون وعى، نظريات مختلفة (حلولاً مقترحة) فيما تتكشف عنه حبكة القصة. والكشف عن معلومات جديدة قد يكون من شأنه بطلان إحدى النظريات وإعطاء قبول أكثر لنظرية أخرى. والإجابة الصحيحة هى تلك التى تتناغم بشكل أفضل مع كل مفاتيح اللغز.

وإلى هنا نجد أن سمة واحدة وهى "التماسك" تميز أفضل التفسيرات النصية، والتفسيرات التاريخية، والحلول الخاصة بقصص الألغاز. وأفضل نظرية هى تلك التى تتناغم بشكل أفضل مع كل شيء آخر تعرفه، وأحسن تفسير أو توضيح أو إجابة هى تلك التى تتناغم تقريباً مع كل المعلومات.

هناك مثال آخر لتقييم وجهات النظر العالمية، وأنا أفضل الأخذ به، ويمكن أن نجده فى النهج الذى يتبعه العلماء فى سعيهم نحو تفسير ظاهرة ما. فهم يسألون: ما هى الظروف التى تعطى معنىً لهذا الموقف. وعادة ما يجدون أنه من الضرورى تأمل عدد من الاحتمالات والبدائل المختلفة التى يفحصونها لتصبح نظريات، ثم تُؤكد بعد ذلك، أو لا تُؤكد عن طريق كيفية تفسيرها للظاهرة على أفضل وجه فهم يحاولون الوصول إلى التفسير والنظرية اللذين يعطيان أفضل معنى للموقف وهذا يماثل الطريقه التى يستقر بها الدارسون على معنى نص ما، والطريقة التى يصل بها المؤرخون إلى قرار يتعلق بتفسير حدث تاريخى، وبالأسلوب الذى يحل به (شرلوك هولمز) لغز الجريمة، هذا الإجراء يماثل الطريقة التى نستخدمها لتقييم وجهات النظر العالمية. والباحثون الأمناء يقولون لأنفسهم: "هذا ما أعرفه عن العالمين الداخلى والخارجى، والآن ما هى الفرضية المعيارية أو وجهة النظر العالمية التى تقدم أفضل معنى لكل هذا ؟

لا يتوقف رجال الأدب، والمؤرخون، والمخبرون، والعلماء، وفاحصو وجهات النظر العالمية الذين يجيدون عملهم عند أول معلومة تؤكد نظريتهم. وفيما تزداد كمية المعلومات المؤكدة، تزداد أيضاً احتمالات صدق النظريات. فالعدد الكبير من الملاحظات إذا ما أُخذ معاً يقدم قضية مؤكدة تعزز احتمالية صحة النظرية. ويقدم (توماس موريس) توضيحاً نافعاً بقوله:

لنفترض أننا فى حجرة لا نوافذ لها، ونحن نناقش نظريتين متنافستين: هل المطر ينهمر فى الخارج، أم أن الجو مشمس؟ وهناك أحداث كثيرة يُتوقع أن تحدث إذا ما كانت نظرية المطر صحيحة، ولكنها لا تحدث إذا كانت نظرية الشمس صحيحة، مثلاً تتساقط الأمطار على السقف، ويأتى أحد الأصدقاء وقد تشبعت ملابسه كلها بماء المطر، وتملأ المياه الشوارع إلخ. ولكن لنفترض أننا سمعنا صوت الماء وهو يتساقط على السطح (وهى ملاحظة تتعلق بأحد الأحداث التى ذُكرت عاليه). وتؤكد هذه الملاحظة احتمالية صحة نظرية تساقط المطر. فهل نعرف حينئذ أن نظرية المطر صحيحة، وأنه يتساقط خارجاً؟

الإجابة بالطبع: "لا". حتى ولو حدث وسمعنا دقات الماء على السطح، فلربما يكون ذلك بسبب أن شخصاً يرش الماء هناك، ومن المحتمل أن تكون الشمس ساطعة فى الخارج، ويواصل (موريس) كلامه فيقول:

ولنفترض أيضاً أننا رأينا صديقاً يدخل الحجرة وثيابه مبتلة. وهذه الملاحظة تؤكد أيضاً، وتثير احتمالية فرضية وجود مطر، غير أنها لا تثبت بشكل حاسم أن هذه فرضية صحيحة. فلربما أن الرجل الذى يستخدم خرطوم الماء هو الذى أمطره ماءً. وأخيراً، لنفترض أننا سمعنا صوت سيارات تمر على أرضية شارع مبللة. هذه ستكون أيضاً علامة مؤكدة، ولكنها وحدها لن تكون حاسمة، لأنه ربما أن كناس الشارع قد رش الشارع للتو، أما الجو نفسه فمشرق جميل. وعلى الرغم من أنه ليس من بين الملاحظات السابقة ما يثبت بشكل قاطع أن

المطر يتساقط فى الخارج، إلا أن النتيجة المؤكدة ستثير احتمال صحة افتراضية المطر إلى حد كبير، حتى إننا سنكون مقتنعين تماماً بأن المطر يهطل فى الخارج. وهذه القناعة يمكن أن توصف بإنها إجابة غير موضوعية تم تقديم تقرير لها-رداً على-ونتيجة إلى الاحتمالية المؤكدة التى أُعْطيت لفرضية سقوط المطر بسبب هذه الملاحظات المؤكدة الثلاث.

وسرعان ما اعترف (موريس) أننا فى حياتنا اليومية لا نعمل فى ظل مثل هذا الإجراء المنهجى. فنحن لا نتعمد تقديم افتراضات متنافسة ثم نصنعها لمجرد أن نصل إلى قرار حول ما إذا كانت الشمس ساطعة فى الخارج أم لا. إلا أنه يخلص إلى أنه إذا تناغمت إحدى الافتراضات أو التوضيحات بشكل طيب مع ملاحظاتنا عن العالمين الداخلى والخارجى، أو كان لإحدى الافتراضات معنى أفضل من الناحيتين النظرية والوجودية، ألا يكون من الغباء رفضها لصالح فرضية أقل تناغماً؟

مشكلة اليقينية:

ولكن ماذا عن اليقين؟ قد يتساءل البعض أليس هناك قدراً من انتهاك المقدسات عندما لا يتعدى الإثبات لأى معتقد دينى أكثر من مجرد احتمال؟ أليس هناك شئ بديل يتيح لنا أن نؤمن بيقين؟ وإذا كان الأمر كذلك، ألا يكون لهذا البديل ما يعطيه أكثر من نظام لا يعد بشىء سوى الاحتمالات.

تكشف مثل هذه الأسئلة عن سوء فهم خطير من جانب من يطرحونها. وهم فى حاجة إلى أن يعرفوا الفرق بين نوعية اليقين التى نجدها فى الرياضيات والمنطق (لنطلق عليها اليقين المنطقى)، وذاك الذى نجده فى مجالات أخرى (ولنطلق عليه اليقين النفسى أو الأخلاقى).

لا نجد اليقين المنطقى إلا فى مجالات مثل المنطق والهندسة والرياضيات. والأمثلة التى يمكن أن تُعرف بيقين منطقى يتضمن:

١- الرقم ٧ إذا أُضيف إلى الرقم ٥ يكون الناتج ١٢.

٢- ما من شىء يمكن أن يكون مستديراً ومربعاً فى ذات الوقت وبنفس المعنى.

٣- إما أن ريتشارد نيكسون كان هو الرئيس السادس والثلاثين للولايات المتحدة الأمريكية، وإما أنه لم يكن الرئيس السادس والثلاثين للولايات المتحدة.

واليقين المنطقى محدود فى هذه النوعية من التفكير. فالبند رقم (١) صحيح، بسبب قوانين الرياضيات. ورقم (٢) صحيح، بسبب قانون عدم التناقض. ورقم (٣) صحيح لأن هذا الأمر لا يحتمل وسطاً. وبغية أن يكون الافتراض أكيداً بهذا المعنى المنطقى، فلابد أن يكون بالضرورة صحيحاً أو زائفاً.

غير أن فرضيات مثل "قام يسوع من القبر بالجسد"، "الله خلق العالم" و "الكتاب المقدس يتكون من ستة وستين سفراً" لا يمكنها أن تصل إلى اليقين المنطقى، وكذلك الحال بالنسبة للفرضيات المتعلقة بالتاريخ والجغرافيا، والفيزياء والفلك، أو اقتصاديات البيت، أو أية وجهة نظر عالمية. وما أن يترك الإنسان مجال

التفكير التقليدى المحض، وينتقل إلى عالم الدماء والعرق والدموع، ألا ويُطلب منه أن يتخلى عن اليقين المنطقى ويتبنى مجال الاحتمالات. والأحكام عن أشياء وأحداث معينة (أو مجموعة من الأشياء والأحداث) لا يمكنها أن تتخطى حدود الاحتمال. ولكن هذا بالكاد يكون مدعاة للأسف. وكما قال "إدوارد چون كارنيل" ذات مرة:

"الاعتراف بأن برهان المسيحية على قيامة المسيح لا يمكن أن يرقى عن كونه احتمالاً، ولا يُعد دليل ضعف، بل هو بالأحرى دلالة على أن لدى المسيحى وجهة نظر عالمية تبذل جهداً مخلصاً للتعامل بجدية مع التاريخ الحقيقي الواقعي. والمسيحية ليست بالضرورة نظاماً فكرياً استدلالياً، جاء وليد فكر أحد الفلاسفة غير مكترث بحركة التاريخ البشرى من ورائه.

وعلى الرغم من أنه لا يمكن لوجهة نظر عالمية أن ترقى فوق الاحتمالية المنطقية، إلا أنه مع ذلك يمكن الإيمان بها بيقين أخلاقى. فالفرضية الفردية، أو نظام من الفرضيات الذى يكون احتمالاً بالمعنى المنطقى بوسعه أن يولد يقينية بالمعنى السيكولوچى أو الأخلاقى. ويضيف (كاردنيل) قائلاً:

"إن الاحتمال العقلانى واليقين الكامل أو التام لا يمكن أن يكونا متنافرين. وإننا لواثقون من الناحية الأخلاقية بأنه كان هناك رجل يُدعى چورچ واشنطون، مع أن الدليل العقلانى لوجوده لا يخرج عن أن يكون احتمالاً. وكل ما يحتاجه العقل للاقتناع هو الترابط المنطقى لكى يكون لديه يقين أخلاقى.... والحجج التى تدافع عن المسيحية -ولو أنها محتملة فقط فى قوتها العقلانية- تحرك المسيحى ليتصرف على أساس افتراض صحة الإيمان المسيحى".

وقبل فعل شئ-وغالباً فى موضوعات قد يكون لها تأثير قوى على حياتنا وسعادتنا- نادراً ما نتوقف ونشغل أنفسنا فى عملية صنع استدلالات شكلية. وقبل الدخول إلى المصعد، على سبيل المثال، نادراً ما نرى أناساً عاديين يراجعون معلوماتهم عن طريق الكمبيوتر للتأكد من مكان وصولهم إلى الجهات التى يقصدونها سالمين. وكثيراً ما نتصرف فى الحياة بيقين (يقين أخلاقى) أعظم بكثير مما يضمنه الدليل. ونحن فى واقع الأمر لا نعرف كثيراً من الأشياء التى نفترضها لأغراض عملية. ونحن نتصرف على أساس احتمالات قوية جداً حتى أنها بالنسبة للأغراض العملية تصبح فى وضع لا يمكن التمييز فيه بينها وبين اليقينيات.

من النادر أن تطلب يقيناً منطقياً بالنسبة للموضوعات التى يتأملها هذا الكتاب. واعترافى بأنه يتعين علينا أن نتعامل فى ظل الاحتمالات (بالمعنى المنطقى)، لا يُعد خطأ، إنه دلالة على أننا نتعامل بمسئولية لا مهرب منها مع العالم الواقعى.

الفصل الرابع

نظرة أخرى على اختبار العقل

قدمت محاضرة أثناء زيارتى للاتحاد السوفيتى، الأمر الذى سبق أن أشرت إليه قبلاً، حول فكر وجهة النظر العالمية بصفة عامة، وسمو وجهة النظر العالمية المسيحية بصفة خاصة، وذلك أمام حشد من خريجى الجامعات، وبعد المحاضرة وقفت شابة كان واضحاً أنها منزعجة، وطلبت أن نتناقش حول بعض النقاط، التى تكلمت عنها. وبعد ذلك، حين تقابلت معها بحضور أحد المترجمين، قدمت نفسها على أنها مدرسة للفلسفة. وفيما كانت تثنى على كثير من نواحى مناقشتى، إلا أن أمراً واحداً سبب لها إزعاجاً شديداً، ألا وهى الأهمية التى أعطيها لقوانين المنطق وهى أهمية كانت موضع دهشتها البالغة.

ولسوف أطلعك على سر صغير. حينما يتهمنى أحد بأنى عقلانى، وأنى أضع تأكيداً كبيراً على قوانين المنطق، كنت أعتبر هذا إطراءً- بغض النظر عما تعنيه العبارة بالنسبة لمن ينتقدنى. وبالنسبة لمنتقدتى الروسية، فقد استغرقنى الأمر عدة دقائق كى أحدد على وجه الدقة من أين أتت. فى بادىء الأمر حسبت أنها ماركسية تقليدية متصلبة كانت تعترض على تأكيدى على قانون عدم التناقض لأنه يتناقض مع المفهوم الماركسى للجدل المنطقى. والواقع أنه حتى الاجتماع الثانى الذى عُقد فى اليوم التالى لم أكن قد أدركت أنها كانت قد اعتنقت نسخة روسية غريبة لما نطلق عليه نحن فى الولايات المتحدة "تفكير العصر الجديد". فقد كانت من أنصار مذهب لا عقلانى يقول بوحدة الوجود، يسمو الحق المطلق فيه على كل القوانين العادية للعقل والمنطق. وما أن تبينت هذا، إلا وقدمت لها بعض الحجج التى سأذكرها بعد ذلك فى هذا الفصل. وفيما تركت هذه الفيلسوفة الروسية اجتماعنا الأخير دون اقتناع، إلا أننا افترقنا كأصدقاء، وأعطتنى دعوة مفتوحة لأحاضر طلبتها فى المرة التالية التى أزور فيها موسكو.

ولقد ذكرت هذا لأنه، على الرغم من أن معظم من يرفضون المسيحية، يعاملونها على أنها ملاذ لأعداء العقل، إلا أن الحقيقة هى أنه قد لا يكون هناك وجهة نظر عالمية فى تاريخ الجنس البشرى تولى اعتباراً لقوانين المنطق أكثر مما توليه لها المسيحية. ومع ذلك، وبعد أن أوضحت هذه الحقيقة، رأيت أنه يجب علىّ الآن أن أضيف نقطة هامة. إن هذه الناحية من قوانين المنطق تشكل جزءاً ضرورياً من وجهة النظر المسيحية العالمية، وذلك إذا ما فهمت وجهة النظر العالمية هذه على نحو صحيح. غير أنه مما يُؤسف له أن هناك أعداداً كبيرة من المسيحيين تراهم لا عقلانيين فى فهمهم للإيمان المسيحى والصورة التى يرسمونها له، إلا أننى أؤكد أن فهم هؤلاء ليس كاملاً بالنسبة لوجهة النظر العالمية المسيحية، ولا لماهية قوانين المنطق -ولاسيما قانون عدم التناقض.

هل الدين ضد المنطق؟

فى مقالة صدرت سنة ١٩٥٥ تحت عنوان: "التصوف والمنطق البشرى"، كتب (و.ت. ستاسى W.T. Stace)-وهو من أساتذة الفلسفة السابقين بجامعة برنستون، يقول: "الله-بصفة تامة وإلى الأبد-أبعد من متناول العقل والمنطق، أو أى فهم عقلى، وأنه نتيجة لذلك حين نحاول فهم طبيعته عن طريق العقل، تظهر التناقضات فى تفكيرنا". وبحسب ما يراه "ستاسى" فإن "أية محاولة لفهم الله من خلال المنطق، أو العقل

مآلها الفشل". وكلمح البصر ينتقل "ستاسى" إلى الوضع الأكثر تطرفاً بأنه "يتعين على المؤمنين المتدينين رفض المنطق تماماً حين يتعاملون مع الله".

(وستاسى)-وهو نفسه متصوف- يسخر من متصوفين آخرين لاستسلامهم لبواعثهم العقلانية، ويحثهم عن طرق لإزالة المتناقضات من تفكيرهم عن الله. والسبيل السليم-عند (ستاسى)-هو أن نبتهج فى التناقضات، وهو يعبر عن هذه النقطة بقوله:

"اعتقادى الشخصى هو أن كل المحاولات التى تجرى لإضفاء العقلانية على التناقض الظاهرى، وجعله مقبولاً من الناحية المنطقية. إنما هى محاولات لا طائل منها، لأن تناقضات الديانة والتصوف لا تُحل بالعقل البشرى. وأرى أنه لم يكن هناك إطلاقاً، ولا يمكن أن يكون هناك فى يوم ما، حل لها، أو جعلها منطقية.. وحين تقول إن الله لا يُسبر غوره فإنك لا تقصد سوى شيء واحد وهو أن هذه التناقضات تندلع فى فكرنا ولا يمكن حلها، مهما كنت من علماء المنطق الأذكياء أو الصالحين".

ينتقد (ستاسى) بصفة خاصة الصوفيين البوذيين، الذين يحاولون أن يزيلوا التناقضات من نظامهم بافتراض وجود اثنين من (البراهمة) Brahamns، أحدهما علوى والآخر سفلى. ويقول (ستاسى) "يجب أن نكون متأكدين من أن هذا هو الحل الخاطىء لأن البديهة الدينية تقول بأن الله واحد وليس اثنين. وعلى هذا فإن المنطق بكل بساطة لا ينطبق على الدين". ولا يقول (ستاسى) إن الديانة من الممكن أن تكون غير معقولة بمعنى أنها تناقش أشياء هى فوق المنطق البشرى. ذلك أن الديانة عند (ستاسى) هى بالفعل ضد المنطق. "هل يتعين أن نقول إن هناك تناقضاً فى طبيعة الله نفسه، فى الكائن المطلق؟ حسناً، وإذا كان لنا أن نقول ذلك، فإنى أعتقد أننا لن نكون بذلك قد قلنا شيئاً غير عادي أو مروع".

وللوهلة الأولى، يبدو (ستاسى) أنه يعتقد أن الله فوق قوانين العقل. ولكن لنلاحظ المشاكل التى خلقتها له عدم عقلانيته. لو كان (ستاسى) على صواب ومنطقى وليس على صلة بنوعية الصوفية التى يمثلها، لكان من الصعوبة أن تفهم معظم كتاباته. وعلى سبيل المثال، فلماذا-إذا أخذنا فى الاعتبار إنكاره للمنطق- ينتقد البوذيين الذين رفضوا وحدانية الله لصالح اثنين من (البراهمة)؟ وعلى أية حال، إذا أُنكر المنطق، فيمكن أن يكون الله واحداً أو اثنين (أو ألفين)، في نفس الوقت وبنفس المعنى. وإذا كان يمكن إيجاد فرق بين إله عقيدة التوحيد، أو الإله بحسب مذهب الثنائية أو مذهب تعدد الآلهة، هنا لابد وأن يكون للمنطق علاقة على أية حال. وما أن يُنكر المنطق، إلا ويصبح التنافر فضيلة.

هل الدين فوق المنطق؟

يبدو أن (توماس تورانس Thomas Toirancé)-وهو من كبار اللاهوتيين فى كنيسة اسكوتلاندا وتلميذ (لكارل بارت)-هو واحد من عدد من المفكرين البروتستانت الذى يبدو أنه يصر على وجود فرق بين منطق الله ومنطق بشرى أدنى ومختلف. والواقع أن (تورانس) يعتقد أنه بالنظر إلى أن أشكال "المنطق البشرى" لا يمكن أن تمتد إلى الله السامى، الذى هو إله الإيمان المسيحى، فإن المنطق البشرى، والفكر البشرى، والمفاهيم

البشرية، كلها غير كافية لمعرفة إله المسيحيين. وكتب يقول إن "أفكار ومفاهيم وتشبيهات وكلمات البشر محدودة للغاية، وهزيلة وضئيلة بالنسبة لمعرفة الله". توحى القراءة الواعية لكتابات (تورنس) بأنه يعتقد أن معرفة الإنسان لله مستحيلة، وأن صيغ تفكير البشر تعجز تماماً عن فهم الحق والمنطق بحسب ما هما موجودان فى ذهن الله. غير أن عدة مشاكل تتعلق بلا عقلانية (تورانس) تصبح واضحة فى الحال. فمن ناحية، إذا كانت مبادىء المنطق تجريبية ومتقلبة كما يدعى (تورانس)، فكيف يمكننا أن نثق فى صحة ما يقول به هو نفسه؟ وعلى أية حال، إذا كان الله نفسه لا يستطيع أن يعلن لنا عن الحقائق السرمدية أو التى تخص البشر جميعاً، والمعلومات الصحيحة، فما الذى يحمل (تورانس) على الاعتقاد أنه هو يستطيع ذلك؟ إن كتابه يشير إلى أنها صحيحة وأنها تتضمن معلومات صحيحة، فهل يعتقد (تورانس) أن بمقدوره أن يفعل شيئاً لا يستطيع الله عمله؟

يقول (د. كارل ف. هنرى)-وهو فى دهشة بالغة- أن (تورانس) فى كل قناعاته يبدو أنه يخص نفسه بمعرفة افتراضية موضوعية عن الله ينكرها منهجه وعن عمد بالنسبة لسائر البشر. وعلى سبيل المثال، من أى مصدر حصل (تورانس) على المعلومات القائلة بأن هناك حقائق موضوعية جوهرية لا يمكن حصرها فى إطار الحقائق الموضوعية البشرية التى نصادفها، وهى حقائق موضوعية تسمو بلا حدود على الحقائق الموضوعية للبشر".

وتكرار استعمال (تورانس) للافتراضات التى ينكرها على الآخرين تشكك فى أمانته. كما يواصل (هنرى) كلامه موضحاً أن موقف (تورانس) ينحدر إلى مستوى مبدأ الشك:

"إن الإصرار على وجود هوة بين مفاهيم البشر والله باعتباره موضوع المعرفة الدينية يمثل تآكلاً للمعرفة، ولا يمكن تفادى انحداره إلى الشك. والمفاهيم التى هى بالتحديد غير كافية لحق الله لا يمكنها أن تعوض النقص المنطقى باللجوء إما إلى قدرة الله الكلية أو إلى نعمته. بل ولن يفلح الأمر بأن تدعو إلى إعادة بنية المنطق لصالح معرفة الله. ومن يدعو إلى منطق أعلى عليه أن يحتفظ بقوانين المنطق القائمة ليتفادى الدفاع عن هراء لا منطق له".

وإذا كان لله بالفعل منطق خاص به، إذاً لا يمكن وجود معيار بمقدوره أن يساعد البشر على التمييز بين الرب والشيطان. "إذا كان قانون التناقض لا مجال له فى الوجود السامى، فإن الله، وما هو ليس الله، أى الإلهى والشيطانى لا يمكن التمييز بينهما بكل تأكيد".

وإنكار المنطق بطريقة مماثلة فى كتابات (توماس تورانس)، أمر نجده فى فلسفة (هيرمان دويويرد Herman Douyeweerd)، وهو مفكر ألمانى تتركز أعماله على ما يقول به بعض المفكرين الكالفنيين فى جراند رابيدز- ميتشجان، وفى معهد الدراسات المسيحية، وهو معهد صغير فى تورنتو -أونتاريو.

وليس ضرورياً أن ندخل فى تفاصيل فلسفة (دويويرد). أما المهم بالنسبة لهدفنا الحاضر فهو نظرية "الحدود" التى يقول بها (دويويرد). حيث يؤكد أتباعه سيادة الله وسموه. وهم يقولون إن خليقة الله تخضع

لقوانين عديدة مثل قوانين الطبيعة، وقوانين الأحياء، وقوانين الرياضيات، وقوانين التفكير، وقوانين الاقتصاديات، وما إلى ذلك. وبالنظر إلى أن الله هو معطى الناموس، فهو نفسه لا يخضع للقوانين التى تحكم الخليقة. وعلى هذا، فالقوانين تشكل حدوداً بين الله والخليقة. والقوانين التى تنطبق تحت الحدود، لا تنطبق على الله الذى هو فوق الجميع.

ويبدو تعليم (دويويرد) طيباً بما فيه الكفاية إلى أن يعرف كيف يطبق تلاميذه النظرية على المنطق البشرى. فما كان من المحتمل أن يصبح تشبيهاً مجازياً مفيداً قاموا بتفسيره بطريقة نجم عنها انقطاع الصلة تماماً بين منطق الله ومنطق الإنسان. ذلك أنه بالنسبة لأتباع (دويويرد) فإن قوانين المنطق، والاستدلال الصحيح لا توجد إلا فى الجانب البشرى من الحدود. وكان من نتيجة ذلك إيجاد ثغرة أو سياج يعتقد أتباع (دويويرد) أنه قائم بين عقل الله وعقل الإنسان. وبحسب قول (ل. كالسبيك L. Kalasbeek): الناس "لا يستطيعون ممارسة التفكير الذى له معنى إلا فيما يقع داخل حدودنا. وبسبب محدودية تفكيرنا البشرى نتيجة خضوعه للقانون (وفى هذه الحالة قانون المنطق)، فليس بوسعنا سوى الانخراط فى تخمين لا معنى له حين نكون بصدد أسئلة وإعلانات تتعلق بما يقع على الجانب الآخر من الحدود".

والمضمون واضح. فالذين يتبنون هذا الرأى يعتقدون أنه يستحيل على أى إنسان أن يفكر تفكيراً له معنى عن الله. فالعقلانية توجد تماماً تحت الحدود. والمنطق ومبادىء الاستدلال الصحيح لا يمكن تطبيقها فيما وراء الحدود، الأمر الذى يعنى أنه لا توجد استمرارية بين الخالق والمخلوق. ويبدو هذا الرأى إنكار واضح لصورة الله فى الإنسان. وإذا نحينا هذه المشكلة جانباً، يظل الوضع أيضاً مناقضاً لنفسه.

وعلى أية حال، فبالنظر إلى أن الفكر البشرى، والمفاهيم البشرية لا يمكن أن تصل إلى الحقيقة بالنسبة لله، فمن أين حصل أتباع (دويويرد) على هذه المعرفة الغزيرة عن الله؟ وكما سبق وعرفنا، يعتقد هؤلاء أن التفكير البشرى لا يمكن أن يكون "صحيحاً" إلا فى الجانب البشرى من الحدود. ومن تفكير بشرى بوسعه أن يوصلنا إلى معرفة ما هو صحيح وراء الحدود. وإذا كان المنطق البشرى صحياً فى هذا الجانب فقط، إذاً فأية استدلالات قد يستخلصها المسيحيون من الكتاب المقدس (مثل الاعتقاد بأن الله يسمو على كل شىء) لابد وأن يكون تطبيقاً غير منطقى للمنطق البشرى. وفيما كتب (ألفن بلانتينجا) الكلمات التالية فى إشارة إلى نمط مختلف من اللا أدرية الدينية، إلا أن تعليقاته تنطبق بنفس القوة على المضامين غير العقلانية والشكوكية لكل من يحاولون التمييز بين منطق الله ومنطق البشر. كتب (بلانتينجا)، أن هذه النوعية من التفكير...

"تبدأ باهتمام تقوى بعظمة الله وسلطانه وجلاله، ولكنها تنتهى باللا أدرية والتشوش. لأنه ليس من مفاهيمنا ما ينطبق على الله (أو ليس من استدلالاتنا ما يمتد إلى الله)، إذاً ليس ثمة ما بمكننا أن نعرفه، أو نؤمن به حقاً عنه، بل وحتى ما أكدته العقائد أو أعلن فى الكتاب المقدس. وإذا لم يكن هناك ما يمكن أن نعرفه أو نؤمن به حقاً عنه، فإنه لن يكون بمقدورنا بالطبع أن نعرف-أو نؤمن بحق-أنه لا يوجد من بين مفاهيمنا ما ينطبق عليه. وهذا الرأى -وهو خطير- حُصر فى حماقة مرجعية الذات.

وحين يدعى اللاعقلانيون المسيحيون أنه ما من فرضية يمكن أن تعنى الشيء نفسه لله وللإنسان، وأن معرفتنا ومعرفة الله لا تتطابقان فى نقطة واحدة، وأن منطق الله ومنطق الإنسان مختلفان تماماً، هنا، يكون قد حان وقت الاعتراض. لاحظ كيف أن كل من هذه الادعاءات تفترض معرفة بالله، معرفة تقول شيئاً عما يقع وراء الحدود. وفيما أن الاعتراضات المتنوعة للمنطق والتى نجدها فى كتابات (توماس تورانس)، وأتباع (هيرمان دويويرد) هى أمور متحيزة فهى مجرد أمور بلا معنى.

نظرة أخرى على قانون عدم التناقض:

سبق أن عرفت قانون عدم التناقض على أنه الافتراض بأن "أ" لا يمكن أن يكون (ب) وليس (ب) فى ذات الوقت. وتوجد طريقة تساعدنا لمعرفة النقطة الأساسية لهذا الافتراض. لنتأمل الصندوق التالى الذى وضعت فيه التعبيرين (ب) و (ليس ب).

ولنفترض أن الصندوق الأكبر يمثل الكون كله بمعنى أنه إذا وُجد أى شيء (لنطلق عليه أ)، فلابد وأن يوجد داخل الصندوق. وهنا من المفيد أن يتجنب القارىء الخلط بين هذا الصندوق، وبين الصندوق المختلف تماماً الذى يشير إلى الطبيعة، والذى ناقشته فى موضع آخر من هذا الكتاب. ذلك أنى أتحدث هنا عن شيء آخر، لذلك عليك أن تنسى ذلك الصندوق الآخر. وصندوقنا الكبير الذى نحن بصدده الآن يحتوى على صندوق أصغر أطلقت عليه الحرف (ب). وهذا الصندوق يمثل طبقة أو جماعة، أو مجموعة من الأشياء يجمع بينها شيء هام مشترك. ومن ثم فإن الحرف (ب) يمكن أن يرمز إلى نوعية من الكلاب، أو إلى جميع النجوم، أو البشر. تذكَّر أن (ب) ليست كل هذه الأشياء مجتمعة. إنما واحدة فقط منها.

ب - ما ليس ب

يشير مصطلح (ليس "ب") إلى ما نسميه الفئة المكملة لـ (ب)، وهذا ببساطة معناه -على سبيل المثال- أنه إذا كان الصندوق الذى رمزنا إليه بالحرف (ب) يمثل نوعية الكلاب كلها، إذاً فإن الرمز (ليست ب) يمثل كل شيء آخر فى الكون لا يكون كلباً. وإذا كان الرمز (ب) يمثل فئة البشر بأكملها، فإن الرمز (ليس "ب") يتضمن كل شيء فى الكون لا يكون إنساناً.

والآن، فكل ما يقوله قانون عدم التنافض هو هذا: إذا كان شيء (نسميه "أ") عضواً فى الفئة التى رمزنا إليها بالحرف "ب"، فإن ما رُمز إليه بالحرف "أ" لا يمكنه فى ظل أية ظروف أيضاً (فى نفس الوقت وبنفس المعنى) أن يكون عضواً فى الطبقة المكملة (ليس "ب").

ولنتأمل مثالاً يوضح معنى كل هذا: يستحيل على سقراط أن يكون إنساناً وغير إنسان فى ذات الوقت. وبالنظر إلى أن فئة غير إنسان هى تكملة فئة الإنسان، فالادعاء بأن سقراط عضو أيضاً فى الفئة (ليس "ب") يماثل القول بأن سقراط هو كل شيء آخر فى الكون ما عدا الإنسان. وهكذا، فإن أى شخص يدعى أن سقراط يمكن أن يكون إنساناً و "غير إنسان" إنما هو يقول فى الحقيقة أن سقراط يمكن أن يكون كلباً، نجماً، شجرة،

أو شئ آخر فى الكون فى ذات الوقت.

ويحدد (جوردن كلارك Gordon H. Clark) مضامين ذلك بقوله: إذا كانت الأقوال المتضاربة صحيحة بالنسبة لنفس الموضوع وفى ذات الوقت، فمن الجلى أن كل الأشياء ستكون نفس الشيء. فلسوف يكون سقراط سفينة، وبيتاً، وكذلك إنساناً. ولكن إذا نُسبت نفس سمات سقراط وبشكل دقيق إلى "كريتو" فمعنى هذا أن سقراط هو "كريتو". وليس ذلك فقط، بل إن السفينة فى الميناء، بالنظر إلى أن لها أيضاً نفس قائمة السمات عينها، فلسوف تُعرف بأنها شخص سقراط-كريتو. هذا والواقع أن كل شيء سيكون كل شيء. ومن ثم فكل شيء سيكون نفس الشيء. وكل الاختلافات بين الأشياء ستختفى ويصير الكل واحداً".

هذا هو الهراء الذى يحدث نتيجة إنكار قانون عدم التناقض.

إثبات قانون عدم التناقض:

إذا تحدثنا بدقة، نقول إن قانون عدم التناقض لا يمكن إثباته. والسبب بسيط. أية حجة تُقدم كدليل لقانون عدم التناقض من الضرورة أن تستند إلى القانون كجزء من البرهان، ومن ثم فإن أى برهان مباشر للقانون سينتهى إلى أن يكون دائرياً.

إلا إنه فى الوقت الذى لا نجد فيه إثباتاً مباشراً لمبدأ عدم التناقض، إلا أنه تُوجد حجة مقنعة غير مباشرة تفترض صيغتين. فى الأولى يقوم الدليل غير المباشر على الادعاء القائل بأن عمل الإنسان المهم، يتطلب منا افتراض قانون عدم التناقض، فلو لم يكن هناك فرق حقيقى بين (ب) ومكملتها (ليس "ب")، لا يكون هناك فرق بين القيادة نحو الشمال فى الطريق الرئيسى بين الولايتين، والقيادة نحو الجنوب. -والأسوأ من هذا- ليس هناك فرق بين القيادة على الجانب الأيمن من الطريق الرئيسى المقسوم، والقيادة على الجانب الأيسر منه. إلا أنه، هناك فرق بالطبع.

سمعت ذات مرة عن خريجى إحدى الكليات، الذى استُدعى إلى مكتبه المحلى الخاص بخدمة تحصيل العائد الداخلى للمراجعة. ومن بين أسباب المتاعب التى واجهها إخفاقه على مدى عدة سنوات فى عمل ملف لمتحصلات الضرائب. وعندما سأله وكيل المكتب لماذا لم يقم بعمل الملف، أجابه الشاب بأنه أثناء دراسته فى الكلية، تعلم أن قانون عدم التناقض مبدأ اختيارى، وغير ضرورى. وبالتالى أنه ليس هناك فرق بين عمل ملف متحصلات الضرائب وبين عدم عمله. قال مندوب مكتب الضرائب: "هذا شئ مثير، ولم يسبق لى أن سمعت مثل هذا من قبل. ومادمت تعتقد بأنه لا يوجد فرق بين "ب" وبين ما هو (ليس ب)، فإنى على ثقة من أنك تعتقد أيضاً بأنه ليس هناك فرق بين كونك فى السجن وبين كونك خارجه".

أوضحت فى فصل سابق أنه يجب رفض أى اقتراح تستتبعه فرضية زائفة، أو منافية للعقل. وبعبارة أخرى، إذا كانت "ب" تشير إلى "ك"، وكانت "ك" زائفة (أو سخيفة) فلابد وأن تكون "ب" زائفة" (أو سخيفة أى منافية للعقل). يشير إنكار قاعدة عدم التناقض بالضرورة إلى كل النتائج المنافية للعقل، ومن بينها استحالة عمل إنسانى جاد. وهذه النتيجة غير المقبولة لها أثر سيء على الفرضية الأساسية التى آلت إليها.

إلا أن هناك نتيجة غير مقبولة تنجم عن أى إنكار لمبدأنا هذا. فبالنسبة لأى شخص أحمق بما فيه الكفاية بحيث يتشكك فى قانون عدم التناقض أو ينكره، فإن الكلام المهم أيضاً يصبح مستحيلاً. وإذا كان منتقد القانون يقول أى شئ ذى بال، عليه إذاً أن ينتفع بنفس القانون الذى يحاول دحضه. وبالطبع إذا لم يقل شيئاً، فعلينا والحال هذه ألا نقلق بخصوص آرائه، ما دام يرفض أن يجعلها معروفة.

وهذه الحجة الثانية تتضمن عنصرين: (١) على مستوى اللغة، إذا كان لأحد أن يتكلم كلاماً مهماً، فإن المعانى المتضاربة لا تُنسب لنفس الكلمة وفى نفس الوقت وبنفس المعنى. (٢) على مستوى الوجود، وبالتناقض مع مستوى اللغة، السمات المتناقضة قد لا تنتمى لنفس الموضوع وفى نفس الوقت وبنفس المعنى.

يتعارض هذا الوضع مع الموقف الذى نجده شائعاً جداً فى كثير من الفلسفة الحديثة، التى تعتبر قانون عدم التناقض كمجرد قانون تقليدى، أو كترتيب اعتباطى ينفع فى عمل نظم رمزية. وقانون عدم التناقض ليس هو قانون فكر لأنه أولاً قانون وجود. والقانون لم يكن يوماً ما شئ يمكن للإنسان أن يقبله أو يرفضه. ولذلك فإن إنكار قانون عدم التناقض يؤدى إلى السخف. وإنه لمن المستحيل أن يوجد أى معنى يبرر إنكار قوانين المنطق. وإذا أُنكر قانون عدم التناقض، فلن يكون لأى شيء معنى. وإذا لم تكن قوانين المنطق لا تعنى فى المقام الأول ما نقوله، فما من شيء آخر يمكن أن يكون له معنى، بما فى ذلك إنكار القوانين.

سخف العقلانية فى معرفة الذات The nation of self referential absurdity

وهناك تطبيق هام لمبدأ عدم التناقض فى اكتشاف مواقف تعانى من مرض (الرجوع إلى الذات). وهذه الحالة توجد حين يتضمن تطبيق نظرية ما على نفسها زيفاً أو منطقاً بلا معنى. وقد تقابلنا مع هذه الفكرة فى فصل سابق حين رأينا كيف اتضح أن الشك ما هو إلا وضع يقهر نفسه بنفسه. وحينما نجد أحداً يقول إنه ما من أحد يعرف أى شيء، فإنه من الطبيعى أن نتساءل فحسب ما إذا كان "المتشكك" يعرف هذا.

وكثيراً ما يندهش الذين يجهلون الفلسفة كيف أنه من الممكن أن نكتشف سخف مرجعية الذات فى تاريخ الفلسفة، ومن أمثلة ذلك النظام، اليقين فى المنطق الذي كان شائعاً للغاية فى أوربا الغربية، وبريطانيا العظمى، والولايات المتحدة خلال الثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن.

ونقطة الارتكاز لفرضية اليقينية المنطقية كان شيئاً يسمى مبدأ التأكد من الصحة. والذين يأخذون بمبدأ اليقينية المنطقية اعتقدوا أنهم اكتشفوا معياراً للمعانى التامة الذى يمكن أن يستبعد كل أنواع الافتراضات التى وجدوها غير كافية، على سبيل المثال أقوال مثل "الله موجود". وهناك نوعيتان فقط من افتراضات هما اللتان من الممكن أن يكون لهما معنى.

بحسب ما يقول أصحاب مبدأ اليقينية: الأقوال الصحيحة بسبب معنى العناصر المكونة لها (وتُسمى عبارات تحليلية)، وتلك التى يمكن إثبات صحتها عن طريق حاسة الاختبار (وتسمى العبارات التركيبية). وقد ابتهج أصحاب مذهب اليقينية إذ بينوا، أو اعتقدوا أنهم بينوا أن الأقوال اللاهوتية والغيبية (الميتافيزيقية)

والأخلاقية فشلت في الصمود أمام معيار المعنى التام. وهكذا فإنه بالنظر إلى أن مثل هذه العبارات لا هى تحليلية (صحيحة أو زائفة بسبب معاني كلماتها) ولا تركيبية (صحيحة أو زائفة لأنه يمكن إثبات صحتها بالتجربة) ومن ثم فقد نُبذت باعتبارها تفتقر إلى المعنى. وهذا يعنى أن عبارات مثل "الله موجود" لم تكن صحيحة أو زائفة، بل كانت خالية من المعنى.

واستخدم اليقينيون مبدأهم الخاص بالتحقق من صحة الأقوال واستعملوه مثل المطرقة، حيث دمروا الكثير جداً من المواقف التقليدية فى الفلسفة بما فيها معتقدات عن الله، والنفس، والأخلاقيات. وقد فعلوا ذلك على الأقل، إلى أن شرع الناس يسألون عن الوضع المعرفى للمبدأ الذى يبجله اليقينيون. ما هى نوعية هذه العبارة؟ وكما تكشف الأمور، فالمعيار الذى وضعه اليقينيون للمعنى أظهر أنه هو نفسه بلا معنى، لأنه يمكن تصنيفه على أنه لا يشكل عبارة تحليلية أو تركيبية. ولقد فشلت الجهود التى بُذلت لإنقاذ مبدأ التحقق من صحة العبارة. ولذلك فمن الصعوبة اليوم أن تجد أى فيلسوف يرغب فى الاعتراف بتمسكه بمذهب اليقينية المنطقية. ولقد ماتت الحركة، وكانت تستحق ذلك بالفعل.

جادل فلاسفة كثيرون بأن (الحتمية)، كعنصر أساسي في وجهة النظر العالمية للمذهب الطبيعى، هى مذهب يدحض نفسه. وطبقاً لما يقوله (ج. لوكاس J. R. Lucas)، إذا كان ما يقوله أصحاب مبدأ الحتمية صحيحاً.

"فهم يقولونها نتيجة لما فى تراثهم وبيئتهم. فهم لا يتمسكون بآرائهم الخاصة بالحتمة لأنها صحيحة، بل لأن عندهم كذا وكذا من المحفزات، أى ليس لأن "بنية" الكون هى كذا وكذا، بل فقط لأن هيئة جزء واحد فقط من الكون، إلى جانب تكوين عقل يتبنى مذهب الحتمية جاء على نحو ينتج تلك النتيجة... ولذلك، فالحتمية لا يمكن أن تكون صحيحة، لأنها لو كانت كذلك، فإنه كان ينبغى علينا ألا نأخذ حجج أصحاب مذهب الحتمية على أنها حجج حقيقية، وأقوالهم لا يجب أن يُنظر إليها على أنها تدعى حقاً أنها صحيحة، بل إنها تسعى لتدفعنا فقط إلى أن نقدم الإجابة بالطريقة المرغوبة لديهم"

ويوافق (هـ.ب. أوين H. P. Owen) على أن:

الحتمية تناقض نفسها. وإذا كانت عملياتى الذهنية تتصف بالحتمية التامة فإننى أكون مصمماً تماماً إما أن أقبل أو أرفض الحتمية.

إلا أنه إذا كان السبب الوحيد لتصديقى أو عدم تصديقى لفرضية ما هو أننى لسبب ما مصمم على التصديق، فإنه لا يكون لدى أساس للقول بأن حكمى صحيح أو زائف". الفيلسوف (ج.ب. مورلاند J. P. Moreland) واحد من كثيرين ممن ينادون بأن المادية، وهى اتجاه آخر للمذهب الطبيعى، هى أيضاً تدحض نفسها فطبقاً للمذهب الطبيعى فإن الطبيعية هى الوضع الذي يكون فيه "الشيء الوحيد الذى يبقى هو المادة (حيث حُددت المادة بشكل نموذجى وكامل). وطبقاً لوجهة نظر أحد أنصار جماعة "الطبيعيين" عن الإنسان، يقول (مورلاند): "الإنسان هو مجرد نظام طبيعى. حيث ليس هناك عقل أو روح، بل مجرد مخ ونظام عصبى

مركزى". ويواصل (مورلاند) كلامه قائلاً: "إذا ادعى أحد أنه يعرف أن مذهب الطبيعة صحيح، أو اعتنقه لأسباب وجيهة، وإذا ادعى أحد أن (المذهب الطبيعى) يشكل موقفاً عقلانياً، يجب أن يقدم الدليل على اختياره، لأن هذا الادعاء "يدحض نفسه". والسبب الذى حمل (مورلاند) على اتخاذ موقفه هذا، هو أن المذهب الطبيعى يشير إلى أن العقلانية أمر مستحيل. وتلخيص (مورلاند) لحجته جاء مؤثراً من ناحية إيجازه وقوته:

"وخلاصة القول، أنه أمر يهدم نفسه، أن تجادل بالقول بأن الإنسان ينبغى أن يختار المذهب الطبيعى لأنه يتعين عليه أن يتأكد من أن الدليل يؤيد هذا المذهب بقوة. فلا يمكن تقديم المذهب الطبيعى كنظرية عقلانية لأن هذا المذهب تخلى عن الشروط المسبقة الضرورية لوجود شىء مثل العقلانية. فأنصار المذهب الطبيعى ينكرون فكرة القصد (القدرة لأن يكون لك أفكارك بالنسبة للأشياء) بأن يحولها إلى علاقة مادية مدخلات/ مخرجات، وبهذا ينكر أن العقل قادر حقاً بأن تكون له أفكاره عن العالم. والمذهب الطبيعى ينكر وجود الافتراضات وقوانين المنطق والأدلة غير المادية والتى يمكن أن تكون فى العقول وتؤثر فى التفكير. و "الطبيعية" تنكر وجود ملكة قادرة على التبصر العقلانى فى هذه القوانين أو فى الافتراضات غير المادية، وتنكر وجود الذات التى تتحمل المعاناة والتى تكون موجودة من خلال عملية التفكير. وأخيراً، فإنها تنكر وجود عامل حقيقى يفكر ويختار المواقف لأنها عقلية، وهذا عمل لا يكون ممكناً إلا إذا كانت العوامل الطبيعية غير كافية لتحديد السلوك المستقبلى".

وكما سبق القول، تبدو بعض المواقف أو النظم الفلسفية أنها تدمر ذاتها، بمعنى أنها مهزومة داخلياً. وقد وجه اتهام على الأقل ضد عقيدتين كبيرتين لوجهة النظر العالمية للطبيعيين، وهما: الحتمية، والطبيعة. ومن الجلى أن تهمة عدم الترابط المنطقى يجب أن تُؤخذ بجدية، والواقع أنه يجب أن تؤخذ بجدية بالغة، حتى أننى فى الفصل التالى سأفحص تناقضين مزعومين فى مذهب التوحيد المسيحى. ومع ذلك، وقبل تناول هذه المشاكل، أود أن ألقى نظرة على نظرية فلسفية أخرى تعانى من مشكلة السخف المرجعى للذات.

عملية البرهنة أو تقديم البرهان

كثيرون من الذين يرفضون المسيحية، لأنهم يعتقدون أنها تفشل فى تقديم دليلٍ كافٍ يجعلها بديلاً معقولاً فى مجال الأفكار. حين سُئل برتراند راسل -الملحد البريطانى المعروف- بما سيجيب حينما يسأله الله لماذا لم يؤمن (مع الافتراض بالطبع أنه سيقف يوماً ما أمام الله)، أجاب راسل بأنه سيقول له: "لم يكن يُوجد دليل كافٍ يا الله. الدليل لم يكن كافياً".

والوضع الذى سنتفحصه فى هذا الجزء يقع فى عمق إجابة راسل. والواقع أن يُستخدم كفرضية فى تفكير معظم غير المؤمنين. واسم هذه النظرية هو "البرهنة".

لخص مفكر ينتمى إلى القرن التاسع عشر يدعى (و.ك. كليفورد W. K. Clifford) جوهر البرهنة فى عبارة واحدة: إنه لمن الخطأ دائماً، وفى أى مكان، وبالنسبة لأى شخص أن يؤمن بشىء على أساس دليل غير

كاف وبحسب ما يقول (كليفورد) : على الناس واجبات ومسئوليات بشأن أعمالهم المتعلقة بالإيمان. وبحسب ما يراه (كليفورد) فإن هذا ينطبق بصفة خاصة على المعتقدات الدينية. وبحسب ما يقوله إنه لا يوجد إطلاقاً دليل كاف، أو برهان يدعم المعتقد الدينى. وعلى ذلك، فإن أى شخص يتقبل معتقداً دينياً (مثل الاعتقاد بأن الله موجود) يكون متهماً بالتصرف بدون أخلاقيات، أو مسئولية أو عقلانية.

وحجة البرهان النمطى الذى هو ضد التوحيد تبدو مماثلة للآتى:

١- إنه أمر لا عقلانى أن تقبل عقيدة التوحيد مع عدم وجود دليل كاف.

٢- لا يوجد دليل كاف يدعم الإيمان بالله.

٣- وعلى هذا، فالإيمان بالله أمر لا عقلانى.

وكثيراً ما تبدو "البرهنة" أنها تفترض بأن كل المعتقدات مذنبة إلى أن تثبت براءتها. ومن ناحية الممارسة العملية، ولاسيما فى أعمال (كليفورد)، وفى أعمال الكثيرين من الملحدين الذين يسيرون على نهجه، فإن الإدعاء يتخذ دائماً صيغة أن كل المعتقدات الدينية مذنبة حتى تثبت براءتها. وفى حين أن غير المؤمنين لم يُلزموا إطلاقاً فى أن يبدأوا بإثبات أن الله غير موجود، نجد أن المؤمنين من المفروض فيهم أن يثبتوا أن الله موجود. وهذا مثال هام للاستبداد الأكاديمى.

رفض نظرية تقديم البرهان

وكما سبق وعرفنا، يعتقد كثير ممن يناهضون مبدأ التوحيد من شيعة المنادين بمذهب البرهنة المعاصرين أن عبء البرهان يقع دائماً على عاتق من يؤمنون بعقيدة التوحيد، وأن المعتقدات الدينية مذنبة حتى يتبين العكس فإنه من مسئولية المؤمن دائماً أن يقدم الأسباب أو البرهان الذى يدعم معتقده، وإذا أخفق، فإن النتيجة الصحيحة هى أن هذا المعتقد غير عقلانى. وبدون دليل قاطع، يُعد إصرار المؤمن على إيمانه عملاً غير منطقى ومعيب من الناحية الأخلاقية.

فى الثمانينيات، تحدى فيلسوف نوتردام "ألفن بلانتينجا" نظرية البرهانيين والرفض المتواصل للإيمان المسيحى والذى دائماً ما يصاحب تلك النظرية. وتساءل بلانتينجا: "لماذا نظن أن من يؤمن بعقيدة التوحيد لابد وأن يكون لديه برهان، أو سبب للاعتقاد بأن هناك دليل، وحتى إن لم يكن منطقياً؟ لماذا لا نفترض بدلاً من ذلك أنه له الحق المطلق فى الإيمان بوجود الله، حتى ولو لم يكن لديه حجة أو دليل على الإطلاق". ويجب أن نذكر أن (بلانتينجا) يعتقد بأنه قد توجد بالفعل أسباب تدعم الإيمان بالله. إلا أنه على الرغم من أن هذه الأسباب قد تكون موجودة، فإن هذه الأسباب (أو ذلك الدليل) ليست ضرورية لجعل هذا الإيمان معقولاً. وبعبارة أخرى، يتحدى (بلانتينجا) الفرضية الأولى لحجة البرهانيين السابق ذكرها. فعقلانية المعتقد الدينى لا تعتمد على اكتشاف حجج أو براهين دامغة.

وقدم (بلانتينجا) حجتين ضد نظرية (كليفورد) المضللة التى تقول: "إنه لمن الخطأ دائماً، وفى كل

مكان، وبالنسبة لأي شخص، أن يؤمن بشيء على أساس برهان غير كاف. (وكلمة برهان هنا تعني حجة أو دليل).

أولاً، وجهة نظر (كليفورد)، إذا ما قُبلت، تعوق كل نشاط معرفي. فنحن نؤمن بأشياء لا حصر لها (ونؤمن على وجه سليم وبعقلانية) دون برهان أو دليل. نحن نؤمن بوجود عقول أخرى، ونؤمن أن العالم يستمر في وجوده حتى حين لا ندركه. وهناك أمور لا حصر لها لا نؤمن بها فحسب، بل ولنا الحق في الإيمان بها بالرغم من أنه لا يتوفر لدينا برهان أو دليل. وإذا اتبعنا نهج كليفورد، واستأصلنا كل المعتقدات التي لا يتوافر لها دليل أو برهان، نفقد حقنا لتأكيد عدد كبير من الإدعاءات الهامة والتي لن يتشكك فيها إلا الأحمق. وهكذا، فمن الجلي أنه لنا الحق في الإيمان ببعض الأمور دونما دليل أو برهان. بالنظر إلى أن الإيمان بالله ينتمي إلى نفس المجموعة من المعتقدات، مثل إيماننا بآراء أخرى، أو إيماننا باستمرارية وجود العالم غير المرئي، كما أن لنا الحق أيضاً في الإيمان بالله دون حاجة إلى دعم بواسطة برهان أو أسانيد.

ثانياً: تهزم نظرية (كليفورد) نفسها بنفسها. فهو يرى أنه أمر لا أخلاقي أن نؤمن بأي شيء بدون برهان. ولكن، أين دليل نظريته "البرهانية"؟ فأي دليل يقدمه على إيمانه بأنه عمل لا أخلاقي أن تؤمن بأي شيء دون توافر دليل؟ والواقع أنه لا يقدم أي دليل، بل وليس في وسعه ذلك.

لقد بدأ (كليفورد) بتحذير قراءه من التصرف بطريقة لا أخلاقية فيما يتعلق بأنشطته المعرفية، ثم تصرف هو بطريقة "لا أخلاقية" وذلك بتقديمه نظرية لم يقدم لها أي برهان أو دليل. إنه يواجه ورطة أوقع نفسه فيها. فإما أن "البرهنة" زائفة، وإما أنها أخفقت في اجتياز اختبار العقلانية الذي وضعه أصحاب هذه النظرية. وإذا كانت زائفة، فإن الإيمان بها والحال هذه يعد عملاً لا أخلاقياً ولا عقلانياً. فإذا كانت قد أخفقت في الاختبار الذي وضعه "البرهانيون"، فالإيمان بها (على أساس نظريته) يعد عملاً لا عقلانياً ولا أخلاقياً. وفي كلتا الحالتين يكون تقديم البراهين ذاته مشكلة عويصة.

ولذلك، فالمسيحيون العقلاء لن يشعروا بأي تهديد بأن يقدموا براهينهم أو يصمتوا. فهم سيواجهون هذا التحدي بأن يقولوا للبرهانيين: هاتوا براهينكم أو اصمتوا. وعلى أية حال فإنه أمر يخص البرهانيين الذين يعتمدون على البراهين والذين يصرون على أنه أمر لا عقلاني ولا أخلاقي أن تؤمن بشيء دونما دليل. ولا مجال للحديث عن دليل المسيحية إلى أن يقدم هؤلاء دليلهم على نظريتهم التي بنى على أساسها تحديهم للمسيحية.

والمسيحي الحكيم يرفض أن يسمح لنفسه بأن يقع في مصيدة أصحاب مبدأ البرهنة. ولن يفترض أن معتقداته دون المستوى من ناحية ما إذا لم يستطع أن يقدم أي دليل. فالمسيحي الذي من هذه النوعية يلحق الضرر بنفسه وإيمانه. فقد يكون الشخص عقلانياً في تبنيه معتقدات معينة، حتى لو لم يكن بوسعه تقديم الأدلة التي تقنع الآخرين. فالشخص لا يخرج عن إطار امكاناته المعرفية في إيمانه أن الله موجود، حتى مع عدم توافر الأدلة والحجج.

ومن الطبيعي، أنه ليس هناك شئ من هذا يشير إلى أن المسيحي الذي يرفض مبدأ البرهنة يعتقد أن

العقل والدليل والحجج وهم يؤمنون أشياء لا لزوم لها، أو أنها غير مهمة، أو حتى ليست متاحة. فالمسيحيون الذين يرفضون البرهنة قد يفعلون هذا دون أن يفكروا أن مذهب التوحيد يفتقر إلى أسباب تدعمه. وهم يؤمنون أيضاً أن كثيراً من الحجج تدعم معتقداتهم. والموضوع ببساطة إنهم لا يقبلون تقديم الحجج كشرط ضرورى لأن يعتبروا هذه المعتقدات عقلانية.

خاتمة:

إن فحصنا المفصل لاختبار العقل جعلنا أمام موضوعات معقدة ولو أنها مهمة ومفيدة. على المسيحى الحكيم أن ينظر إلى العقل، وقوانين المنطق باعتبارها متمشية مع وجهة نظره العالمية. وكما سبق لنا الإشارة فى هذا الفصل، فإن اختبار العقل يولد مشاكل محرجة لعدد من معتقدات وجهات النظر العالمية التى يعتنقها أعداء من يؤمنون بوحدانية الله. غير أنه من الممكن أن يكون اختبار العقل سلاحاً ذى حدين. فما الذى يمكن أن يقوله المسيحى عن شىء يخص معتقداته يبدو للوهلة الأولى فقط أنه فشل فى اختبار العقل؟ الإجابة على هذا السؤال ستكون موضوع بحثنا فى الفصل التالى.

الفصل الخامس

المسيحية واختبار العقل

كان الأمر سيدعو إلى الدهشة لو أن خصوم الإيمان المسيحى لم يحاولوا أن يثبتوا أن المسيحية تعانى من تنافر داخلي. ولكن هذا هو بالضبط ما حاول كثيرون أن يفعلوه. وقد اتخذت هذه المحاولات صوراً عدة. ولسوف أحاول فى هذا الفصل، أن أتناول صورتين تعتبران من أكبر التحديات التى تواجه الإيمان المسيحى شيوعاً وأهمية فى هذه الناحية. تتعلق الصورة الأولى بالتنافر المزعوم بين ما يؤمن به المسيحيون عن الله وبين الوجود المزعج لأشكال الشر المختلفة في الخليقة التى خلقها الله. ويقول الاتهام إن كل من يؤمن أن الله كلى القوة، وكلى المعرفة، وكلى المحبة، قد خلق عالماً انتشر فيه الشر على هذا النحو يعد مداناً بسبب الإيمان بالمتناقضات، أما الصورة الثانية فإن التحدى يوجه اتهامه إلى الإيمان المسيحى بعقيدة التجسد أى الإيمان بأن يسوع المسيح إله كامل وإنسان كامل.

المشكلة الناجمة عن وجود الشر:

كانت المشكلة الاستنتاجية للشر تشكل تحدياً اعتاده قراء الكتابات الفلسفية كثيراً جداً، وبأكثر مما هو حاصل الآن، وسبب اختفاء هذه المشكلة-إلى حد كبير-من الكتابات الأدبية هو أن مجموعة من الفلاسفة المسيحيين، ومن أبرزهم "ألفن بلانتينجا" قد خففوا من وطأة الموضوع.

وتقوم مشكلة الشر على حقيقة يسهل فهمها، وهى أن العديد من المعتقدات المسيحية الضرورية عن الله والمتصلة بالموضوع تبدو متنافرة مع حقيقة الشر، ويعتقد المسيحيون أن الله كلى الصلاح، وكلى المعرفة، وكلى القوة، كما نؤمن أيضاً أن الله خلق العالم. والصعوبات التى تولدت عن هذه المعتقدات بالنسبة للشر واضحة.

١- إذا كان الله صالحاً، ويحب البشر جميعاً، فإنه أمر منطقى أن نصدق، بأنه يريد أن يخلّص المخلوقات التى أحبها من الشر والألم.

٢- إذا كان الله كلى المعرفة، فإنه أمر منطقى أن نصدق، أنه يعرف كيف يخلّص خليقته من الشر والمعاناة.

٣- إذا كان الله كلى القوة، فمن المعقول أن نصدق أنه قادر على أن يخلّص مخلوقاته من الشر والمعاناة.

وإذا أخذنا فى الاعتبار ما يؤمن به المسيحيون عن الله، فيبدو أن هذا معناه أن الله يريد إزالة الشر، وأنه يعرف كيف يستأصل الشر، وأن الله لديه القوة على استئصاله.

لكن الشر موجود. والحقيقة أنه يوجد قدر كبير من الشرور. والواقع أنه توجد كمية كبيرة من الشرور التى يبدو أنه لا معنى ولا هدف لها. كما يبدو من المعقول أن نصدق والحال هذه- أنه إما أن الله لا يريد استئصال الشر (وبذا نشكك فى صلاحه) وإما أنه لا يعرف كيف يستأصل الشر (وبذا نثير أسئلة حول معرفته) وإما أنه يفتقر إلى القوة (وهذا ما يشكك فى قدرته).

وتحت تأثير الانزعاج من هذه الصعوبات وجد الكثيرون أنه من الأسهل عليهم أن يأخذوا خطوة أخرى

وينتهوا إلى أن وجود الشر فى العالم يجعل من المحتمل أنه لا وجود لله.

أما المفكرون المسيحيون فقد وجدوا أنفسهم بين شقى رحى فهم لا يستطيعون إنكار وجود الشر، وأن كثيراً من الشرور ليس لها معنى ولا مبرر. ولكن المسيحيين أصحاب مذهب التوحيد عليهم أن يؤكدوا إيمانهم بأن هذا العالم على الرغم من كل شروره، قد خُلق بواسطة إله صالح، محب، كلى القدرة، وكلى العلم. والتحدى بالنسبة لأصحاب مذهب التوحيد هو أن يبينوا أن وجود الشرور فى هذا العالم يتناغم مع وجهة النظر المسيحية عن الله وعن العالم. وبعبارة أخرى، ما هو التفسير الذى بمقدورنا أن نقدمه من ناحية كيف أن الخطة المفاهيمية التى هى وجهة النظر المسيحية العالمية تتناغم مع كمية ونوعيات الشر الموجود فى الخليقة؟

وما نطلق عليه الجانب الاستدلالى من مشكلة الشر يحاول أن يوضح أن وجود الشر يتنافر مع الناحية المنطقية مع معتقد أو أكثر من معتقدات الإيمان المسيحى. يدعى مناصرو الجانب الاستدلالى أن هناك تناقضاً منطقياً يوجد فى جوهر مذهب التوحيد المسيحى. أما الفيلسوف البريطانى (ج.ل. ماكاى J. L. Mackie)، وهو من مناصرى المذهب الاستدلالى، فقد كتب مقالة سنة ١٩٥٥ جاء بها:

يمكن بيان، ليس فقط أن المعتقدات الدينية تفتقر إلى المساندة العقلانية فحسب، بل إنها لا عقلانية من الناحية الموضوعية، وأن الأجزاء المختلفة من التعليم اللاهوتى الضرورى تتنافر بعضها مع بعض. وبالنظر إلى أن مجموعة متنافرة مع المعتقدات هى بالضرورة زائفة، فإن الجانب الاستدلالى من مشكلة الشر -إذا كان سليماً- سوف يشكل أعظم تهديد لمذهب التوحيد المسيحى. ولن يعنى هذا أن المسيحية من المحتمل أن تكون زائفة، بل هى بالضرورة كذلك. ولقد برزت المشكلة بسبب تناقض أدعى أنه موجود فى الفرضيات الست الموضحة فيما يلى:

١- الله موجود.

٢- الله كلى القوة.

٣- الله كلى المعرفة.

٤- الله كلى الرحمة.

٥- الله خلق العالم.

٦- يحتوى العالم على الشر.

ومن الواضح أن هذه القائمة لا تتضمن فرضيتين، كل منهما تناقض الأخرى. "العالم يحتوى على الشر" و "العالم لا يحتوى على الشر". وبالنظر إلى أن القائمة لم تتضمن هاتين الفرضيتين، فأين هذا التناقض المزعوم؟ ويعترف نقاد الإيمان المسيحى بأنه ما من شىء فى هذه القائمة يناقض بوضوح فرضية أخرى. ومع ذلك، يجادلون بأن الفرضيات من ١-٥ تشير من ناحية ما إلى فرضية سابقة هى:

٧- العالم لا يتضمن الشر.

وإذا ثبت أن هذا صحيح، فإن قائمتنا الخاصة بالمعتقدات المسيحية (من ١-٧) ستثير فعلاً مشكلة، فالقائمة ستصبح متناقضة من الناحية المنطقية.

ومع ذلك، ولكى يدعموا قضيتهم، فإنه يتعين على النقاد أن يجدوا فرضية أخرى، والتى بالارتباط مع الأقوال من ١-٥ ستلمح إلى الفرضية رقم ٧، الخاصة بالإدعاء أن العالم لا يتضمن الشر. وبتقديم هذه الفرضية الناقصة فقط، يمكن أن يثبت التناقض المزعوم. وفى حين أن مناصرى المشكلة الاستدلالية للشر، لم يتركوا أية محاولة إلا وطرقوها، إلا أنه لم ينجح منها شىء. والافتراضات الجديدة التى قدموها فشلت أيضاً لاستنتاج التناقض الذى يسعون إلى إثباته، إما لأنها لم تكن صادقة، وإما لأنها لم تكن من الإدعاءات التى يعتنقها المسيحيون. وعلى سبيل المثال، فإن بعض مقاومى مذهب التوحيد قدموا -على اعتبار أنه الفرضية الناقصة- الادعاء بأن الكائن كلى القدرة يمكنه أن يعمل كل شىء، معتقدين أنه، حين تُضاف هذه الفرضية لقائمتنا الأساسية، فإن الأمر سيتطلب الفرضية رقم ٧، وهى الادعاء بأن العالم لا يتضمن الشر. وهم بهذه الطريقة سعوا إلى خلق التناقض، الذى من المفترض أن يبين أن مذهب التوحيد المسيحى يتضمن فى أساسه بالفعل، تناقضاً منطقياً.

غير أن هذه المحاولة واجهتها صعوبة كبرى. فالفرضية ليست صادقة والمسيحيون يعرفون أن الكائن كلى القدرة لا يستطيع القيام بأشياء كثيرة. على سبيل المثال، يعلن الكتاب المقدس أن الله لا يستطيع أن يكذب، أو يحلف بكائن أعظم منه. والنتيجة النهائية لكل هذه الجلبة حول التناقض الذى زُعم أنه موجود فى قلب الإيمان المسيحى جاءت على النحو التالى: لم ينجح إطلاقاً أى واحد من أنصار المشكلة الاستدلالية للشر فى تقديم الفرضية الناقصة كى يكشف عن التناقض المزعوم.

وأخيراً، يقترح (بلانتينجا) إجراءً يمكن بواسطته أن يبين المسيحيون التناغم المنطقى لمجموعة معتقداتهم. وإذا ما تم ذلك، فإن هذا معناه أن المسيحيين لم يعودوا بعد فى حاجة للخوف من أن يقوم ناقد نابغ بتقديم الفرضية التى يخشون منها، والتى ستدحض إيمانه وذلك فى الأسبوع القادم، أو السنة المقبلة. وفى المنطق التقليدى، ما أن يُبين التناغم المنطقى لمجموعة من الفرضيات، إلا ويصبح من المستحيل الكشف عن تنافر فى هذه المجموعة.

وكل ما يتطلبه الأمر لإثبات أن قائمة فرضياتنا متناغمة منطقياً (وبهذا تصبح حصينة إلى الأبد من محاولة إظهار أى تناقض فيها) هو أن نضيف فرضية جديدة، ممكنة من الناحية المنطقية، وتعنى ببساطة أنها لا تصف حالة متناقضة من الأمور. والفرضية الجديدة يجب أن تكون متناغمة مع الفرضيات الأخرى المذكورة فى القائمة، وبالاشتراك مع الفرضيات الأخرى، فإن هذا لابد وأن يستتبعه أن الشر موجود فى العالم. والفرضية التى اقترحها (بلانتينجا) هى القول بأن الله خلق عالماً يتضمن الآن الشر وكان له مبرر قوى لعمل ذلك.

ولكى نوجز القائمة السابقة فى مساحة صغيرة فإن قائمتنا الجديدة الخاصة بالمعتقدات المسيحية ستكون على النحو التالى:

١- الله موجود ، وهو كلى القدرة، وكلى الرحمة، وهو خلق العالم.

٢- الله خلق العالم الذى يحتوى الآن على الشر، وكان لديه مبرر قوى لعمل ذلك.

٣- وعلى هذا ، يحتوى العالم على الشر.

وإذا أخذنا الفرضيتين ١ ، ٢ فإنهما بالطبع تؤديان إلى الفرضية رقم ٣. وعلى هذا ، فالفرضيات المأخوذة من قائمة معتقداتنا المسيحية الأصلية، والتى تظهر الآن فى رقم ١ ، تتناغم منطقياً مع وجود الشر. والسؤال الوحيد الذى يمكن طرحه بالنسبة للفرضية ٢ ، هو ما إذا كان من الممكن أن تكون حقيقية. ومن الجلى أنها كذلك، لأنها ليست زائفة من الناحية المنطقية (فهى ليست تناقضاً). ومن ثم، فإن قائمة معتقداتنا المسيحية الأساسية أظهرت على أنها متناغمة منطقياً، الأمر الذى يعنى أن المشكلة الاستدلالية الخاصة بالشر فد تم الرد عليها. إن وجود الشر في العالم لا يمكن استخدامه لبيان وجود تنافر منطقى فى جوهر العقيدة المسيحية.

قد تخطت المناقشة السابقة عدداً من التفاصيل بحكم الضرورة، والكثير منها تقنية فى طبيعتها. ويُنصح القارىء المهتم بأن يفحص هذا بالتفصيل فى كتب أخرى، وهذه يمكن الحصول عليها بسهولة. غير أن المسألة واضحة. فوجود الشر فى العالم لا يخلق مشكلة منطق بالنسبة للمسيحى. ومع ذلك قد يخلق هذا نوعيات أخرى من المشاكل، سوف نعرض لها فى فصل لاحق. ومن المهم أن نلاحظ أنه حتى (ج.ل. ماكاى) ، وهو من آباء مشكلة الشر الاستدلالية، والذى سبق أن أشرت إليه آنفاً، سلّم بأن خطته، لم تبين على أية حال أن المعتقدات الأساسية لمذهب التوحيد تتنافر منطقياً بعضها مع بعض. وهناك فيلسوف آخر، وهو كثير الانتقاد لمذهب التوحيد المسيحى، واسمه (وليم روى William Rowe) ، يعترف بأن "بعض الفلاسفة نادوا بأن وجود الشر يتنافر منطقياً مع وجود إله التوحيد. وفى اعتقادى، إنه لم ينجح أحد فى إثبات مثل هذا الإدعاء المبالغ فيه. والواقع (إذا سلمنا بالاعتقاد أن البشر لديهم القوة لعمل خيارات غير حتمية) أن هناك حجة مفحمة تماماً للرأى القائل بأن وجود الشر فى العالم يتناغم منطقياً مع عقيدة التوحيد.

وربما نسأل: "ولكن، لماذا سمح الله بالشر"؟، ومع ذلك فالنقطة التى نحن بصددها هنا هى أنه ليس هناك حاجة لمعرفة هذا السبب ولا هناك حاجة لتقديمه كحجة لكى ندعم هذا البحث. فقواعد المنطق الحديث تجعل استراتيجية هذه الحجة ناجحة، سواء استطعنا التعرف على السبب الذى استند إليه الله أو لم نستطع. وحاجتنا الوحيدة الآن هى القول بأنه كان لدى الله سبب لخلق عالم يتضمن الشر، هو ممكن من الناحية المنطقية. ولهذا ، فإن الحجة قد نجحت، والمحاولات التى ترمى إلى إيجاد تناقض فى قلب مذهب التوحيد المسيحى كان مآلها الفشل.

وكملاحظة أخيرة، علينا أن نعرف أن حقيقة أن اعتراف المسيحيين بأنهم لا يعرفون السبب الذى حمل الله على أن يسمح بالشر لا يؤدى إلى شئ يستحق الوقوف عنده. فبعض خصوم المسيحية يرون أن هذا الاعتراف

يُستشف منه أنه لا يوجد سبب فعلاً. ولكن هذا استنتاج خاطىء. فالواقع أن كل ما نستطيع الاستدلال عليه من الاعتراف وبشكل مقبول هو أن الإنسان هنا لا يعرف كل شيء. ولكننا بقولنا هذا لم نأت بجديد.

التجسد

يستخدم المسيحيون كلمة "التجسد" للتعبير بها عن اعتقادهم بأن ميلاد يسوع المسيح، يمثل دخول ابن الله الأبدى القدوس إلى الجنس البشري. والتجسد عقيدة مسيحية أساسية. وإذا كانت هذه العقيدة زائفة، يكون الإيمان المسيحى باطلاً. إن التفكير الصحيح عن يسوع المسيح لا يقلل من بشريته الكاملة التامة، ولا من ألوهيته الكاملة. فيسوع المسيح هو الله، ولا يجب أن نتشكك فى هذا. إلا أنه إنسان أيضاً وأى تردد من جهة هاتين الناحيتين سينجم عنه تعليماً ناقصاً عن شخص المسيح، وأيضاً إيماناً هرطوقياً.

ولذلك، لاتأخذنا الدهشة، عندما يهاجم خصوم الإيمان المسيحى التاريخى هذه العقيدة الأساسية. والتجسد هدف مغر، ليس لأنه يشكل عقيدة رئيسية، بل لأنه أيضاً سبب لاتهام المسيحيين بأنهم يؤمنون بشئ متناقض منطقياً.

تُقدم الحجة على النحو التالى: إله المسيحيين له سمات مثل: كلى القدرة، وكلى العلم، وأنه روح لا مادة، وأنه بلا خطية. والله موجود بالضرورة أيضاً، الأمر الذى يعنى-ضمن أمور أخرى-بأنه لا يمكن أن تكون هناك بداية أو نهاية لوجوده. وفضلاً عن ذلك فإن هذه الخصائص إنما هى لله بالضرورة وبشكل أساسى، وهذا معناه القول بأنه إذا فقد الله أياً من خصائصه الضرورية فلن يكون الله ببساطة، ولا يمكن أن يكون الله إذا افتقر إلى كمال القدرة والمعرفة وما إلى ذلك.

إلا أننا حين نتأمل طبيعة البشرية، يبدو أننا نقابل مخلوقاً له السمات العكسية تماماً. فالبشر -كما نعرف- ليسوا كليى القدرة وليسوا كليى العلم، وهم ليسوا روحيين، أى بدون خطية. بل ونحن لا نُوجد بالضرورة. فوجودنا اتكالى، بمعنى أنه يعتمد على أشياء كثيرة غير أنفسنا. وإذا أخذنا فى الاعتبار هذه التنافرات التى تبدو واضحة، بين الله والإنسان، فكيف يمكن لأى كائن أن يكون الله وإنسان؟ فى مقالة ظهرت سنة ١٩٨٨ فى صحيفة "الفكر اللاهوتى لأسبرى" لخص (توماس موريس)- وهو أستاذ الفلسفة بجامعة نوتردام- المشكلة بقوله:

"قيل عن يسوع فى عقيدة التجسد أنه كان إنساناً كاملاً وإلهاً كاملاً. غير أنه من المستحيل منطقياً لأى كائن، أن يمثل فى ذات الوقت السمة، وتكملتها المنطقية. وهكذا خلص النقاد منذ عهد قريب، إلى أنه يستحيل منطقياً لأى شخص واحد أن يكون إنساناً وإلهاً، وأن تكون له كل سمات، وكل مقومات الطبيعة البشرية أيضاً. وتعليم التجسد على هذا الأساس، يكون تطوراً لاهوتياً متنافراً مستمداً من الكنيسة الأولى، الأمر الذى ينبغى علينا أن ننبذه لصالح وسيلة أخرى لترسيخ أهمية مفهوم يسوع للإيمان المسيحى. فلم يكن بمقدوره أن يكون الله المتجسد، شخص إلهى بكل ما يحمله هذا التعبير من معنى، وفى نفس الوقت له طبيعة بشرية".

وهذه صعوبة خطيرة. وكما سنرى، فإن إيجاد رد مناسب على هذا التحدى سيتطلب تفكيراً مجهدا فى موضوعات معقدة. غير أنه بالنظر إلى أن التحدى من الخطورة بحيث لا يمكن تجاهله، فلابد أن نقوم بالرد عليه.

قدم (موريس) فى كتابه المطول والمفصل والغنى "منطق الله المتجسد" أفضل منهج لتناول هذه المشكلة. ومن حسن الطالع، أنه قدم أيضاً حجته فى صيغة تتسم بمزيد من الشعبية فى مقالة "المجلة اللاهوتية لأسبرى"، والتى سبق الإشارة إليها. ومعالجتى لهذا الموضوع ستسير مع النهج الذى اتبعه (موريس). وآمل أن يقوم كثيرون من القراء بالرجوع إلى العرض الأكثر تفصيلاً والذى تضمنه كتاب موريس.

وطبقاً لما يقوله (موريس)، بوسعنا أن نتغلب على هذه الصعوبة، إذا فهمنا أولاً، ثم طبقنا بعد ذلك وعلى نحو صحيح، ثلاثة أبعاد رئيسية هى:

١- الفرق بين السمات الأساسية وغير الأساسية.

٢- الفرق بين السمات الأساسية والسمات العامة.

٣- الفرق بين الإنسان الكامل، ومجرد إنسان.

وفيما تبدو مفردات اللغة مخيفة، إلا أن النقاط الرئيسية ليس من الصعب استيعابها.

الخصائص الأساسية وغير الأساسية:

كلمة "خاصية" تشير إلى ملمح أو سمة لشىء ما. وفى الفرضية التى على صيغة (س) هى (ب)، فما تنبىء به هذه الفرضية هو سبيل لفصل خصائص الأشياء. لنتأمل الخصائص التى بوسعنا أن ننسبها لسقراط، وذلك بأن نملأ المكان الخالى فى عبارة: "سقراط...". وكل التعبيرات التالية تشير إلى خصائص أو لمسات أو صفات مميزة لسقراط: "أصلع"، "مواطن من أثينا"، "محترم"، "قصير القامة"، "زوج زانيثب".. إلخ. وكل شىء له خصائصه، ومن بين الطرق التى نشير بها إلى هذه الخصائص هو باستعمالها معطيات نطبقها على موضوع معين.

وإذا استبعدنا هذا، فإن الخطوة التالية هى أن ندرك أن الخصائص هى من نوعين مختلفين: أساسية، وغير أساسية. ولنأخذ عبارة كرة حمراء كمثال. إن لون الشىء هنا أمر غير أساسى، بمعنى أننا إذا غيَّرنا اللون الأحمر، إلى اللون الأصفر أو الأخضر، فإنها تظل كرة. إلا أنه حينما نتناول كلمة كرة، فإن خاصية الاستدارة تشكل ملمحاً أساسياً. فلا توجد كرة ليست مستديرة. وإذا غيرنا هذا الملمح عنها، فلن تصبح كرة بعد.

وبتعبير بسيط للغاية لا يمكن تغيير السمة الضرورية أو فقدانها، دون أن يفقد الشىء نفسه النوعية التى ينتمى إليها. فالأشياء تنتمى إلى نوعيات ومجموعات. ولكى تكون عضوة فى النوعية الخاصة بجميع الكرات، فكل شئ فى هذه المجموعة، يجب أن تتوافر فيه صفة الاستدارة، وإذا فقدتها تفقد عضويتها للمجموعة أيضاً.

وهناك عدة خصائص لابد من توافرها فى الله. وهى تتضمن على الأقل الآتى: أن يكون كلى القدرة، وكلى العلم، وبلا خطية، وما إلى ذلك. وإذا افتقر أى كائن لهذه وغيرها من الخصائص الأساسية للألوهية، لا يمكن أن يكون هو الله. وعلى هذا فإنه من الواضح، حين يؤكد المسيحيون على أن يسوع هو الله، فإنهم يؤكدون أن يسوع تتوفر فيه بشكل أبدى، وأساسى كل الصفات الجوهرية لله. وإلى هنا والموضوع سهل، ولكن الأمور تصبح صعبة حين نشرع فى محاولة تعريف الخصائص الجوهرية للإنسان، لقد اعتقد أرسطو أن العقلانية (أن يكون الكائن مفكراً وعاقلاً) كانت سمة أساسية للإنسان. ومن المؤكد أن العقلانية تبدو ضمن خصائص أخرى تكون جوهر الإنسان، وهى التى تفرق بين الإنسان وغيره من المخلوقات التى على كوكبنا.

أما الذى أخطأ فيه الناقد، فهو اعتقاده أن خصائص مثل الافتقار إلى القدرة الكلية، ونقص المعرفة الكلية، والافتقار إلى عدم وجود الخطية هى أيضاً من الأمور الأساسية من ناحية مافى كون الإنسان بشراً. إلا أنه لكى نعرف الخطوة التالية فى حجتنا، فإنه من الضرورى أولاً أن نعرض للفرق بين الخصائص الأساسية والخصائص العامة.

الخصائص الأساسية والخصائص العامة

وما يطلق عليه (موريس) خصائص عامة كثيراً ما يُؤخذ بالخطأ على أنه خصائص أساسية. وهذا الخطأ نجده فى أساس التفكير المشوش الذى أدى بالبعض إلى الاعتقاد بأن عقيدة التثليث يتولد عنها تناقض. فالخاصية العامة، هى أية خاصية يتمتع بها أى إنسان بشكل نمطى، دون أن تكون أيضاً خاصية رئيسية. وكمثال على الخاصية العامة، يشير (موريس) إلى خاصية من له عشرة أصابع. فبالنظر إلى أن كل إنسان تقريباً له عشرة أصابع، فقد أصبحت هذه خاصية عامة بالنسبة للإنسان. إلا أنه من الواضح أن امتلاك عشرة أصابع لا يشكل بالضرورة دليلاً على أنه إنسان. ومن هنا نقول، إن الخاصية العامة لامتلاك عشرة أصابع ليست خاصية أساسية. وعلى غرار ذلك، بوسعنا القول أن العيش فوق سطح الأرض خاصية عامة بالنسبة للإنسان. إلا أنه من المفهوم أنه سيأتى وقت فى المستقبل، سيُولد البشر ويعيشون حياتهم كلها على كواكب أخرى. وهكذا نقول مرة أخرى إن الخاصية التى نجدها عامة لكل الناس، ليست هى خاصية أساسية.

وبعد أن أشار (موريس) إلى هذه النقاط، شرح علاقة هذين التقسيمين بعقيدة التجسد:

ومن المؤكد أنه شئ مألوف بالنسبة للإنسان أن لا يمتلك القدرة الكلية، والمعرفة الكلية، والوجود كضرورة، وما إلى ذلك. وفى حسبانى أن أى مسيحى مستقيم الرأى سيوافق على أنه -باستثناء يسوع- تُعد هذه ملامح شاملة للوجود الإنسانى. وفضلاً عن ذلك، فإنه فى حالة أى واحد منا تمثل بالفعل التمتمات المنطقية لهذه الخاصيات الإلهية الواضحة، فإنه سيكون من المعقول جداً أنها فى حالتنا خاصيات ضرورية. فأنا -على سبيل المثال- لا يمكن أن أصبح كلى القدرة. ذلك أنى كمخلوق فإنى بالضرورة محدود القوة. ولكن، لماذا نعتقد بصحة هذه الخصائص على أساس أن هذه هى الطبيعة البشرية؟ ولماذا نعتقد أن أية سمات لا تتناغم مع الألوهية تكون عناصر الطبيعة البشرية، ونعتبرها خاصيات لا يستطيع الإنسان بدونها أن يكون إنساناً حقيقياً أو كاملاً؟

وبعبارة أخرى، فحتى لو وُصفت أنا، وأي إنسان آخر -باستثناء يسوع- بكمال مثل هذه الخصائص الإلهية مثل: القدرة الكلية، والمعرفة الكلية، فأين الحجة التى تبين أن هذه التحديدات ضرورية بشكل ما لأى إنسان؟ وهذه التحديدات ربما لا تكون سوى خصائص بشرية عامة فقط، وليس من الضرورى أن تكون خصائص أساسية.

الفرق بين "إنسان كامل" و "مجرد إنسان"

وأفضل شيء نستهل به هذه النقطة هو تفسير (موريس) الذى يقول فيه: "الفرد يكون إنساناً كاملاً (فى أية حالة) تتوافر له كل الخصائص الأساسية للإنسان، وبعبارة أخرى كل الخصائص المكونة لطبيعة الإنسان الأساسية. والفرد يكون مجرد إنسان إذا توافرت له كل هذه الخصائص علاوة على بعض الخصائص الإضافية التى لها صفة المحدودية، خصائص مثل الافتقار إلى القدرة الكلية، ونقص المعرفة الكلية، وما إلى ذلك".

ويضيف (موريس): إن ما يصر عليه المسيحيون مستقيمو الرأى هو الادعاء بأن "يسوع إنسان كامل، وليس مجرد إنسان". وهذا يعنى أمرين.

أولاً: أن يسوع يمتلك كل الخصائص الضرورية لأن يكون إنساناً.

ثانياً: أن يسوع تتوافر فيه أيضاً كل الخصائص الأساسية للألوهية. أما الخصائص التى يسبغ عليها النقاد أهمية كبرى (مثل الافتقار إلى المعرفة الكلية)، ويصرون على أنها أساسية لكون الإنسان بشراً، فقد تناولوها بطريقة مشوشة كما يقول (موريس).

وما أن يسلح المسيحيون أنفسهم بالميزات التى ذُكرت عاليه، فإنهم بذلك يكونون قد جهزوا أنفسهم بمايلزم لمواجهة اتهام النقاد، فإن التعليم المستقيم عن المسيح يناقض نفسه. أما الذى يعبر عنه مفهوم الرأى المستقيم للتجسد يتمثل فى الإدعاءات التالية، ١) يسوع المسيح إله كامل، أى أنه تتوافر فيه كل الخصائص الأساسية أو السمات الخاصة بالله. ٢) يسوع المسيح أيضاً إنسان كامل، أى أنه يمتلك كل الخصائص الأساسية للإنسان، ليس من بينها ما تبين أنه من الخصائص المحددة التى يعول عليها النقاد كثيرا فى حجتهم، مثل الافتقار إلى المعرفة الكلية. ٣) يسوع المسيح لم يكن مجرد إنسان، أى أنه لم يكن يمتلك أياً من الخصائص المحددة التى ذكرنا أنها فى الحقيقة تتمة للخصائص الإلهية.

وما أن تُطبق هذه الفروق على التناقض المزعوم الذى يدعى خصوم المسيحية أنه موجود فى التجسد، إلا ويتلاشى هذا التناقض. ولو كان هذا كتاباً فى اللاهوت النظامى أو الفلسفى، ربما كنا تمنينا لو أننا تابعنا أسئلة هامة أخرى عن هذه التاحية عن مفهوم المسيحية التاريخى لطبيعتى المسيح. لقد استوفيت الأهداف المحدودة لهذا الفصل، ولن أحاول تكملة هذه المهمة هنا. وبالنسبة للراغبين فى تعمق أكثر، فإن دراسات (توم موريس) نافعة فى هذه الناحية.

خلاصة

إذا وضعنا فى الحسبان الأهمية التى أعطاها هذا الكتاب لقوانين المنطق كاختبار لوجهات النظر العالمية، لكان الأمر غير ملائم بالنسبة لى أن أتجاهل التحديات الأكثر أهمية بالنسبة للتماسك المنطقى لوجهة النظر العالمية المسيحية. إلا أننى ما أن قبلت التحدى، إلا واصطدمت بمشكلة تناول هذه الموضوعات بطريقة مسئولة، دون أن أسمح فى الوقت ذاته للمناقشة بألا تتعرض للتشوه بتقنيات الفلسفة وبشكل عميق. وكان على أن أختط خطاً حكيماً، محاولاً أن أتناول الموضوعات بمسئولية، وفى ذات الوقت أعمل على أن تكون المناقشة بسيطة بما فيه الكفاية حتى يتتبع غير المتخصصين الحجة التى أسوقها. وآمل أن أكون قد نجحت فى ذلك بالنسبة لأغلبية قرائى.

وعند اللقاء الأول، يمكن للموضوعين اللذين ركز عليهما هذا الفصل، أن يسببا إزعاجاً كبيراً بالنسبة للمسيحيين غير المتمرسين. وإنه لأمر طبيعى، أنه إذا بدأ الواحد حقيقة فى التفكير فى أن المسيحية تناقض نفسها بالنسبة لهذا الأمر أو ذاك، فإن النتائج الشخصية قد تكون مدمرة. ومع ذلك، فما إن نتعلم تصنيف الأمور، إلا ويصبح من الجلى أنه لا توجد أية مشكلة منطقية. فلا التجسد، ولا مشكلة الشر، يشيران إلى تناقض حقيقى فى جوهر الإيمان المسيحى.

إلا أنه -وكما نعرف جميعاً- فإن أمراً يقود إلى آخر. ومعالجتى لمشكلة الشر فى هذا الفصل اقتصرت على السؤال الذى يدور حول ما إذا كان وجود الشر فى خليقة الله يتنافر منطقياً مع خالق العالم الذى هو كلى القدرة، وكلى الصلاح، وكلى المعرفة. وفى الفصل التالى، سيدور بحثى بأكثر تفصيلاً فى مشكلة الشر التى تعتبر أخطر ما يهدد المصداقية العقلانية لوجهة النظر المسيحية.

الفصل السادس

نظرة أخرى على مشكلة الشر

لاحظنا فى الفصل الخامس القضية المسلم بها من وجهة نظر اثنين من أبرز منتقدى المسيحية بأن مشكلة الشر الاستدلالية يجب أن يُحكم عليها بالفشل. وإذا أخذنا فى الاعتبار كتابات فلاسفة مثل (ألفن بلانتينجا)، فإن وجود الشر فى العالم لا يمكن أن يُقال عنه أنه يتناقض منطقياً مع معتقدات مسيحية أساسية أخرى عن طبيعة الله وأعماله. وبكل بساطة، فليس حقيقياً أن مذهب التوحيد المسيحى يناقض نفسه ومن ثم فهو بالضرورة زائف وذلك بسبب وجود الشر.

إلا أن عيوب مشكلة الشر الاستدلالية لا تعنى أن خصوم مذهب التوحيد المسيحى قد استسلموا بالنسبة لمشكلة الشر. بل إن هذا يعنى ببساطة أنهم تحولوا إلى طريق مختلف لصياغة المشكلة. والانتقال من النهج الاستدلالى الفاشل، إلى صيغة استقرائية من مشكلة الشر هو تحول عن الادعاء القوى القائل بأن مذهب التوحيد زائف من الناحية المنطقية إلى تأكيد أكثر تواضعاً بأنه ربما يكون زائفاً. وطبقاً لمناصرى النهج الاستقرائى لمشكلة الشر، فإن الشر يتصدر قائمة الاحتمالات الموجهة ضد مذهب التوحيد، ووجود الشر يجعل من عقيدة التوحيد محتملة أو غير قابلة للتصديق.

ومعظم المحاولات التى جرت للإجابة على مشكلة الشر ما هى سوى صور مختلفة لموضوع أساسى واحد، وهو أن الله يسمح بالشر من أجل تحقيق خير أعظم أو لتجنب شر أعظم. ويُقال إن الله لديه دائماً سبب ما للسماح بالشر. وعند هذه النقطة يتوقف بعض أصحاب عقيدة التوحيد ويدركون أنهم ببساطة لا يعرفون ما هى هذه الأسباب- ولئلا يتخلى أحد عن هذا الإجراء بسرعة أكثر من اللازم علينا أن نسأل: ما الذى ينجم - إذا كان سينجم أى شىء- عن اعتراف المسيحى بأنه لا يعرف السبب الذى حمل الله على أن يسمح بالشر. دعونا نفكر قليلاً. لماذا نفترض أنه إذا كان لدى الله سبب قوى للسماح بالشر فإن معتنق مبدأ التوحيد سيكون أول من يعرف؟ ربما كان لدى الله سبب وجيه، ولكن هذا السبب معقد جداً لا نستطيع نحن أن نفهمه. أو ربما أن الله لم يعلن هذا السبب لداعٍ آخر. وحقيقة أن معتنق عقيدة التوحيد لا يعرف لماذا سمح الله بالشر، ربما تشكل حقيقة هامة عند معتنق مبدأ التوحيد، غير أن هذا فى حد ذاته ليس له أية علاقة بعقلانية الإيمان بالله. ولن يكون هناك شىء أقل من المستوى من الناحية الفلسفية إذا ما تركنا هذا الموضوع بأكمله عند هذه النقطة.

ومع ذلك، كثيرون من المفكرين المسيحيين كانت لديهم الشجاعة (أو ربما الحماقة) الكافية ليقدموا اقتراحات بالنسبة لماهية الأسباب التى جعلت الله يسمح بالشر. البعض استند إلى قيمة وأهمية إرادة الإنسان الحرة. ومن المؤكد أنه من اليسير أن نرى كم من الشر يحدث فى العالم نتيجة خيارات الإنسان- كما أنه أمر جدير أيضاً بأن نفكر ملياً فى العواقب المنطقية التى ستنجم عن أى إنكار لأهمية الحرية الأخلاقية للإنسان. ألا يوجد قدر من حسن الفهم ننظر فيه إلى أن قدراً من حرية الاختيار يُعد شرطاً لبعض الميول التى يوافق عليها الله مثل المحبة والشفقة؟ وماذا سيكون عليه الأمر لو كان يستحيل عمل شئ مرضى لله دون قوة الاختيار؟ وإذا كان الاختيار شرطاً لعمل الخير، ألا يكون شرطاً أيضاً للقيام بأعمال شر أخلاقى؟ وموضوع اختيار الإنسان بجملته، هو موضوع صعب سواء من الناحية الفلسفية أو من ناحية الفكر اللاهوتى. ومن هنا

كان البعض يحرصون على عدم التوسع فى حججهم أكثر من اللازم. إلا أنه توجد على الأقل قضية بديهية للاعتقاد بأن الله لديه أسباب قوية لخلق البشر بمالهم من حرية أخلاقية كبيرة. وإذا كان الأمر كذلك، فإنه يكون من الصعب أن نتبين كيف نرفض نفس هذه الحرية كسبب للشر الأخلاقى الذى يتنامى فى العالم.

وهناك مسيحيون آخرون انتبهوا إلى أهمية أن يحيا البشر فى كون منظم يحكمه ناموس كأسباب مقبولة لبعض نوعيات الشر. ومن بين هؤلاء المفكرين الفيلسوف البريطانى (ف.ر. تينانت F. R. Tennant) الذى كتب يقول:

لا يمكن أن يُعد إصراراً أكثر من اللازم إذا قلنا إن العالم الذى يُراد له أن يتميز بالنظام الأخلاقى يجب أن يحوى نظاماً طبيعياً يتسم بالقانون والانتظام.. وبدون هذا الانتظام فى الظواهر الطبيعية لا يمكن أن تكون هناك احتمالية لترشدنا، ولن يكون هناك تنبؤ، ولا حصانة، ولا تراكم للخبرة المنظمة، ولا تتابع للغايات السابق التفكير فيها، ولا معلومات عن العادة، ولا الاحتمالية للسمعة الحسنة أو الثقافة. وما كان لملكاتنا الذهنية أن تتطور.. وبدون العقلانية، تكون الأخلاقيات مستحيلة.

ومن الواضح أننا نعيش فى كون يظهر فيه النظام، وهو نظام تم التعبير عنه فى قوانين الطبيعة التى يصفها العلم المناسب. والحرية الأخلاقية لا يمكن أن تُوجد بمعزل عن مثل هذه البيئة المنظمة. وإذا كان العالم غير قابل للتنبؤ بأى شكل كان، وإذا كنا لا نستطيع إطلاقاً أن نعرف بين آونة وأخرى، ما الذى نتوقعه من الطبيعة، فإن العلم، والسلوك الأخلاقى الذى له معنى يكونان من الأمور المستحيلة. ولكن إذا هيأت الطبيعة الوضع للخير الأخلاقى، فهى تعمل نفس الشىء للشر الأخلاقى. ومن بين الأسباب التى يمكن معها اعتبار الناس مسئولين حين يضغطون على زناد بندقية ملقمة هو إمكانية التنبؤ بما سينجم عن ذلك العمل.

وكما يُعد النظام الطبيعى المنتظم شرطاً ضرورياً للخير الأخلاقى والشر الأخلاقى، فإنه يجب أن يعمل أيضاً فى أى مجال للشر الطبيعى، وهو الشر الذى لا ينجم عن عمل الإنسان. ويقول (مايكل بيترسون Michel Peterson) "إن نفس الماء الذى يعتبر مصدر حياة، يمكن أن يغرق أيضاً، ونفس العقار الذى خفف الألم يمكن أن يسبب إدماناً نفسياً معوقاً، ونفس الشمس التى تعطى النور والحياة، يمكنها أن تصيب الحقول بالجفاف وتسبب المجاعة، ونفس الخلايا العصبية التى تنقل السرور البالغ يمكنها أيضاً أن تأتى بالألم الشديد والعذاب".

كثير من شكاوى الإنسان عن حدوث شرور طبيعية معينة مثل الفيضانات والزلازل والأعاصير، تبدو بالفعل أنها تعبيرات عن رغبة -على الأقل فى تلك اللحظة- فى أن يتوقف النظام الطبيعى للأشياء أو يكون مختلفاً بشكل ما. ولو كان هناك معنى للاعتقاد بأن الله خلق الكون ومعه نوعية الانتظام والترتيب التى تجعل تكوين قوانين العلم ممكنة، وإذا كان هناك معنى للاعتقاد بأن هذه النوعية من الكون المنظم، فإنه سيكون على وجه العموم أفضل من كون مشوش غير قابل للتنبؤ تجعل من الحكمة أن نفكر مرتين قبل أن نعلن أية نتيجة معينة من ذلك النظام.

ومن المؤكد أنه يمكن قول الكثير عن الدور الذي يقوم به النظام الطبيعي في الجهود التي ترمي إلى تخفيف مشكلة الشر. وليس شيء مما قيل يشير إلى أنه يتوجب علينا اعتبار العالم الحاضر أفضل عالم ممكن، أو العالم الممكن الوحيد. والموضوع ببساطة هو أنه ما لم يكن هناك نظام طبيعي ما، فإن أموراً هامة مثل الحرية الأخلاقية لا يمكن أن تتواجد. ويبدو أن هذا سبب قوى للاعتقاد أنه بدون نظام للعالم يماثل نظامنا الحالي، لما كانت لنا الأشياء الطيبة المألوفة لنا. وبغض النظر عما كانت ستكون عليه قوانين الطبيعة، فإنه لابد وأن تكون هناك آثار جانبية سيئة طالما أنها تعمل كقوانين.

وهناك نهج شعبي ثالث للأسباب المحتملة التي جعلت الله يسمح بالشر يعتمد على فكرة خلق النفس. وطبقاً لوجهة النظر هذه، فلكي يخلق الله النفوس الفاضلة التي يريد أن يكون في شركة معها، فلابد لهؤلاء الأفراد من أن يواجهوا التحديات التي تعلمهم القيمة الجوهرية للفضائل التي يمتلكها الله كلية والفضائل لا يمكن أن تخلق في الحال فالعملية التي توجد تلك الفضائل هي جزء من طبيعة وجودها والحصول عليها. والبشر لا يمكن أن ينموا في بيئة خالية من المجازفة والخطر وخيبة الأمل. ويبدو أن الله لديه أسباب وجيهة لوضعنا في بيئة تتحدانا وتختبرنا.

ومعظم ما نعتبره مهماً بالنسبة لنمو الإنسان الروحي والأخلاقي يتأتى نتيجة التفاعل مع التحدي. والرياضي لا يمكنه أن يحقق أفضل إنجاز له، دون تضحية، وجهد، وتدريب وكفاح. وكذلك فإن نمو الإنسان الروحي والأخلاقي وليد كفاح ضد نوعيات متباينة من التحدي. وكما يقول (ريتشارد بيرتل Richard Purtill): "لكي تكون قادراً على اللعب مثل (هايفتيز Heifetz)، أو تتفلسف مثل (ويتجنشتين Wittgenstein)، فهذا في الواقع أمر لا ينفصل عن السنوات الطويلة للممارسة واللعب، أو السنوات الطويلة من المصارعة مع المشاكل الفلسفية. إلا أنه حتى إذا كانت النتيجة النهائية يمكن تحقيقها دون ألم، فإنها - لهذا السبب- ستكون أقل قيمة. وليس بمقدورنا الحياة في بيئة بلاستيكية تتثنى بحسب كل رغبة تروق لنا ونحصل فيها على كل شيء نريده. فمثل هذه البيئة ستخنق النمو والتطور.

مشكلة الشر الذى بلا مبرر

الردود على مشكلة الشر التي ذُكرت حتى الآن، كلها نسخ من حجة الاستناد إلى خير أعظم، وهي تتضمن الادعاء بأن الله يسمح بالشر، لأنه حالة ضرورية للحصول على خير أعظم، أو تجنب شر مستطير. ولكن ماذا يكون الحال لو تضمن العالم شراً بلا مبرر، أي شر لا حس له، ولا فكر، ولا عقل ولا معنى؟ وإذا كانت هذه حقيقة، فإن الاستناد إلى خير أعظم سينهار، ومعه -على ما يبدو- ستنهار أيضاً كل نوعيات الحجج التي ذكرناها.

وهناك وجه من الأوجه التي تتناول مشكلة الشر الذي بلا مبرر يمكن مناقشته بالحجج التالية:

١- إذا كان الله موجود، فإن كل شر في هذه الحالة يكون له ما يبرره.

٢- لكن الواقع لا يقول أن كل شر وراءه سبب يبرره.

٣- وعلى هذا، فإن الله غير موجود.

فما الذى يسعنا قوله بالنسبة لهذه الحجة؟ وبداية، نقول إنها صحيحة بالتأكيد، وتتناغم مع القواعد المنهجية للمنطق. وإذا كانت الفرضيات صحيحة، فمن المؤكد أن النتيجة تكون صحيحة. ولكن، هل الفرضيات صحيحة؟ ولنفترض أننا لم نركز الآن سوى على الفرضية الثانية، وهى التى تتمثل فى الادعاء بأن ليس لكل شر ما يبرره. هنا بوسعنا أن نطرح العديد من الأسئلة حول هذا الإدعاء، **أولاً**: كيف عرف منتقد عقيدة التوحيد المسيحية أن الفرضية صحيحة؟ ولندخل مباشرة إلى لب الموضوع، كيف يكون بمقدور أى إنسان أن يعرف أن الشر الذى لا مبرر له موجود؟ إن أى شخص حساس سريع الملاحظة عليه أن يعترف أن كثيراً من الشرور التى تبدو لا مبرر لها تنتشر فى العالم: الحوادث التى تطيح بالناس فى ريعان حياتهم، الأمراض التى تتولد عنها فترات طويلة من الآلام الفظيعة، والتشوهات الخلقية، والكوارث الطبيعية التى يمكنها على حين غرة أن تقتل مئات من الناس وتشوه حياة الناجين، لكن إذا أخذنا فى حسباننا محدودية المعرفة البشرية، فإنه من الصعوبة أن نعرف كيف يتسنى لأى إنسان أن يعرف بالفعل أن نمطاً معيناً من الشر ليس له بالفعل أى مبرر. والواقع أن الأمر يبدو كما لو أنه يتوجب على الشخص أن يكون كلى المعرفة كى يعرف أن نوعية خاصة من الشر تفتقر تماماً إلى معنى وهدف.

ومن ثم يبدو أن أقصى ما يستطيع إنسان أن يدعى معرفته هو أن الشر الذى يبدو أنه لا مبرر له موجود. إلا أن مثل هذا الادعاء بدلاً من الفرضية، لن يؤدى بالطبع إلى نتيجة.

لقد قدمت (چين مارى تراو Jane Mary Trau) صيغة مختلفة لمشكلة نواتج الشر. حيث كتبت تقول:

"يبدو أنه ما لم يتم إثبات أن حالات المعاناة التى تظهر أنها بلا مبرر هى بالفعل كذلك، فإنه من المعقول أن نؤمن أنها بهذا الشكل الذي تبدو عليه، (أى أنها بلا مبرر) وبما إنه لا يمكن إثبات أنها فعلاً بلا هدف فإنه من المعقول أيضاً أن نعتقد أنها كذلك، وبما أن هذه الحالات موجودة فعلاً، فإنه من المعقول بالأكثر الاعتقاد بأن الله ليس له وجود.

أما "تراو"، وكما أوضحت بعد ذلك، لم تقبل هذه الحجة، ولم تقدمها إلا كنسخة من مشكلة الشر الاستقرائية. وردها على الحجة كان مفيداً. فالفرضية الثانية من الحجة تستند إلى جهالة، ومغالطة منطقية شائعة كما تقول. وبالنظر إلى أن من يؤمن بمذهب التوحيد لا يستطيع ببساطة أن يثبت أن كل الشرور فى العالم هى بلا مبرر، فبالكاد يعنى هذا أن بعضها كذلك. وتواصل (تراو) كلامها قائلة: ..... الواقع أن أكثر موقف منطقى يمكن التمسك به يبدو أنه هذا: نحن لا نستطيع أن نفسر الحالات التى تبدو أنها حالات ألم لا مبرر لها إلا إذا عرفنا ما إذا كانت بالفعل لا مبرر لها أم لا. وهذا ما لا نستطيع أن ندعيه أبداً إلا إذا تأكدنا من الوضع الوجودى لله (أى، هل يوجد الله؟). ومن حيث إنه ليس بمقدورنا أن نثبت أو ندحض عدم وجوده (عن طريق الحجة المتعلقة بالشر الذى لا مبرر له) فمن ثم يتعين علينا أن نتعامل مع تلك الفرضية أولاً (أى وجوده من عدم وجوده)، أو ندحضه "وإلى أن يتم ذلك، ليس بمقدورنا معرفة ما إذا كانت توجد مثل هذه الحالات".

وطبقاً لما تقوله "تراو"، فإن الوسيلة الوحيدة الأكيدة لبيان أن العالم يوجد به بالفعل شرور لا مبرر لها هى أن نثبت أن الله غير موجود. إن ذلك يعنى أن الإنسان لا يستطيع أن يقول بوجود شرور لا مبرر لها ويجادل ضد وجود الله -ما لم يكن الإنسان غير مبالٍ من ناحية المسألة.

مشكلة الشر ووجهات النظر العالمية غير المسيحية

يبدو أن كل من خصوم المسيحية التاريخية يثير مشكلة الشر كوسيلة لتحدى الإيمان المسيحى بالله. إلا أن الأمر الجدير بالتأمل، ما إذا كانت هناك وجهات نظر عالمية متنافسة ليس لها حق منطقى فى الكلام عن هذا الموضوع. سنتفحص فى الفصل التالى مثلاً على ذلك وجهة النظر العالمية المعروفة باسم "مذهب الطبيعيين". ومن بين الأمور التى سنتعلمها عن مذهب الطبيعيين أنه ليس أحد من أتباع هذا المذهب يجد مبرراً منطقياً لكى يؤمن بأى خير موضوعى "فالخير" و "الشر" فى الكون الطبيعى لا يمكن أن يشير إلى أى شىء سامٍ، أى شىء له وضع خارج النظام الطبيعى للأشياء. ولهذا السبب يقول كثيرون من أنصار هذا المذهب إن ما نطلق عليه نحن خيراً وشراً هو مجرد تفضيلات غير موضوعية، فى حين أن آخرين من أنصار نفس المذهب يتوقفون عند وجهة النظر المتطرفة والمثيرة للجدل هذه، الا أنهم على الرغم من ذلك يبدون مضطرين لتناول موضوع الخير والشر بشكل نسبى.

والنقطة المثيرة هنا أن قلة من أنصار مذهب الطبيعيين قد أدركوا كيف أن تناولهم النسبى لموضوع الخير والشر يجعلهم غير مؤهلين من الناحية المنطقية لأن يكونوا مناصرين لمشكلة الشر. وكما يسعون لإحراج المسيحيين بوصف شر معين، فهم يفعلون ذلك بعبارات تتنافر بكل بساطة مع مفهومهم للأشياء الذى يقوم عليه مذهبهم.

ويبدو أن هناك مشكلة مماثلة قائمة بالنسبة لخصوم المسيحية من مؤيدى مبدأ وحدة الوجود. وما أقصدهم بصفة خاصة هنا هم أشياع ما نطلق عليه أحياناً تفكير (العصر الجديد New Age). إلا أن هذا سيكون مشكلة أيضاً لأنماط أخرى من أتباع مذهب وحدة الوجود، بما فيهم أتباع بعض الديانات الشرقية. والمشكلة بالنسبة لمشايعى مبدأ وحدة الوجود هى هذا: إذا كان كل شىء واحدا، بمعنى جزء من نظام كلى متكامل، إذاً فالواحد أو الله (أو مهما كان اسمه) سيتوقف عن أن يكون فوق الخير والشر. والواقع إن ما نراه كخير وشر ما هو فى الحقيقة سوى نتيجة وهم، أو وسيلة غير صحيحة "لرؤية" الأشياء. وإنا لنتعجب، كيف أن أى شخص متأثر بمذهب وحدة الوجود يمكنه بصفة مستمرة أن يواجه المسيحيين بالتحدى الخاص بمشكلة الشر.

ويبدو كما لو أن المجموعة الوحيدة التى تستطيع أن تصارع ضد مشكلة الشر باستمرار، هم أناس -مثل المسيحيين- ممن يعتقدون أن الخير والشر ليسا نسبيين، ولا وهماً من الأوهام. ويبدو من المؤكد أن كثيرين من مناصرى وجهات نظر عالمية غير مسيحية متهمون بعدم التناغم حين يتكلمون عن الشر بالطريقة التى يجب أن يتكلموا بها عن أية مشكلة تتعلق بوجود الشر.

خاتمة:

آخر شيء أود أن أقدمه، هو أن أترك انطباعاً لدى القارىء بأنى لا آخذ مشكلة الشر بشكل يمثل خطورة ما، ولسوف يكون من الصعب التفكير فى مزيد من التهديد الخطير لعقلانية الإيمان المسيحى.

غير أنه، على الرغم من الموضوعات الخطيرة التى أثارتها مشكلة الشر، إلا أنها لا تضعف الادعاء القائل بأن وجهة النظر العالمية المسيحية هى خيار معقول وقابل للتصديق. فالشر مشكلة، وما من أحد تتملكه الحماقة بحيث يقول إنه ليس كذلك. إلا أن وجهة النظر المسيحية العالمية لديها الإمكانات للتعامل مع المشكلة النظرية، وكما سبق لنا القول، فإن مناهضى المسيحية الذين يتلهفون إلى أن يلقوا بفرح بهذا الموضوع فى وجه المسيحيين فى حاجة إلى أن يعطوا انتباهاً أكثر للمصاعب الناجمة عن عدم التناغم الذى تولده نظرياتهم فى وجهات نظرهم العالمية.

الفصل السابع

مذهب الطبيعيين

إن المنافسه الكبرى التى تواجهها وجه النظر العالمية المسيحية فى الجزء من العالم الذى يُنظر إليه فى العادة على أنه العالم المسيحى تتمثل فى نظام يُطلق عليه اسم "مذهب الطبيعيين". والفرض الأساسى لهذا المذهب يقول بأنه لا وجود لأى شئ خارج المادة المتحركة التي لا يتضمنها أمر طبيعى . ويوضح (س.د. جايدى (S. D. Gaede ذلك بقوله:

"تقوم وجهة نظر العالم الطبيعى على أساس الاعتقاد بأن الكون المادى هو المجموع الكلى للحقيقة. وبقول آخر، يتمسك مذهب الطبيعيين بفرضية أن كل ما هو خارق للطبيعة، لا وجود له... وتفترض وجهة النظر العالمية للمذهب الطبيعى أن المادة أو القوام الذى يشكل الكون لم تُخلق بل كانت موجودة دائماً. وذلك لأن عملية الخلق تفترض وجود أساسيات خارجة أو أكبر من نظام العالم– وهذا ما يتعارض مع العقيدة التى تقول إن الكون المادى هو المجموع الكلى للحقيقة. يفترض هذا المذهب عادة أن المادة الموجودة دائماً قد تطورت لتصبح الكون المنظم الذى نراه، وذلك بواسطة مصادفة عمياء لا تعرف الزمن. والإنسان، كجزء من الكون الطبيعى، هو أيضاً نتيجة المادة، والزمن، والمصادفة. وفى إطار وجهة النظر العالمية لمذهب الطبيعيين، فإنه لا وجود لمعجزات كهذه، بل هى أحداث طبيعية يتوجب شرحها.

فى كتابه "معجزات" يبين (س.إس. لويس) ببراعة أن معظم الغربيين الذين يعترضون على إيمان المسيحيين بالمعجزات إنما يفعلون ذلك لأنه سبق لهم أن التزموا بوجهة النظر العالمية لمذهب الطبيعيين. ويقول (لويس) فى هذا الكتاب عن مذهب الطبيعيين:

"ما يؤمن به أصحاب مذهب الطبيعيين هو أن الحقيقة المطلقة التى لا تستطيع أن تسبر خفاياها، هى عملية واسعة النطاق فى الفضاء والزمن وهى تسير طوعاً دون إكراه. وفى داخل هذا النظام الكلى، فإن كل حدث بعينه (مثل جلوسك وأنت تقرأ هذا الكتاب) إنما يقع لأن حدثاً آخر قد وقع، وعلى المدى البعيد، لأن الحدث الكلى يحدث. وكل شىء بعينه (مثل هذه الصفحة) هو ما هو عليه، لأن أشياء أخرى هى ما هى عليه، وهكذا، وفى النهاية، لأن النظام كله هو ما هو عليه. وكل الأشياء والأحداث متشابكة تماماً حتى إن أحداً منها لا يمكنه ادعاء أقل درجة من الاستقلالية عن "المشهد كله". وما من شىء منها يُوجد طوعاً" أو يستمر من تلقاء نفسه إلا فى إطار ظهوره فى مكان وزمان ما معينين، ذلك الوجود العام الطوعى، أو السلوك الطوعى الذى ينتمى إلى الطبيعة ككل (الحدث الذى يمثل المجموع الأعظم المتشابك). وهكذا فما من مؤمن حقيقى بالمذهب الطبيعى يعترف بالإرادة الحرة، لأن الإرادة الحرة تعنى أن البشر لهم القدرة على العمل المستقل، القدرة على عمل شىء ما أكثر، أو بخلاف ما تضمنته سلسلة الأحداث الكلية. وأية قوة منفصلة كهذه تستطيع أن تنشىء أحداثاً هى ما ينكره أتباع مذهب الطبيعيين. والعفوية، والأصالة، والعمل الطوعى، هى مزية محجوزة "للمشهد الكلى" الذى يسمونه الطبيعة".

الكون بالنسبة لمن يعتنق هذا المذهب يشبه الصندوق وكل شىء يحدث داخل الصندوق (النظام الطبيعى يمكن تفسيره، على أساس أشياء أخرى توجد داخل الصندوق. وما من شىء (بما فى ذلك الله) يوجد خارج الصندوق، وعلى ذلك، فما من شىء خارج الصندوق –الذى نسميه الكون أو الطبيعة– يمكن أن يكون له أية

نتيجة سببية داخل الصندوق. والصورة التى تمثل مذهب الطبيعيين ستشبه هذه:

لاشيء

النظام الطبيعي

ومن المهم ملاحظة أن الصندوق (النظام الطبيعي) مقفل. وحتى إذا وُجد بالفعل شيء خارج الصندوق، فلا يمكن أن يكون سبباً لأى شئ يحدث داخل الصندوق. وكل شيء يحدث فى الطبيعة له سببه فى شيء آخر موجود داخل الصندوق. ويشرح الفيلسوف (وليم هالفرسون William Halverson) ذلك بقوله:

"يؤكد لمذهب الطبيعيين.. أن ما يحدث فى العالم يجد تفسيراً له من الناحية النظرية فى ضوء التركيبات الداخلية والعلاقات الخارجية لهذه الكيانات المادية. فالعالم.. كآلة ضخمة هائلة، أجزاؤها عديدة وعملياتها معقدة حتى إننا حتى الآن لم نتمكن من تخليق سوى جزء بسيط من معرفة كيفية عمله. ومع ذلك ومن حيث المبدأ، فإن كل شيء يحدث يمكن تفسيره بصفة أساسية على ضوء خصوصيات وعلاقات الجزئيات التى تتكون منها المادة. وهنا أيضاً يمكن ذكر هذه النقطة ببساطة بالقول: "الحتمية أمر حقيقى".

وعلى ذلك، فإن معتنق مذهب الطبيعيين، هو الشخص الذى يؤمن بالفرضيات التالية:

١- الطبيعة فقط هى الموجودة. وبالطبيعة أعنى (على نهج ستيفن داڤيز): "المجموع الكلى لما يمكن من حيث المبدأ أن يلاحظه الناس، أو يُدرس بوسائل مماثلة لتلك التى استُخدمت فى العلوم الطبيعية. وبالنسبة لأى شخص يفكر فى إطار وجهة النظر العالمية لهذا المذهب فإنه يرى أن الله غير موجود، لأنه بالتحديد، إذا كان أى شيء موجود بالفعل، فإنه يكون جزءاً من الصندوق.

٢- الطبيعة كانت موجودة دائماً. وسوف لا يكون الأمر متناغماً بالنسبة لأى من أتباع مذهب الطبيعيين أن يقبل التعليم المسيحى عن الخليقة. وكما يقول (هالفرسون): يقول مذهب التوحيد "فى البدء، الله" أما مذهب الطبيعيين فيقول: "فى البدء المادة". ولم يكن هناك وقت على الإطلاق لم يكن فيه النظام الطبيعى موجوداً، والطبيعة لا تعتمد فى وجودها على أى شيء آخر.

٣- تتسم الطبيعية بالتناغم التام، وانتظام الطبيعة يحول دون حدوث شيء مثل المعجزة. والمعجزات مستحيلة لأنه لا يوجد شيء خارج الصندوق يمكن أن يتسبب فى حدث داخل الطبيعة. إلا أن المعجزات مستحيلة أيضاً، لأن انتظام النظام الطبيعى وتناغمه يمنع وقوع أى حدث غير منتظم.

٤- الطبيعة هى نظام حتمى. والاعتقاد فى الإرادة الحرة يفترض نظرية وجود وكالة إنسانية، والتى بواسطتها نجد أن الناس الذين يعملون بمعزل عن أية أسباب حتمية تماماً، بوسعهم أن يعملوا هم أنفسهم كأسباب فى العالم الطبيعى. وهذا المعتقد لا يتناغم مع افتراضات مذهب الطبيعيين.

٥- الطبيعة هى نظام مادى. ويقول (هلفرسون): "يؤكد مذهب الطبيعيين أن المكونات الرئيسية للواقع هى كيانات مادية. وبهذا لا أقصد أن الكيانات المادية فقط هى الموجودة. فلست أنكر الحقيقة -الوجود

الحقيقى- لأشياء مثل: الآمال، الخطط، السلوك، اللغة، الاستدلالات المنطقية، وما إلى ذلك. ومع ذلك فما أؤكده هو أن أى شىء حقيقى، يمكن فى النهاية تفسيره ككيان مادى، أو كصيغة أو وظيفة أو عمل لكيان مادى. وأياً كانت أشياء مثل الأفكار، والمعتقدات، والاستدلالات، فهى إما أنها أشياء مادية، وإما أنها تُختزل أو تُفسر فى إطار عناصر أخرى فى النظام الطبيعى. وليس من الضرورى إطلاقاً أن تبحث عن تفسير لأى حدث فى الطبيعة، فى شىء خارج عن النظام الطبيعى.

ومن الجلى أن أى إنسان تسيطر عليه افتراضات مذهب الطبيعيين لا يمكنه أن يؤمن بالمعجزات لأنها تتناقض مع معتقداته. وبالنسبة لشخص مثل هذا. لا يمكن أن يقتنع بأى حال بدليل يتعلق بمعجزات مفترضة. فالمعجزات -بالتحديد- مستحيلة. ولا يمكن أن تنجح أية حجج تتعلق بالمعجزات فى إقناع من يعتنق مذهب الطبيعيين بها. والطريقة الصحيحة الوحيدة لمواجهة هذا الشك، هى أن تبدأ بتحدى مذهبه هذا.

وهنا نرى أنه لزاماً علينا أن نذكر شيئاً آخر عن مذهب الطبيعيين. على المسيحى ألا يسمح لمشايع هذا المذهب الذى يخدع نفسه بأن الخطوات التى أدت به إلى اعتناق هذا المذهب، هى أسمى أو أنها حتى - فيما يتعلق بهذا الموضوع- مختلفة عن الطريقة التى من خلالها اعتنق المسيحى وجهة النظر العالمية الخاصة بالتوحيد. وبكل بساطة، فإنها ليست حقيقة أن "العلم" بطريقة ما يلزم الناس متفتحى الذهن، والمتفوقين فكرياً بأن يصبحوا من أتباع مذهب الطبيعيين. ولا يوجد "برهان" آخر يدعم مذهب الطبيعيين سوى ذاك الذى يدعم عقيدة التوحيد. ومن المهم مساعدة معتنق مذهب الطبيعيين على معرفة أنه من وجهة هامة فإن اختياره لهذا المذهب يشكل اتجاهاً دينياً، اتجاه من القلب يتعلق بالاهتمامات الأساسية.

ولكن ما هى أهم النقاط التى تختلف فيها وجهة النظر العالمية المسيحية عن مذهب الطبيعيين؟

الصورة التالية التى تمثل وجهة النظر المسيحية العالمية تعد أمراً مناسباً لأن تبدأ بها الموضوع.

الله

مذهب الطبيعيين

ويوضح هذا الرسم ثلاثة عناصر رئيسية لوجهة النظر العالمية المسيحية:

١- الله موجود خارج الصندوق.

٢- الله خلق الصندوق.

٣- الله يعمل داخل الصندوق باعتباره العلة الأولى.

وعلى هذا، تعارض عقيدة التوحيد المسيحية قناعة أصحاب مذهب الطبيعيين، بأنه ما من شىء -بما فى ذلك الله- موجود خارج النظام الطبيعى. كما أنها تعارض أبدية الطبيعة. فقد خلق الله العالم من لا شىء، وبكامل حريته. والكون طارىء، بمعنى أنه ما كان له أن يبدأ فى الوجود دون عمل الله فى الخلق، وما كان له

أن يستمر فى الوجود دون نشاط الله فى حفظه.

ومن المهم بصفة خاصة ملاحظة أنه لولا حقيقة أن الصندوق "مفتوح" للأسباب الموجودة خارجه، لما اختلف المفهوم العلمى المسيحى للنظام الطبيعى من أى ناحية مفهوم معتنقى مذهب الطبيعيين. ويؤمن المسيحيون أن الطبيعة تظهر نماذج من النظام والانتظام. وبالطبع يؤمنون أيضاً أن هذا التناغم ناجم عن قرار الله الحر فى أن يخلق الكون بطريقة معينة. وعقيدة التوحيد المسيحية تعترف بنفس نظام العلة والمعلول فى إطار النظام الطبيعى مثل أصحاب المذهب الطبيعى تماماً. غير أن المسيحى يعتقد أن النظام الطبيعى يعتمد على الله من ناحية وجوده ومن ناحية نظامه. وحين يؤكد المسيحى أن الله قادر على ممارسة نفوذ سببى فى النظام الطبيعى، فهو لا يعنى بالضرورة أن مثل هذا العمل الإلهى ينجم عنه تعطيل أو انتهاك النظام الطبيعى. والنقطة الجوهرية هنا هى أن العالم ليس مغلقاً أمام نشاط الله السببى.

وأخيراً، تنكر عقيدة التوحيد المسيحية أن الطبيعة تشرح نفسها بنفسها. ونفس وجود الكون الطارىء يتطلب منا أن نبحث عن السبب فى كونه وجود ضرورى، لا يعتمد على أى شىء آخر لوجوده. والقوانين التى تعمل فى النظام الطبيعى تدين بوجودها إلى نشاط الله فى عملية الخلق. والكثير من الأمور التى تحدث فى داخل النظام تقع تحت تأثير أو نفوذ أعمال الله شخصياً أو تتأتى نتيجة لها.

حجة مقنعة ضد مذهب الطبيعيين

وهناك تحليل دقيق لمذهب الطبيعيين يكشف عن مشكلة كبيرة حتى أنه يخفق فى أحد الاختبارات الكبرى، وهو تحليل يتوقع العقلانيون أن تجتازه أية وجهة نظر عالمية بنجاح. ولكى تعرف كيف يكون هذا، فإنه من الضرورى أولاً تذكر أن مذهب الطبيعيين ينظر إلى الكون على أنه نظام كامل فى ذاته ويفسر نفسه بنفسه. ولا يوجد شىء خارج الصندوق الذى نسميه الطبيعة بوسعه أن يشرح، أو لابد منه لشرح أى شىء داخل الصندوق. ويدعى مذهب الطبيعيين أن كل شىء يمكن شرحه على ضوء شىء آخر فى إطار النظام الطبيعى. وهذا المبدأ ليس عارضاً أو ملمحاً غير ضرورى بالنسبة لموقف أتباع مذهب الطبيعيين. وكل ما هو مطلوب لبيان زيف مذهب الطبيعيين هو اكتشاف شىء واحد لا يمكن تفسيره على أساس نهج مناصرى هذا المذهب. وفى هذا الصدد ذكر (س.إس. لويس) هذه الحجة الموجزة:

"إذا كانت ضروريات الفكر تضطرنا أن نعطى لشئ ما درجة من الاستقلالية عن النظام الكلى- إذا أثبت أى شىء بمفرده أنه قائم بذاته، وأنه شىء أكبر من أن يكون تعبيراً عن سمة الطبيعة ككل- هنا نكون قد تخلينا عن مذهب الطبيعيين. ذلك أننا استنادا لهذا المذهب نقصد إرساء فكرة أن الطبيعة وحدها -أى النظام المتشابك بكامله- هى الموجودة. وإذا كان ذلك صحيحاً، فإن كل شىء وكل حدث سوف يكون قابلاً للشرح بكامله.... على أنه نتاج ضرورى للنظام".

وبقليل من الجهد نستطيع أن نلمس بسرعة أنه ما من معتنق لمذهب الطبيعيين ذى تفكير عميق بوسعه أن يتجاهل على الأقل أمراً واحداً، وهذا ما يفسره (لويس) بقوله:

"كل معرفة ممكنة.... تعتمد على صحة التفكير. وإذا كان شعور اليقين-الذي نعبر عنه بعبارات مثل: "يجب أن يكون"، "ومن ثم"، "من حيث إن"- يعبر عن إدراك حقيقى، عما "يجب" أن تكون عليه الأشياء بالفعل خارج عقولنا، فحسناً كان الأمر. إلا أنه إذا كانت هذه اليقينية مجرد شعور فى أذهاننا ولم تكن تبصراً فعلياً فى حقائق خلفها- وإذا كانت تمثل السبل التى تنتهجها عقولنا فحسب- هنا لا تكون لدينا معرفة. وما لم يكن تفكير الإنسان صحيحاً، فما من علم يمكن أن يكون صحيحا"[٦].

والعقل البشرى -كما هو معروف- لديه القدرة على فهم الحق المحتمل، مهما كانت القضية. غير أن العقل البشرى لديه القدرة أيضاً على فهم التسلسل المنطقى، أى ما يتوجب أن تكون عليه القضية. وهذه القدرة الأخيرة، أى القدرة على فهم التسلسل المنطقى، هى الملمح الضرورى للتفكير البشرى. وإذا كان صحيحاً أن كل الرجال مآلهم الموت، وإذا كان صحيحاً أن سقراط رجل، إذاً يجب أن يكون صحيحاً أن سقراط ميت.

إن أتباع مذهب الطبيعيين يجب أن يلجأوا إلى هذه النوعية من التسلسل المنطقى الضرورى فى حججهم التى يساندون بها مذهبهم. والواقع أنه يتعين عليهم ذلك بالنسبة لكل شىء. ولكن، هل بمقدور أتباع المذهب أن يفسروا هذا العنصر الضرورى لعملية التفكير والذى يستخدمونه فى حججهم التى يدافعون بها عن موقفهم؟ لا يعتقد (لويس) هذا. ومذهب الطبيعيين -كما يراه (لويس)- "يسفه عمليات تفكيرنا، أو يقلل من مصداقيتها إلى مستوى متواضع حتى أنها لا تستطيع بعد أن تدعم المذهب نفسه. ويقدم (لويس) حجه قائلاً:

"ومعنى هذا أنه ما من رواية عن الكون (بما فى ذلك مذهب الطبيعيين) يمكن أن تكون صحيحة ما لم تترك هذه الرواية إمكانية لأن يكون تفكيرنا تفكيراً صحيحاً. أما النظرية التى تفسر كل شىء آخر فى الكون بأكمله، ولكنها تجعل من المستحيل قبول مقولة إن تفكيرنا صحيح، فلن تكون مقبولة على الإطلاق. لأن تلك النظرية يتم التوصل إليها عن طريق التفكير، فإذا لم يكن التفكير سليماً، فإن هذه النظرية ستدحض بالطبع وستدمر مصداقيتها، وستصبح حجةً على أنه ما من حجة سليمة، وبرهاناً على أنه ليس هناك وجود لتلك الأشياء التى تُسمى براهين- وهذا هراء".

وكان (لويس) حريصاً على الإشارة إلى أن حجته لم تقم على أساس الادعاء بأن مذهب الطبيعيين يؤكد أن كل حكم بشرى (مثل كل حدث فى الكون) له سبب. فهو يعرف أنه على الرغم من أن اعتقادى عن موضوع ما ربما يكون سببه عوامل غير عقلانية، إلا أن اعتقادى على الرغم من ذلك قد يظل صحيحاً. ولويس، فى الحجة التى نحن بصددها، يتحدث عن شىء آخر، ألا وهو العلاقة المنطقية بين الاعتقاد وأساس هذا الاعتقاد. وأن يكون للاعتقاد سبب غير طبيعى فهذا شىء، وأن يكون للاعتقاد سبب أو أساس فهذا شىء آخر. فهذيان الشخص المجنون قد يكون له سبب إلا أنه يفتقر إلى أساس مبرر. وتفكير الفيلسوف قد يكون أيضاً له سبب، ولكن له أيضاً أساس مبرر. وما يعمله مذهب الطبيعيين-طبقاً لما يقوله لويس- هو أنه يفصل

ما كان لا ينبغى فصله، أى الصلة بين النتائج والأسس أو الأسباب المتعلقة بهذه النتائج. وكما يقول لويس: "ما لم تكن نتيجتنا هى النتيجة المنطقية المستخلصة من أساس، فلن تكون لها قيمة (كمثال لنتيجة لها أسبابها) ولا يمكن أن تكون صحيحة إلا إذا جاءت كرمية من غير رامٍ. وعلى ذلك فإن مذهب الطبيعيين يقدم ما يمكن اعتباره تفسيراً كاملاً لسلوكنا العقلى، ولكن عند فحص ذلك التفسير فإنه لا يفسح مجالاً لأعمال المعرفة أو التبصر التى تقوم عليها كل قيمة التفكير كدعائم للحق".

ويستطرد لويس قائلاً: "فيما يختص بمذهب الطبيعيين فإن أعمال التفكير ليست متشابكة مع التشابك الكلى لنظام الطبيعة حيث إن كل عناصرها الأخرى متشابكة بعضها مع بعض. فهى مرتبطة بها بشكل مغاير، تماماً كما أن معرفة أجزاء الآلة يرتبط بالآلة نفسها، ولكن ليس بالطريقة التى ترتبط بها أجزاء الآلة بعضها مع بعض. ومعرفة الشىء ليست جزءاً من أجزاء هذا الشىء. وبهذا المعنى فإن شيئاً وراء الطبيعة يعمل كلما فكرنا فيه".

فى هذه الفقرة الأخيرة فإن حجة لويس ضد مذهب الطبيعيين واضحة. فالمذهب، على وجه التحديد، يستبعد احتمال وجود أى شىء وراء الطبيعة، خارج الصندوق. غير أن عملية التفكير تتطلب شيئاً يتجاوز حدود الطبيعة. ونفس الوضع ينطبق بالطبع فى حالة التفكير الأخلاقى. والقوانين التى تحكم الأخلاقيات يجب أن توجد خارج الصندوق.

ومن بين المشاكل الكبرى التى تواجه مذهب الطبيعيين، تفسير كيف أن قوى غير عاقلة يمكن أن تكون سبباً في وجود أفكار عاقلة وتُقبل على أنها تؤدى إلى تفكير سليم، ومبادىء أخلاقية، ليكونا مرشداً حقيقياً للطريقة التى ينبغى على الإنسان أن يسلك بها. وليس غريباً أن كل شخص من أتباع مذهب الطبيعيين يريد من البقية منا الاعتقاد بأن وجهة نظره العالمية، ومذهبه، إنما كان نتيجة تفكيره السليم.

وبعد أن تأملنا الأمر كله، فإنه من الواضح أن مذهب الطبيعيين ينتمى إلى مرجعية الذات السخيفة. وقبل أن يستطيع أى شخص أن يبرر قبوله لهذا المذهب على أسس عقلانية، فإنه من الضرورى لهذا الشخص أن يرفض أولاً عقيدة أساسية لموقف من يعتنق مذهب الطبيعيين. وبعبارة أخرى فإن الطريقة الوحيدة لإضفاء أسس عقلانية للإيمان بهذا المذهب هو التوقف أولاً عن الإيمان به. وهكذا يواجه مذهب الطبيعيين مشاكل كبيرة مع أول اختبار يتعين على كل وجهة نظر عالمية أن تجتازه ألا وهو اختبار التجربة، ولسوف أتغاضى عن السؤال حول ماإذا كان بمقدور مذهب الطبيعيين أن يبرر الاستدلالات التى استخلصها مؤيدوه بسرعة من خبراتنا بالعالم الخارجى، ومشكلاتهم مع قوانين المنطق تستمر فى هذه الناحية أيضاً. ثم إنى أعطى اهتماماً أكثر بكيفية تعامل نصير مذهب الطبيعيين المتمسك بمنطقه مع اختبارنا البشرى العام بعالمنا الداخلى. وأية وجهة نظر عالمية لا تستطيع أن تكون عادلة بالنسبة لما نجده فى عالمنا الداخلى بشأن الالتزام الأخلاقى والمسئولية، الإثم، والمحبة لابد وأن نعتبرها أقل مستوى بمقارنتها بوجهة النظر العالمية المسيحية. ولقد أدرك بعض أنصار مذهب الطبيعيين المشكلة التى تواجههم فى هذا الخصوص، وبذلوا كل جهد ليأتوا بقصة لا تتعارض مع موقفهم الأساسى.

أشار بعض أنصار مذهب الطبيعيين-على سبيل المثال-إلى أن الشخص بمقدوره أن يكون ذا أخلاق دون أن يؤمن بالله. وفيما أن هذا أمر حقيقى، إلا أن السؤال الأكثر أهمية هو ما إذا كان مثل هذا الشخص لديه أساس لمعتقداته الأخلاقية بخلاف تفضيلاته أو إرادته. فكلنا نفضل أن يكون جيراننا ممن يتحلون بالعطف، وآداب السلوك والأمانة. إلا أنه إذا كانت معتقدات جارى وسلوكياته الأخلاقية ليس لها أساس إلا فى خياراته وميوله، أو أعمال إرادته، فمن الجلى أنه لن يكون هناك ما يحول دون أن تحمله ميوله هذه إلى أن يسلك غداً بشكل مختلف تماماً. وكما أشار الفيلسوف البريطانى (هيسنج راشدل Hastings Rashdall) منذ قرن مضى تقريباً.

"نحن نقول إن القانون الأخلاقى له وجود فعلى، وأن هناك ما نطلق عليها أخلاقيات مطلقة (أى موضوعية)، وأن هناك شيئاً صادقاً تماماً أو زائفاً فى الأحكام الأخلاقية، سواء اعتقدنا نحن أو أى عدد من الناس بالفعل، وفى أى وقت معين فى صحة هذا أم لا.. ومن ثم علينا أن نواجه السؤال: "أين تُوجد مثل هذه المُثل، وأى شكل من الوجود علينا أن ننسبه لها؟"

ويرفض (راشدال) الجدل بأن المثل الأعلى يمكنه أن يوجد تماماً وبالكلية فى ضمير أى شخص، أو حتى فى ضمائر كل البشر. ولكن هذا لن يفيد القانون الأخلاقى بأكثر مما يفيد قوانين المنطق والرياضيات".
ويواصل (راشدال) كلامه: "ذلك فقط فى حالة ما إذا كنا نؤمن بوجود عقل، يكون المثل الأعلى الأخلاقى الحقيقى بالنسبة له موجوداً من قبل بمعنى حقيقى، عقل يكون مصدر كل ما هو حق فى أحكامنا الأخلاقية، فهل يمكننا التفكير بعقلانية فى المثل الأعلى الأخلاقى على أنه أقل حقيقة من العالم نفسه. وبهذا فقط، نستطيع أن نؤمن بمستوى مطلق عن الصواب والخطأ يكون مستقلاً عن هذا أو ذاك من مُثُل الإنسان الفعلية ورغباته الحقيقية باعتبارها حقائق الطبيعة المادية. والإيمان بالله.. هو الفرضية المنطقية لأخلاقيات "موضوعة" أو مطلقة، والفكرة الأخلاقية لا يمكن أن توجد فى "لا مكان" بأية حال، بل فى "عقل"، ولا يمكن أن يوجد المثل الأعلى المطلق إلا فى "عقل" منه نحصل على كل حقيقة. ومَثَلنا الأخلاقى لا يمكن أن يدعى إلا الصحة الموضوعية طالما كان يمكن النظر إليه بموضوعية على أنه إعلان لمثل أعلى أخلاقى موجود بصفة أبدية فى عقل الله".

وكما أن مذهب الطبيعيين لا يستطيع أن يقدر مشاعرنا الأخلاقية، فهناك مشاكل بشأن التعامل بشكل مُرضى مع ملامح أخرى من عالمنا الداخلى. حيث يرى المسيحيون أن الخطية هى المقابل الروحى والأخلاقى للألم الجسدى. وكما أن الألم الجسدى يحذرنا بأن هناك خطأ ما فى بطوننا أو فى مفاصلنا، هكذا الإثم أيضاً، يُعد دلالة على حقيقة أننا خارجون عن نظامنا التزامن الأخلاقى والروحى. وإنه من غير المستحيل منطقياً بالنسبة لمن يؤمن بهذا المذهب أن يعامل الإثم إلا باعتباره وهماً، أو اضطراباً نفسياً، أو انحرافاً من أى نوع. وما الذى يمكن أن يقوله من يؤمن بمذهب الطبيعيين عن الكلمة اليونانية التى تُرجمت "محبة" فى العهد الجديد - كلمة أجابى agape. وكلمة ايروس Eros (إله الحب عند الإغريق، أُخذت منها كلمة eroticism، وتعنى المحبة الجسدية) يمكن تفسيرها على أساس ما يقوله أنصار مذهب الطبيعيين. ولكن ماذا عن نوعية

بذل النفس فى المحبة (agape) والتى هى واحدة من أعظم أمجاد الحياة؟ ولا يقدر أصحاب مذهب الطبيعيين أن يكونوا عادلين بالنسبة لموضوعات مثل هذه طالما استمروا يفكرون باعتبارهم مناصرين لهذا المذهب.

ووجهة نظرنا العالمية الثالثة هى اختبار الممارسة. هل يطبق أصحاب مذهب الطبيعيين افتراضات مذهبهم فى حياتهم اليومية، دون أن يتعاملوا بعنف مع كل ما نعتبره كملامح أساسية للبشرية؟ ولو كان الناس أنصاراً ثابتين حقاً لهذا المذهب، وكانوا يؤمنون بأن كل شيء فى عالمهم، بما فى ذلك أفكارهم وقيمهم، ما كان سوى نتائج أسباب مادية محتمة، فأى نوعية من الحياة تلك التى كانت ستوجد؟.

وكما لاحظ بعض أنصار المذهب الطبيعى، لا شيء من حيث المبدأ يمنع أحداً منهم من أن يختار، أو أن يعيش عيشة محتشمة، ومحترمة، وفاضلة ومحبة. ذلك أن السؤال الحقيقى هو لماذا يعتقد أى منهم أن من المهم أن تصف وبدقة هذه النوعية من الحياة. ألا يوجد شيء يجعل خيارات النازى خطأ فعلياً، على سبيل المثال؟ هل ندين الناس الذين قاموا بإبادة اليهود ليس سوى لأننا نشعر أن ما عملوه كان فظيعاً؟ وإذا كانت طريقة حياة الناس تحدث فرقاً -وهى تحدث بالفعل- هل هناك شيء فى وجهة النظر العالمية لمعتنقى هذا المذهب يمكنه أن يشرح لنا لماذا ينبغى عليهم أن يعيشوا بطريقة دون أخرى؟ ويبدو من المؤكد أنهم يعيشون تحت توتر مستمر. ونظريتهم تمنع أى لجوء لنوعية القيم التى يعتبرها المسيحيون أساسية للوجود الإنسانى الحقيقى. غير أن ممارساتهم تبين أنهم يعملون شيئاً مغايراً تماماً. ومن ذا الذى بوسعه أن يلومنا إذا انتهينا إلى أنه حين يتعلق الأمر بالحياة، فإن أصحاب مذهب الطبيعيين يقدمون على الغش ويستعيرون نواحٍ من وجهة النظر العالمية المسيحية؟

خاتمة

مذهب الطبيعيين والإيمان المسيحى عدوان طبيعيان فى عالم الأفكار. وإذا كان أحدهما صادقاً، فلابد وأن يكون الآخر زائفاً. ويرفض بعض الناس الإيمان المسيحى لأنهم التزموا التزاماً دينياً لمذهب الطبيعيين ثم وجدوا أن أى اهتمام آخر بالمسيحية مستحيل من الناحية المنطقية (لاحظ كيف يستمر المنطق فى التسلل إلى الصورة). يبدأ آخرون برفض المسيحية لسبب أو لآخر وبعدئذ من الطبيعى أن ينجذبوا إلى مذهب الطبيعيين.

ذكرت فى هذا الفصل أنه من الصعب معرفة كيف أن اختيار مذهب الطبيعيين كوجهة نظر عالمية يمكن أن يكون عملاً حكيماً أو عقلانياً. وهو يشبه بالأكثر عمل إيمان أعمى من جانب أولئك الذين كثيراً ما يبدون أنهم يفتقرون إلى القدرة على تتبع المضامين المنطقية لنظام ذلك الإيمان.

إلا أنه حتى إذا كان مذهب الطبيعيين يشكل وجهة نظر عالمية غير كافية، فإن هذه الحقيقة فى حد ذاتها لا ترسخ وجهة النظر العالمية المسيحية. فالعالم يتبنى الكثيرمن الخيارات الأخرى. ولبس لدينا وقت فى هذا الكتاب إلا لنتفحص واحداً فقط من هذه البدائل الأخرى، وهو ما يُطلق عليه "حركة العصر الجديد The New Age" والتى أصبحت رائجة جداً فى الغرب، ممن وجدوا أن كلا من المسيحية، ومذهب الطبيعى لا يناسبان أذواقهم. ولذلك فلسوف نلقى نظرة بعد ذلك على فكر "العصر الجديد".

الفصل الثامن

حركة العصر الجديد The New Age Movement

أصبح من الصعب أن نتجاهل أو نهمل حركة "العصر الجديد The New Age" وإذا ما أمضى أى شخص دقائق قليلة يستعرض الكتب فى أية مكتبة دنيوية، فلا يمكن ألا يشد انتباهه زيادة المعروض من الكتابات الخاصة بحركة العصر الجديد والتى غالباً ما تكون منتشرة بشكل كبير يطغى على المجموعة الهزيلة للكتب المعروضة تحت عنوان "كتب مسيحية" وهو عنوان يكاد لا يكون له معنى. يصادف المترددون على مكتبات بيع الكتب المسيحية الكثير من التقييمات الانتقادية لحركة العصر الجديد فى جميع أرجاء المكتبة، والكثير منها تجدها بين أكثر كتب الشهر رواجاً. وتلخص (روث توكر Ruth Tucker) رواج فكر حركة العصر الجديد بقولها:

"كانت حركة العصر الجديد-والتى تحمل المعتقدات الجديدة-أكثر الحركات الجديدة انتشاراً وشيوعاً فى السنوات الأخيرة، وهى تركيبة أو توليفة متعددة الاتجاهات بعضها يأخذ من المجموعات الصوفية، والروحانية، والعبادات السرية، وهى فى المقام الأول ليست جديدة. ولقد خُدع كل من المواطنين العاديين والمشاهير على السواء، بهذا الاتجاه الدينى الذى تزداد شعبيته رواجاً".

وقول (توكر) إن حركة "العصر الجديد" ليست جديدة يمثل نقطة جديرة بأن نتذكرها. فكل ناحية من هذه الحركة تكاد تكون إحياءً لملمح من ملامح الوثنية القديمة، أو عنصراً مستعاراً من الضلالات الدينية الحديثة مثل: الثيوصوفية Swedenborgianism، الفلسفة المتسامية، والرومانسية، والعلم المسيحى. و حركة "الفكر الجديد" مختلطة بأشكال مختلفة مع عناصر أخرى من الديانات الشرقية، ويستعمل بعض معلمى العصر الجديد ما يكفى من اللغة والأفكار المسيحية لإرباك المسيحيين غير الراسخين.

وكثيرون من المدافعين عن "العصر الجديد" يدركون تماماً أبعاد وجهة النظر العالمية لتلك الحركة. وهذا ظاهر -على سبيل المثال- فى الإشارات المتكررة إلى لغة "عصر برج الدلو"، والتى تعكس الاعتقاد بأن تفكير حركة "العصر الجديد" يشكل طريقة جديدة للنظر إلى الأمور (وجهة نظر عالمية)، التى صُممت بشكل خاص لتحل بدلاً من وجهات النظر العالمية التى أُبطلت مثل الإيمان المسيحى.

ومن الصعب على أى شخص تمرس على تفكير وجهة النظر العالمية أن يكوّن مفهوماً واضحاً عن العناصر الرئيسية لمفهوم "حركة العصر الجديد". وهذا يشبه محاولة التقاط حفنة من الرمل على شاطىء البحر. فكلما ضغطت بشدة على الرمل فى قبضتك تسرب من بين أصابعك. وأخيراً لا يتبقى شىء فى يدك، ووضوح الفكر وتماسكه سمتان لا تتوافران فى المدافعين عن "حركة العصر الجديد".

نقطة بداية محتملة:

أين هو أفضل مكان نبدأ منه بحثنا لفكر حركة "العصر الجديد"؟ يقدم (ج. جوردن ميلتون J. Gordon Melton)، مؤلف "موسوعة العصر الجديد" -نقطة بداية- وهى انطباعه الشخصى العميق، كما أنه يعرض الخبرة الصوفية لحركة العصر الجديد، والذى يبدو أنها تحوِّل أتباع "حركة العصر الجديد" إلى أناس مختلفين، ويوضح (ميلتون) هذه النقطة بقوله: اختبر أتباع "حركة العصر الجديد". (أو أنهم يسعون إلى هذا الاختبار

باجتهاد)-تغييراً شخصياً عميقاً وتحولاً من حياة قديمة غير مقبولة، إلى مستقبل جديد ومثير. ومن بين الأمثلة البارزة لهذا التغيير هو موضوع الشفاء، الذي يعتبر أكبر إنجاز حققته الحركة، ويمكن تعريفه "بحركة الصحة الدينية".

وما أن اجتاز أتباع "حركة العصر الجديد" تجربة التغيير هذه، إلا وادّعى كثيرون أن تجربة مماثلة، لم تقتصر على تغيير أفراد آخرين فحسب، بل غيرت أيضاً مجتمعهم وثقافتهم. بل وإن البعض يحلم أن اختبار تغيير مماثل يمكنه أن يغير الجنس كله.

واختبار "حركة العصر الجديد"، والتغيير الذى صاحبه هو أكثر من أن يكون طابعاً نفسيا واجتماعياً. ويصر أتباع هذه الحركة على أنه بصفة أساسية "دينى" فى طبيعته. وكلمة "روحى" مرادف مقبول. وبغض النظر عن الكلمات المستخدمة "تتركز الحركة على اختبار تغيير شخصى روحي -نفسى يماثل لما يُوصف على وجه العموم بأنه اختبار روحى". وتمثل نوعية هذا الاختبار العنصر الوحيد الذى يشترك فيه كل أتباع حركة العصر الجديد. ولسوف يرى المسيحيون فى الحال أن اختبار التغيير الذى يرغب فيه أنصار هذه الحركة يشابه بوضوح اختبار الولادة الجديدة، وهذه حقيقة تفسر السبب فى أن أتباع هذه الحركة يكونون على هذا القدر من مقاومة الكرازة المسيحية. فلماذا يحتاجون إلى "الولادة الجديدة" مع أن وجهة نظرهم العالمية المختلفة تماماً أعطتهم بالفعل اختبار التغيير الخاص بهم؟

يُقال إن اختبار حركة العصر الجديد يتضمن خلاصاً من السلبيات التى تشوب مظاهر الحياة المختلفة بما فيها "أحوال الاختلال الوظيفى، والاستغلال، والفقر، والمرض، والضجر، والافتقار إلى الهدف، وفقدان الأمل. وثمة تأثير سلبى آخر أُنقذ منه أتباع هذه الحركة وهو ما يطلق عليه (ميلتون) نوعيات من أنماط الفكر التقليدى ثقيل الوطأة، الذى يحتل مكانة بارزة فى المسيحية. وبدلاً من هذه السلبيات، يجد تلميذ هذه الحركة "انفتاحاً جديداً" وعلاقات مساواة جديدة مع إحساس بالوفرة، واستعادة الحيوية والصحة، والإثارة، والقوة، والمعنى الجديد، والمستقبل الجديد.

قد تكون هذه الأمور كلها جذابة جداً بالنسبة للغافل والمتهور. وهذا الاختبار الذى يماثل اختياراً ديناً مسيحياً قد جُعل أكثر قوة حين عُرف أن اختبار التغيير الذى يسعى إليه أعضاء حركة العصر الجديد يتخذ صيغة اختبار صوفى عميق. ومثل هذا الاختبار كثيراً ما يتضمن بحثاً روحياً شاقاً ومطولاً ينتهى إلى أزمة شخصية. ومع ذلك، فإنه من المهم أن نضيف أن الاختبار الصوفى المثير لبس عاماً بين أتباع حركة العصر الجديد. ويقولون إن تغييرهم غالباً ما يتم ببطء أكثر، وبإثارة أقل فيما يتبعون ببساطة إجراءات أوصت بها الحركة مثل: التأمل، استعمال البلورات، والبحث عن الشفاء الجسدى أو النفسى أو كليهما، أو ببساطة نتيجة اشتراكهم فى ملتقى حول فكر "العصر الجديد".

واختبار التغيير لا يمثل النهاية، بل بداية سلسلة طويلة من اختبارات إضافية ومساعٍ تظهر فى سبل عديدة متباينة.

دور المعتقدات فى فكر حركة العصر الجديد

وأملنا فى أن توجد مجموعة محددة من معتقدات حركة العصر الجديد يقويها ادعاء (ميلتون) "إن الحركة تمتلك بالفعل إطاراً أيديولوچياً معروفاً، وأن الأعضاء يشتركون بالفعل فى مجموعة عامة من المعتقدات. إلا أن (ميلتون) يريد أن يوجه لطمة للمسيحية فيقول: إن أتباع حركة العصر الجديد يرفضون ما يعتبرونه "معتقدات تقليدية ثقيلة الوطأة وأوامر يفرضها الإيمان. وفيما تشدد المسيحية على أهمية قبول مجموعة معينة من المعتقدات، وتقاوم التغييرات فى معتقداتها الرئيسية، وتتشكك فى الذين يؤيدون هذه التغييرات، نجد أن "معتقدات العصر الجديد" تظل طيعة إلى أقصى حد، وتطويرها يأخذ طابع الاستمرارية. وبعبارة أخرى ربما قد لا يكون هناك شيء يعتبر زائفاً أو غير مقبول بالنسبة لمعتنقى مذهب "العصر الجديد". وما قد يُعد معتقداً هاماً بالنسبة لهذا الشخص فى هذه اللحظة، يمكن أن يُستبدل، وربما بعقيدة مناقضة.

ويضيف (ميلتون) أنه مهما كانت المعتقدات هامة فى هذه اللحظة إلا أنه كان يُنظر إليها على أنها أقل أهمية من اختبارات أتباع العصر الجديد. واختبار معتقدات هذا العصر هى برجماتية خالصة، من ناحية المدى الذى تكون فيه "عاملة ونافعة". أما الشيء الدائم فى معتقدات "العصر الجديد" فهو أسلوبهم التجريبى، وهذه النوعية من التفكير -وهذا ما لا يدعو إلى الدهشة- له تداعيات بالنسبة لوجهة نظر العصر الجديد عن الحق. ذلك أن أتباع هذه الحركة يعتقدون أن "**الحق**" يقع بطريقة ما خارج حدود معرفة الإنسان ولغته، وهو أمر لا يمكن التعبير عنه إطلاقاً بلغة البشر.

ويعتقد أتباع "حركة العصر الجديد" أن هناك وسائل عديدة للوصول إلى "**الحق**"، وهذه تُميز بفعاليتها بأكثر مما تُميز بصحتها. ولم يبال (ميلتون)، على الرغم من ذلك، بالمشكلة التى خلقها هنا. وبالنظر إلى أن الناس -كما سبق أن اعترف- لا يمكنهم أن يعرفوا إطلاقاً ما هو "**الحق**"، فكيف يمكن أن يكون هناك احتمال لأن يعرفوا ذلك حين تجعلهم أية ممارسة أو معتقد أكثر قرباً من "**الحق**"؟ ألا ينبغى على الإنسان أن يعرف **الحق**، قبل أن يتمكن من معرفة أنه قد وصل إليه؟ غير أنه إذ ترك (ميلتون) هذه المشكلة الخطيرة جانباً إلى حين، فقد واصل كلامه قائلاً: "وعلى ذلك، فإن قبول أية وسيلة إلى "**الحق**"، كديانة مثل المسيحية مثلاً، إنما هو موضوع اختيار وسيلة مفضلة من بين كثير من الخيارات المتساوية والمناسبة، أكثر منه اكتشاف الوسيلة الوحيدة الأفضل والأصح. وهناك كلمات عديدة تلخص تعليم (ميلتون) عند هذه النقطة، من بينها: "النسبية" و "التعددية". ولسوف أعود إلى نوعيات الإدعاءات التى أُشير إليها فى هذه الفقرة.

وخلاصة القول، إن أتباع حركة "العصر الجديد" لديهم بالفعل نظام للإيمان. إلا أنهم يسرعون إلى القول بأنهم غير ملزمين على الإصرار بأن معتقداتهم صحيحة. والواقع أنهم يجاهرون بالقول إن الدينى/ الروحى فى أفضل الحالات ما هو إلا واحد من بين طرق ممكنة كثيرة للوصول إلى "**الحق**". إلا أنه إذا ما أخذنا فى الاعتبار أنه لا سبيل إلى معرفة "**الحق**"، فإنه من الصعوبة أن نعرف كيف يكون بوسع أى إنسان أن يعرف أنه وصل إلى "**الحق**"، أو حتى يخمن أنه على الطريق الصحيح. غير أنه بالنظر إلى أن أى طريق يُعد حسناً مثل أى طريق آخر، فإن هذا لا يجب أن يمثل مشكلة فى النهاية، باستثناء ما يبدو أنه إدعاء متناقض بأن بعض

الطرق أفضل من الأخرى، وأن -وهذا ما هو أسوأ- بعض الطرق قد تكون خطيرة تماماً.

تصنيف لمعتقدات حركة العصر الجديد

على الرغم من أن النقاط التي أثيرت في الفقرة السابقة تبدو أنها تقترح أن "كل" معتقد من معتقدات العصر الجديد هو أمر اختياري، وليس حقيقي بالمعنى التقليدي لكلمة "حقيقي" ولا تكون له آية قيمة إلا بحسب قدرته على أن يأتي بمن يعتنق حركة العصر الجديد إلى خبرات معينة، إلا أن نظرة سريعة على أية قائمة بمعتقدات العصر الجديد توحي بجوهر مشترك يتضمن كثيرا من المعتقدات غير الاختبارية. وعلى أية حال، إذا تخلى أي أحد من أعضاء هذه الحركة عن كثير من المعتقدات التي سوف نذكرها أو عن غالبيتها، فلن يكون بعد عضواً فيها.

تناسخ الأرواح والكرما[1]

وكما سبق ورأينا، فإن هدف العصر الجديد هو أسلوب حياة يؤدي إلى تغيير شخص، ليس فقط في اختبار أولي، وليس فقط طوال عمر بأكمله، بل على مدى وجود الروح بأكمله، والذي يشمل كثيراً من التناسخات. وبالنظر إلى أنه ما من طريق للنمو والتنمية الروحية "لا يمكن أن يُستكمل أثناء عمر واحد"، فمن ثم يقول (ميلتون): "إن الاعتقاد المشترك في تناسخ الأرواح والكرما يقدم إطارا طويل الأمد نرى فيه التقدم الروحي الفردي. والأفراد سيحققون تنميتهم الأخلاقية والروحية، فيما يعيشون حتى النهاية عواقب أعمالهم السابقة، من هذه الحياة، ومن كل حياة سابقة، على فترة تتكون من أعمار متعاقبة في جسد مادي.

وإنه لمن الصعوبة أن تجد أي معتقد للعصر الجديد يمكن التمسك به بكل حرارة وحمية بأكثر مما هو الحال بالنسبة لهذا المعتقد. ويقول (ميلتون) أن بعضاً من هذا الارتباط الحماسي بهذا التعلم جاء نتيجة القوة التي أُنكرت بها المعتقدات المسيحية بالنسبة لما بعد هذه الحياة من قبل أولئك الذين آمنوا حديثاً بحركة العصر الجديد. وفضلاً عن ذلك، فإنه ما أن ينكر شخص وجهة نظر عالمية، التي فيها وجود الإنسان يتضمن علاقة مع إله شخصي، فإن النظريات المتعلقة بتناسخ الأرواح والكرما تقدم "تفسيرات" لكثير من سلبيات الحياة وتبايناتها. فنحن فيما نحن فيه الآن، بسبب أمور حدثت لنا في عجلة الوجود السابقة غير الشخصية.

ووجهة النظر الدائرية للتاريخ والوجود الكامنة وراء الاعتقاد بتناسخ الأرواح والكرما كانت مصدراً لمفكرين قدامى مثل أفلاطون، وأرسطو، والرواقيين. ووجهة النظر الدائرية بالنسبة للتاريخ، وتناسخ الأرواح والكرما، كانت من العناصر الضرورية لعديد من الديانات الشرقية. والعهد الجديد واضح في معارضته لهذا التفكير بأكمله. وكما توضح الرسالة إلى العبرانيين، فقد استبدلت المسيحية وجهة النظر الوثنية التي تقول بدوران التاريخ وذلك بوجهة نظر تخطيطية. التاريخ لا يكرر نفسه، والتاريخ له بداية ونهاية. والمسيح مات

---

[1] النتيجة الأخلاقية الكاملة لأعمال المرء في طور من أطوار الوجود بوصفها العامل الذي قدر ذلك المرء في طور تناسخي تال (المترجم).

"مرة" من أجل خطايا العالم. والبشر لا يعيشون سوى مرة واحدة. فقد "وضع للناس أن يموتوا مرة ثم بعد ذلك الدينونة" (عب ٩:٢٧).

طاقة عالمية أم قوة

تفترض حركة العصر الجديد وجود "قوة أساسية" يُشار إليها بأسماء كثيرة ومختلفة، ويُعتقد أنها تسبب شفاءً نفسياً وبدنياً. وكما يوضح ميلتون وجهة نظر العصر الجديد فيقول: "يفترض أعضاء حركة العصر الجديد وجود قوة أساسية تختلف عن أكثر أشكال القوة المعروفة (الحرارة، الضوء، الكهرومغناطيسية، الجاذبية، إلخ) والتى تدعم وتتخلل الوجود كله" يُعتقد أن التأمل والعلاجات البدنية تطلق هذه القوة. وهذه هى القوة التى تمر بين شخصين متحابين.

الوعى الأسمى

يسعى أعضاء حركة العصر الجديد وراء معرفة صوفية يطلقون عليها أحياناً "الوعى بالمسيح". ومن المهم تذكر أن "المسيح" الذى يشير إليه أعضاء هذه الحركة ليس هو مسيح العهد الجديد. فالمسيح عندهم ليس الشخص الإنسانى- الإلهى الذى نقابله فى الأناجيل، بل هو مبدأ كونى. فيسوع التاريخى -بحسب اعتقاد أعضاء هذه الحركة- هو بكل بساطة واحد من معلمين كثيرين من أمثال (جوتاما بوذا)، والذى ساعدت تعاليمه على ظهور حركة العصر الجديد.

الله:

كثيرون من أعضاء حركة العصر الجديد -وليسوا كلهم- من معتنقى مبدأ وحدة الوجود. وهذا معناه أنهم يؤمنون أن كل شيء هو واحد، وأن هذا الواحد الجوهرى هو الله.

"ما أن نبدأ فى معرفة أننا جميعاً الله، وأنه لدينا كلنا سمات الله، حينئذ أعتقد أن غرض حياة الإنسان كلها هى إعادة امتلاك شبه الله فينا: المحبة الكاملة، الحكمة الكاملة، الفهم الكامل، الذكاء الكامل. وحين نفعل هذا، نعود ثانية إلى تلك الوحدة التى لابد منها، ألا وهى الوعى.

وعلى هذا الأساس، فكل البشر هم فى الواقع آلهة. ومع ذلك، فليس ما يدعو إلى الدهشة أن معظم البشر يجهلون أنهم متساوون مع الله، ويجهلون حقيقة أنهم عاشوا قبل هذه الحياة، وأنهم سيحيون بعد هذه الحياة.

وبالنظر إلى أن كل شيء يرتبط بالآخر فى إطار وجود نفس الجوهر الواحد، فهذا معناه أنه فى النهاية لا يوجد فرق بين الله، أو الفرد أو الجزرة أو الصخرة. فكلهم جزء من حقيقة واحدة مستمرة ليس لها حدود أو تقسيمات أساسية. وأية فروقات تُرى بين كيانات منفصلة -بين "چوا" و "چودى" أو بين "چو..." و "شجرة"، أو بين "الله" و "چودى"-ما هى إلا فروق ظاهرية وليست حقيقية.

والمسيحيون الكتابيون لا يوافقون على هذا. فكل شيء ليس واحداً. وهناك فرق جوهرى بين الخالق العظيم كلى القدرة والعالم المحدود المتكل عليه، والذى يدين بوجوده لخلق الله له. كما يعارض المسيحيون

أيضاً عقيدة وحدة الوجود ، فكل شيء ليس هو الله.

ومن المهم أن نلاحظ أن بعض فصائل حركة العصر الجديد تعارض مذهب الأحادية ووحدة الوجود ، ويؤيدون نوعاً من الثنائية تعود إلى فكر الغنوسية القديمة. ووجهة النظر الثانية هذه عن الأشياء تفرّق بين عالم الروح الذى هو خير ، والعالم المادى الذى هو شر.

وجهة نظر العصر الجديد:

وعوض أن نواصل هذا الفحص المفصل لمعتقدات حركة العصر الجديد ، فإنه لمما يوفر الوقت ويسهل الفهم أن تُقدم هذه المعتقدات فى شكل جدول مبسط يبين الفرق بين هذه المعتقدات ووجهات النظر العالمية لكل من المسيحية والمذهب الطبيعى.:

	مذهب الطبيعيين	العصر الجديد	المسيحية
الله	الله ليس له وجود والإيمان به جاء وليد الخرافات	الإيمان بوحدة الوجود. الله ليس إله شخصى، هو فوق الخير والشر. كل شئ هو الله	الله هو الثالوث الأقدس، الأبدى، وهو إله شخصى، قادر على كل شئ، السيد، كلى المعرفة، المحب العادل الخالق القدوس.
الغيبيات	النظام الطبيعى أبدى مكتف بنفسه وغير مخلوق. وهو فى الأساس مادة/ قوة الحس التجريبى	العالم إلهى	العالم خلقه الله
المعرفة	الاختبار الحسى للإنسان، الطريق العلمى	الحق يوجد داخل كل إنسان، ويمكن الوصول إليه من خلال حالات الوعى الصوفى أو التأملى.	الحق له ناحية موضوعية، وهو مستقل عن رغبة الإنسان، ووجهة النظر الوظيفية للحق زائفة. والإنسان يستطيع أن يعرف لأن الله خلقه كمخلوق عاقل.
الأخلاقيات	الأخلاقيات مسألة نسبية	الأخلاقيات أمر نسبى	الأخلاقيات ليست أمراً نسبياً. والناموس الأخلاقى متأصل فى وجود الله

	مذهب الطبيعيين	العصر الجديد	المسيحية
البشر	البشر هم حيوانات تطورت تطوراً تاماً	البشر كائنات روحية، وهم آلهة	البشر مخلوقات على صورة الله
مشكلة البشر الأساسية	الخرافات والجهل	الجهل بحقيقة إمكاناتنا البشرية	خطاة تمردوا على الله
حل مشكلة البشر	التقدم العلمى والتكنولوچى	الارتقاء بالوعى	الخلاص بالإيمان بعمل المسيح التام الذى يغير الطبيعة البشرية.
الموت	نهاية وجود البشر	وهم وخرافة، الدخول إلى الحياة التالية (تناسخ الأرواح)	نهاية حياتنا الأرضية، السماء للمؤمنين، والدينونة الأبدية لغير المؤمنين.
يسوع المسيح	مجرد معلم من البشر	واحد من المعلمين الكبار الذين ظهروا على مدى التاريخ	التجسد الفريد لله، السيد والمخلص الوحيد

لم تُذكر هنا ملامح كثيرة من فكر حركة العصر الجديد، إلا أن هذا الجدول يعطينا فكرة واسعة عن وجهة النظر العالمية لحركة العصر الجديد. ومن الجلي أن أفكار هذه الحركة تتعارض مع المعتقدات المسيحية الرئيسية جملةً وتفصيلاً. كما أنها تتناقض مع المذهب الطبيعي. وفي عملنا التالي سنرى مدى موقف وجهة النظر العالمية هذه بالنسبة للاختبارات التي يجب أن تقيّم على أساسها أية وجهة نظر عالمية.

حركة العصر الجديد واختبار منطق العقل:

تواجه حركة العصر الجديد مشكلة منذ البداية. فوجود نبي أو معلم في هذه الحركة والذي يكون أيضاً مناصراً لقانون عدم التناقض سوف يكون عملة نادرة في الواقع. فكونك عضواً في هذه الحركة يرادف الاعتقاد بأن أهم نوعيات الوعي الإنساني تسمو على قوانين المنطق. ولا يصر أعضاء هذه الحركة فقط على معاملة خاصة لحالات الوعي التصوفي التي تقوم بدور كبير في حركتهم، بل إن تجاهلهم لقوانين المنطق أمر جلي أيضاً في النسبية التي يدافعون عنها في مجالات المعرفة الإنسانية (المعرفة) والسلوك (الأخلاقيات).

هنا، أشير على القارىء بالرجوع إلى مناقشتي ودفاعي عن قانون عدم التناقض في الفصل الرابع. وهذا القانون بكل بساطة ليس موضع اختبار، فهو ليس شيئاً لك أن تقبله أو ترفضه. ذلك أن مبدأ عدم التناقض هو قانون للفكر والوجود لا مفر منه. فعضو حركة العصر الجديد إما أنه يستخدم القانون حين يتكلم ويكتب، وإما أنه لا يفعل ذلك. وإذا لم يكن يفعل ذلك فلابد وأن تأتي دعاواه غير مفهومة. فعلى سبيل المثال، حين يقول إن كل شيء واحد، فالكلمة "واحد" لابد وأن يكون لها معنى محدد يستبعد أية تكملة لها. ومن المؤكد أن معلمي حركة العصر الجديد، يتصرفون كما لو أنهم وكل شخص آخر يمكنهم أن يعرفوا ما يقصدونه. وعلى صعيد آخر، إذا كان عضو حركة العصر الجديد يستخدم بالفعل قانون عدم التناقض حين يتكلم أو يكتب، فإن ازدراءه للقانون حين يتفق هذا مع أهدافه يكشف عن الطبيعة التحكمية لإدعاءاته.

ويركز كل من (داڤيد كلارك David Clark)، (ونورمان جيزلر Norman Geisler) على نقطة الضعف الخطيرة هذه التي تعيب فكر حركة العصر الجديد. وقد كتبا: "إن الموضوع الخطير في تناول تفكير حركة العصر الجديد، هو مقتها الشديد للعقلانية". ثم أشار كل منهما إلى أن أعضاء تلك الحركة يقاومون النهج المفاهيمي والإثباتي والتحليلي للديانة والإيمان. إلا أنهم يدركون في نفس الوقت أن كل تفاعل له معنى بين شخصين مفكرين يتطلب أرضية مشتركة يمكن أن تقوم عليها المناقشة... والقواعد الأساسية للعبة يجب أن تتضمن مبادىء عقلانية تحدد ما يقبله الشخصان كحقيقة، ومن الذي تستند أفكاره على دليل، وتُعد منطقية".

ويواجه أعضاء هذه الحركة مشاكل أخرى كثيرة مع قوانين المنطق، على سبيل المثال، التنافر المؤسف الذي يكشفون عنه في تناولهم لكلمة "الله". سبق أن ذكرنا سابقاً واحداً من معلمي حركة العصر الجديد وهو يشير إلى خصائص الله. وبعبارة أخرى، يعتقد أعضاء هذه الحركة أنهم يعرفون ما فيه الكفاية عما يسمونه "الله" بحيث يستطيعون أن يميزوا بين إلههم وبين النظريات المضللة أو الزائفة عن الله، وأن مثالهم المفضل هو المسيحية. وقبل أن يستطيع أحد أن يعرف ما ليس هو الله، عليه أن يعرف أولاً ما هو الله. إلا أن إله حركة

العصر الجديد -وهذا ما يتعين علينا أن نتذكره- يسمو على كل النوعيات البشرية المعتادة. وإلههم -على سبيل المثال- فوق الخير والشر. والمشكلات التى تكتنف مثل هذا الرأى هى مشكلات خطيرة. ويوضح (كلارك جيزلر) الأمر بقولهما :

... إذا كان الله كلمة لا يمكن أن يُعزى إليها أى مفهوم، إذاً لا يكون هناك معنى لله. وفكرتنا عنه تصبح لا شكل لها ولا هيئة.. وإذاً فإن الله ليس له أى شكل معرفى على الإطلاق، فلا يوجد معنى للقول عن الله إنه صالح أو شخصى، أو أى شىء آخر. ومع ذلك فإن بعض المؤمنين بوحدة الوجود يتحدثون فى اللحظة التالية عن الله بطرق مختلفة. وإنه لأمر متناقض أن تنكر مفاهيم عن الله فى آونة، وفى آونة أخرى نتحدث عن الله كما لو كان لدينا بعض الأفكار ذات المغزى عن ما يعنيه الله... إنه لمن الجور بالنسبة لمن يؤمن بوحدة الوجود أن ينكر أى مفهوم له مغزى عن الله ثم يستخدم الكلمة بسلب المعنى من فكرة من يؤمن بمذهب التوحيد".

وما يشير إليهَ الكاتبان هو حقيقة أن أعضاء حركة العصر الجديد يناقضون أنفسهم: فإذا كان الله فوق مستوى معرفة البشر وأفكارهم، هنا لا يكون بوسعنا أن ننسب إلى الله أية صفات ذات معنى على الإطلاق دون أن نناقض أنفسنا. ويؤكد مناصرو حركة العصر الجديد أن الله فوق معرفة البشر، وعلى الرغم من ذلك يواصلون الحديث عنه بضمير المفرد الغائب المذكر أو المؤنث أو العائد إلى الجماد، كما لو كانوا يعرفون ما يتحدثون عنه.

وهناك تناقض خطير آخر نجده فى نظرية المعرفة النسبية التى تسود فكر حركة العصر الجديد -وتعكس (شيرلى ماكلين Shirly Maclaine) هذه النسبية بقولها إن "كل واحد لديه حقه، والحق، كواقع موضوعى، ليس له وجود. وسبق أن لاحظنا فى موضع سابق من هذا الفصل قناعة هذه الحركة بأن كل الطرق الروحية تؤدى إلى نفس الهدف. وحتى وإن كانت هذه الطرق المختلفة تبدو متنافرة، إلا أنها فى الواقع ليست كذلك. إلا أنه ما من تلميذ فى حركة العصر الجديد يعتقد حقاً أن كل الطرق متساوية، وكلهم يرفضون على الأقل طريقاً روحياً واحداً، وهو المسيحية الكتابية. وإذا كانت بعض الطرق -كما يحذر أحد معلمى حركة العصر الجديد - قد تكون خطيرة على أقل تقدير، ألا يُستشف من هذا أن بعض الطرق خاطئة؟"

وفى الختام، يشير (روجر ألسون Roger Olson) إلى "أن الإنسان يجب أن يتساءل ما إذا كان أى طريق يؤدى إلى القمة، أو ما إذا كانت "قمة الجبل" -الحق- تطفو بحرية فى السحاب، ولا يمكن الوصول إليها إلا بالتنوير الصوفى أو الرسائل الموجهة. والنسبية العزيزة جداً إلى قلوب حركة العصر الجديد تعانى من تناقضات خطيرة. ويقول (ألسون). "على الرغم من الإنكارات المغرية للحق الوحيد، إلا أن معظم أنصار هذه الحركة يعتقدون أن كل وجهات النظر العالمية الأخرى، والنظرات الإيمانية هى فى أساسها معيبة، فى حين أن وجهة نظرهم هى الحكمة الخالصة من "المعرفة السامية"، والتى تسمو على القبول العقلى أو النقد".

وما من أحد على معرفة بالرسالة المسيحية كلها بمقدوره أن ينكر المكانة الرئيسية التى تعطيها المسيحية

للاختبار الدينى الداخلى، من ناحية توجيه النفس إلى الله، وإلى الكمال الداخلى. غير أن المسيحية توصلت إلى كل هذا وأكثر، دون إنكار العقل والمنطق، وفيما نجحت المسيحية فى اختبار العقل، فإن فكر العصر الجديد لم ينجح.

حركة العصر الجديد واختبار التجربة:

وبغية اختصار مناقشة طويلة، لن أذكر سوى طريق واحد سقط فيه العصر الجديد فى هذا الاختبار. فحركة العصر الجديد من المحتمل أنها لا تستطيع أن تكون عادلة بالنسبة لموضوعات نتجت عن اختبارنا للشر والمعاناة. وميل هذه الحركة إنما هو إلى إنكار حقيقة هذين الأمرين. وفى كتابها "الرقص فى النور" تنكر (شيرلى ماكلين) وجود الشر. "كل شىء فى الحياة جاء نتيجة التنوير أو الجهل. فهذان هما التناقضان الكاملان، وليس الخير والشر. وإذا أخذنا فى الاعتبار الافتراض الرئيسى لفكر حركة العصر الجديد، فإنهم ممنوعون -بدعوى عدم التناقض- من دراسة الشر بطريقة واقعية. فإذا كان الله هو الكل، وإذا كان الله يشمل كل شىء، فإن كيان الله (أياً كان) لابد أن يتضمن الخير والشر، وبهذا طمسوا أى فرق بينهما. والمسيحية التاريخية لا تتجاهل أو تتلاعب بمواجهتنا بالشر والمعاناة، فتلك مواجهة ليس منها مهرب.

حركة العصر الجديد واختبار الممارسة:

يعتقد البعض أن حركة العصر الجديد يمكنها أن تصمد فى اختبار الممارسة. على أية حال، لدينا شهادات لا حصر لها من معتنقى هذه الحركة يخبروننا كيف أنهم تخلصوا من هذه السلبية أو تلك، وكيف أُنقذوا من السأم أو الإجهاد، وكيف أنهم رُفعوا إلى مستوى أعلى من الوعى، وفيما كانوا قبلاً فاشلين فقد أصبحوا الآن ناجحين.

غير أن هناك شيئاً مثيراً جداً يندس هنا هو كيف يمكن لأحد أن يكون على يقين من أن التغييرات التى يراها فى حياته هى تغيرات إلى الأفضل؟ فالتقدم والتحسن يجب أن يُقيما على أساس مقياس معيارى، وبهدف موضوعى ومعترف به. وما من أحد فى حاجة إلى إنكار أن الكثيرين من أتباع العصر الجديد مختلفون عما كانوا عليه فى السابق. ولكن هل هم أناس أفضل؟

وما أود أن أصل إليه هو موضوع ما إذا كان لحركة العصر الجديد أخلاقياتها. فهم يتكلمون عن قيم مثل "السماويات" والكوكبات الأمر الذى يبدو أنه يعكس اهتماماً بالإنسان والقيم الإنسانية. ولكن هذا كل ما فى الأمر- مجرد واجهة وحسب. فتفكير حركة العصر الجديد يفتقر إلى أية معرفة بالدور الضرورى الذى تقوم به المعايير الأخلاقية الموضوعية الشاملة فى السلوك الإنسانى الصحيح. هل علىّ واجبات نحو إخوتى وأخواتى فى المجتمع العالمى؟ وما هى هذه الواجبات؟ ومن أين جاءت؟ وإذا كانت نسبية كما يتحدث عنها أتباع حركة العصر الجديد، فلماذا يتعين علىّ القيام بهذه الواجبات؟ وهل يتوجب على البشر بالفعل أن يقولوا الحق؟ وهل ينبغى عليهم حقاً أن يوفوا بوعودهم؟ وما هى أسس هذه الالتزامات الأخلاقية؟

ومن أهم ما يستطيع المسيحيون أن يعملوه للشهادة لأصدقاء انخرطوا فى حركة العصر الجديد أن يساعدوهم على إدراك أن لكل إنسان قدرة محدودة فى احتماله للآخرين. ادخل فى حوار مع أصدقائك الذين ينتمون إلى هذه الحركة عما يعتقدونه ويعملونه إذا ما قام شخص آخر (هو فى اعتقادهم إله مثلهم) واقتحم بيتهم، وسرق ممتلكاتهم. ألا توجد لحظة يمكنهم أن يصرخوا فيه قائلين "توقف"

وما أريد قوله هو أن النسبية الغافلة التى يتبناها أتباع حركة العصر الجديد، سوف تتصادم إن آجلاً أم عاجلاً مع القيم الإنسانية الأساسية، فحين يعتزم شخص إيذاء شخص تحبه لن تجلس غير مبالٍ وتتمنى لو أنه بطريقة ما قد بلغ حالة من الوعى ذى المستوى الأعلى. فالخير والشر ليسا أمرا واحداً، ولسوف يجد كل إنسان نفسه فى النهاية فى مواقف لا يمكن معها أن يعيش كما لو كانا لا يختلفان. وما أن ندرك أن الخير والشر مختلفان، وأن الصواب والخطأ مختلفان، نكون قد بدأنا السير على الطريق الصحيح لإعادة المنطق إلى حياتنا.

خاتمة:

ما هو موقف حركة العصر الجديد فى معركة وجهات النظر العالمية؟ يمكن لمن هم خارج دائرة هذه الحركة أن يجيبوا على هذا السؤال بأسهل ما يستطيعه من هم فى داخلها. وبالنظر إلى أن أتباع المذهب الطبيعى لا يجحدون المنطق، فإنه من الممكن على الأقل من ناحية المبدأ أن تتحاور معه. غير أنه ما أن يظن أحد أنه قد عبر الخط إلى مرحلة أعلى من الوعى، فإن أى كلام من أى شخص على الجانب الآخر سوف يُرفض تلقائياً باعتباره همهمات شخص غير مستنير.

وما الذى يمكن أن يحمل أناساً متعلمين وواعين أن يتجاهلوا الجذور الوثنية لممارسات حركة العصر الجديد؟ هل من الممكن أن أعضاء هذه الحركة يجهلون أن حركتهم ترتكز على نظم سابقة مثل الثيوصوفية والروحانية؟ أليس بوسعهم أن يدركوا كيف أنه من المستحيل أن يتصرفوا ويفكروا كبشر دون استخدام قواعد المنطق والأخلاقيات التى ينكرونها بشكل متضارب؟ إلا أنه من حسن الطالع، فى معركة الأفكار العالمية هذه، أن لدى المسيحيين أكثر من اختباراتهم الخاصة لمواجهة الخبرات الغامضة لأتباع حركة العصر الجديد. كما أن المنطق أيضاً فى جانب المسيحيين. والمسيحيون بمقدورهم أن يعيشوا طبقاً لما يؤمنون به، لأنهم على النقيض من أتباع الحركة المذكورة ليسوا مضطرين للتضحية بالمنطق على مذبح التغيرات الدينية، أو بأى من المبادىء الاسترشادية الضرورية للحياة على مذبح نسبية الأخلاقيات والمعرفة.

الفصل التاسع

التجسد والقيامة

كثير مما قلته حتى الآن كان يهدف إلى إيضاح أن تلك الهجمات المتنوعة على معقولية الإيمان المسيحى قد فشلت. وإنى لعلى ثقة من أنه من الواضح أيضاً كيف أن نوعية وجهة النظر العالمية التى سنتناولها هنا تعمل على بناء حجة قوية إيجابية تدعم إيماننا. ومع ذلك، يجب على المؤمنين أن يكونوا مستعدين إن عاجلاً أم أجلاً لأن يقيموا الحجة لصالح اثنين من التعاليم المسيحية الرئيسية وهما: التجسد (بما فى ذلك القول بأن يسوع المسيح إله وإنسان)، وقيامة يسوع المسيح. وإذا ما تبين أن أحدهما زائف، فإن وجهة النظر المسيحية العالمية سوف تعانى من ضربة مميتة. ونحن فى حاجة إلى أن نفهم كيف أن الحجة بالنسبة لهاتين العقيدتين قوية راسخة.

التجسد:

يستخدم المسيحيون كلمة "تجسد" للتعبير عن اعتقادهم أن ميلاد يسوع المسيح يمثل دخول ابن الله الأبدى القدوس إلى جنس البشر. فلم يكن يسوع مجرد إنسان. بل وليس من الصواب القول أن يسوع المسيح كان "يشبه" الله فحسب. والوضع المسيحى التاريخى هو أن يسوع المسيح هو إله كامل، وإنسان كامل.

عقيدة التجسد هى من بين المعتقدات التى تجعل المسيحية فريدة بين ديانات العالم. ويعتقد المسيحيون أن الإله العظيم مثلث الأقانيم الذى لا يمكن أن يُعرف إلا فى حدود مايسمح هو بإعلانه عن نفسه، أعلن نفسه لنا بأكبر طريقة مباشرة ومفهومة، وذلك بأن حل بيننا كواحد منا، وشاركنا حياتنا، بعلوها وعمقها، بأفراحها وأتراحها. ولقد فعل ذلك بدافع محبته للبشر.

وهناك طريقة مفضلة لتناول هذه العقيدة تقترح علينا أن نتعرف ونحلل بدقة كلَّ البدائل المعقولة (على الأقل معقولة مبدئياً) للمفهوم المسيحى التقليدى عن يسوع. وبتلك الطريقة يمكننا أن نقيم المعقولية النسبية لكل بديل حين نقارنه بالاعتقاد بأن يسوع هو الله المتجسد. وبعبارة أخرى، لنفترض أنك عملت مقابلة بين الاعتقاد أن يسوع لم يكن سوى مجرد إنسان فقط (ونسمى هذا الاعتقاد "أ") والمعتقد المسيحى التاريخى أن يسوع إله- إنسان (المعتقد"ب"). فإذا ما شكل المعتقد "أ" مصاعب خطيرة للمعتقد "ب"، هنا يجب التخلى عن المعتقد "أ" لصالح المعتقد "ب"، ومن الطبيعى أن هذا لا يعنى أن "ب" (الوضع المسيحى) لن يواجه أية صعوبات، فثمة تحديات أخرى فى الانتظار، وبمقدورنا أن نسميها جـ..، د. الخ. ويتعين أن نتأمل كلاً من هذه على الترتيب. وسوف نكتشف أن التجسد (ب)، لن يتجنب الصعوبات التى تواجهها النظريات الأخرى، بل إنه سيكون سبباً جيداً لتفسير حقائق أخرى مؤكدة بأكثر مما تفعل هذه النظريات الأخرى. ولكن دعنا نهمل كل هذه النظريات التجريدية، ونتأمل بعض الأمثلة الواقعية.

والبديل الرئيسى للاعتقاد فى التجسد، هو الادعاء بأن يسوع المسيح كان مجرد إنسان. ولقد تبين، أنه حتى أقوى خصوم الافتراضات المسيحية، اضطروا إلى الاعتراف بأنه من الظلم ليسوع القول بأنه ليس مجرد إنسان. ومعظم معارضى التجسد على استعداد بأن يعترفوا أن يسوع كان إنساناً مميزاً، أنه على مستوى موسى، وجواتاما، والقديس فرنسيس الاسيسى، وغاندى، وربما على مستوى الأم تريزا. وبعبارة أخرى، كان

يسوع- ويبدو من الإنصاف أن نقول ذلك-رجلاً صالحاً. وبعض أنصار وجهة النظر هذه، قد يكونوا مستعدين للقول بأنه من بين كل البشر، ربما كان يسوع أنبلهم وأحسنهم، وأكثرهم فضيلة، ودائماً يضيفون القول بأن هذا كان كل ما يمثله. وإنه ما يزال إنساناً فقط.

إذاً، أمامنا هنا ما يسميه الفلاسفة فصل بين أ، ب. فإما أن يسوع كان مجرد إنسان صالح (أ)، وإما أنه كان الله المتجسد (ب). وعلى نهج الكثيرين فسوف أناقش فكرة أن "أ" ليس له معنى على الإطلاق. وعلى ذلك، وطبقاً لقاعدة منطق استدلالي أولي ومعروف، فإن زيف "أ" يرسخ حقيقة "ب". وفيما أنه يتعين علينا أن نتأمل البدائل المتبقية للوضع المسيحي، فلسوف نكتشف أنه ليس منها ما يتضمن مزيدا من الوعود.

وزيف "أ"، والذي بمقدورنا أن نطلق عليه (النظرية القائلة بإله واحد)، يصبح واضحاً حين نصبح على معرفة بنوعيات الأشياء التي قالها يسوع وعملها. والكثير جداً من هذه الأقوال والأعمال لا تتناغم إطلاقا مع الفرضيات التي تقول بأنه كان مجرد إنسان. وفي تقييم هذه الأقوال والأعمال الخاصة بيسوع، علينا أن نتذكر أنه كان يعمل في سياق عقيدة توحيد يهودية صارمة، وهو سياق نجد *أن الناس الذين فهموا معنى ما* قاله، سعوا إلى قتله بتهمة التجديف. ويقدم لنا (چون ستوت Jhon Stott) حصراً بعدد المرات التي قال فيها يسوع عن نفسه أنه الله. فقد علّم يسوع بأنه:

- من يعرفـه يعـرف الله.
- من يـراه فقـد رأى الله.
- من يؤمن به، يؤمن بالله.
- من يقبـلـه يقبـل الله.
- من يبغضـه يبغـض الله.
- من يكرمـه يكـرم الله.

والشخص الذي هو مجرد رجل صالح لا يقول أشياء كهذه. تخيل أنك والد لطفلين أو ثلاثة أصبحوا مبهورين بالجار الجديد الذي سكن في شارعكم. ومن الواضح أنه رجل مميز. فأنت وزوجتك معجبون بشخصه. ومحبته للآخرين توضحت في كل شيء يعمله. وكثيراً ما تقول إنه ما من شيء يسرك أكثر من أن يشب أولادك ليكونوا مثله.

لكن، افترض أن أولادك عادوا إلى البيت ذات يوم بعد قضاء ساعة أو اثنتين مع هذا الجار، وأخبروك أنه قال عن نفسه إنه كان قبل إبراهيم، وأنه والله واحد، وأنه في نهاية العالم سيأتي ثانية على سحاب السماء بقوة ومجد عظيمين ليدين الشعوب على خطاياهم. هل ستظل على موقفك بأن يشب أولادك ليكونوا مثل هذا الرجل تماماً؟ ونفس كلمات يسوع تجعلنا نتساءل ما إذا كنا نواصل النظر إليه على أنه رجل صالح.

كذلك كانت أعمال يسوع تتناقض مع النظرية القائلة بأنه كان مجرد إنسان صالح. وعلى سبيل المثال، فقد سمح للناس أن يعبدوه ويبجلوه بما لا يتناسب إلا بالله وحده. إلا أنه فى مثال من نوع مصقول بصفة خاصة -مصقول بمعنى أن أهميته كثيراً ما تغيب عن الناس إلا أنه يُلفت نظرهم إليها- قال يسوع إن له سلطاناً أن يغفر الخطايا. وكان يسوع يغفر للناس، كان يذهب إلى أبعد مما يمكن لأى أحد منا أن يعمله. فأى واحد منا بوسعه أن يغفر للناس أشياء عملوها ضدنا. ولقد فعل يسوع هذا بالطبع، لكنه غفر للناس أيضاً خطايا ارتكبوها ضد أناس آخرين. وفى كل هذه الحالات، تصرف يسوع كما لو أن الخطايا الموجهة ضد أناس آخرين كانت انتهاكات لناموسه، كما اعتبرها خطايا ضده أيضاً.

ولنتأمل ما كتبه (سى. إس. لويس) فى هذا الشأن:

"وما لم يكن المتكلم هو الله فإن (الإدعاء بأن يغفر الخطايا) يكون فى الواقع سخيفاً بل وهزلياً. بوسعنا جميعاً أن نفهم كيف يغفر شخص الإساءات التى لحقت به هو نفسه. فأنت دست على قدمى وسامحتك، سرقت نقودى وسامحتك. ولكن ماذا نقول عن شخص هو نفسه لم يُسرق ولم يدس أحد على قدمه، ومع ذلك يعلن أنه غفر لك لأنك دست على أقدام الآخرين، وسرقت نقود آخرين؟ أخف وصف يمكن أن نصف به سلوكه هذا هو أنه حماقة. ومع ذلك، فهذا هو ما فعله يسوع. لقد قال للناس إن خطاياهم قد غُفرت، ولم ينتظر أبداً استشارة الآخرين الذين لحقهم الأذى بلا ريب نتيجة هذه الخطايا. ولقد تصرف دونما تردد كما لو كان هو الطرف الذى يهمه الأمر أساساً، وكما لو كان هو الشخص الذى لحقت به الإساءة بصفة رئيسية نتيجة كل هذه الخطايا. وهذا لن يكون له معنى إلا إذا كان بالفعل هو الله الذى انتُهكت وصاياه وجُرحت محبته مع كل خطية. وإذا ورد هذا الكلام على لسان أى متكلم، ليس هو الله، فإنه يدل على شئ لا يمكن أن أعتبره سوى أنه حماقة وغرور لم أر لهما مثيلاً فى أى شخص آخر على مدى التاريخ.

إن الرأى القائل بأن يسوع لم يكن يزيد على أن يكون رجلاً صالحاً يواجه مشكلة عميقة. فعند هذه النقطة يبدأ أصحاب هذا الرأى فى بذل جهود مضنية للتخفيف مما يواجهونه من مصاعب. وثمة محاولة للجدال بأن يسوع، الرجل الصالح، لم يدع إطلاقاً هذه الأقوال التى سببت هذا الحرج للقائلين بوحدانية الله. ولكنى أخشى القول بأن محاولتهم كان نصيبها الفشل. ذلك أننا نعرف أن الأناجيل كُتبت أثناء حياة أناس كانوا شهود عيان على الأشياء التى قالها يسوع وعملها. وفى بعض الأمثلة، مثل موضوع غفران الخطايا، فإن دقة الموضوع تعطيه مسحة المصداقية. وكما يقول (چون ستوت): "لا يمكن إزالة هذه الادعاءات من تعليم النجار الناصرى. ولا يمكن أن يُقال إنها من خيال كتبة الأناجيل بل، ولا حتى أنه قد بُولغ فيها بدون قصد. ذلك أنها منتشرة وموزعة بقدر من المساواة على الأناجيل المختلفة، وأيضاً مصادر الأناجيل، فالصورة متناغمة للغاية، ومتوازنة تماماً، بحيث لا يمكن القول بأنها وليدة الخيال.

ولكن، ماذا عن بعض البدائل الأخرى (الخيارات السابق الإشارة إليها بالحروف جـ، د... إلخ)؟ إذا كان ليس هناك معنى للقول بأن يسوع كان مجرد رجل صالح، فمن المؤكد أن هناك خيارات أخرى متاحة لنا. ولكن من سوء حظ مؤيديها، فإن البدائل الأخرى يبدو أنها تواجه اعتراضات أشد. فربما يقول قائل إذا لم يكن يسوع

رجلاً صالحاً. فلعله والحالة هذه كان رجلاً شريراً. وهل من رجل شرير يحاول أن يضل الشعب حتى يعبدوه كإله؟ إلا أنه لا يوجد بالطبع أساس للتوفيق بين هذا المفهوم عن يسوع، والمعلومات المتوافرة لدينا عنه. ولعل آخرين، قد يقولون، إنه كان مختل العقل، وهذا اقتراح يتيح لنا اتخاذ موقف أخف وطأة بالنسبة لشخصه إذا ما أنكرنا سلامة عقله. أو ربما كان شيطاناً متجسداً، وهذا اقتراح بالكاد يقبله المتشككون الذين يرفضون ما هو خارق للطبيعة.

ولقد تخلّص (لويس) من كل هذه البدائل، فى عبارات صارت فيما بعد فقرة كلاسيكية معروفة".

"أحاول هنا أن أمنع أى شخص من ترديد أشياء سخيفة يقولها الناس عنه مثل قولهم: "إنى على استعداد لقبول يسوع على أنه معلم أخلاقى عظيم، إلا أنى لا أقبل إدعاءه بأنه الله". فهذا هو الشىء الوحيد الذى ينبغى ألا نقوله. فالرجل الذى هو مجرد إنسان ويقول ما قاله يسوع لن يكون معلماً أخلاقياً كبيراً. لأنه فى هذه الحالة، إما أن يكون مجنوناً- على نفس مستوى الرجل الذى يقول إنه بيضة مسلوقة- وإما أن يكون هو الشيطان بعينه.

عليك أن تختار ما تقوله. إما أن هذا الرجل كان، ومازال، هو ابن الله، وإما أنه مجنون أو أسوأ من ذلك. بوسعك أن تخرسه باعتباره أحمق، يمكنك البصق عليه وقتله كشيطان، أو بوسعك أن تخر عند قدميه وتدعوه رباً وسيداً. ولكن علينا ألا نتقبل مثل هذه التفاهات التى تقول عنه إنه مجرد معلم عظيم. ذلك أنه لم يتح لنا أن نقول ذلك، وهو لم يرد هذا".

وفى كل مرة أقدم فيها حجة (لويس) لمجموعات من طلبة الكلية، دائماً ما كنت أجد واحداً أو اثنين فى المجموعة يقدمان بديلاً آخر. ويقترحان أنه ربما كان يسوع على خطأ. ومثل هؤلاء الناس يوافقون على أن يسوع الذى يتحدث عنه الكتاب المقدس لم يكن مجرد رجل صالح، فهذا ما لم يكن ممكناً، وهم يرون بكل جلاء عدم إمكانية قبول النظريات التى تعامله كشرير أو مختل العقل. ولكنهم يقولون إنه من المؤكد أنه كانت هناك درجات من الخطأ فى القول بأنه مجنون، الأمر الذى يجعلنا أن نحتفظ بقدر من الاحترام ليسوع دون قبول وجهة النظر المسيحية عنه.

فالرد الواضح الذى يتعين أن يُرد به على مثل هذا الاقتراح هو: هناك أخطاء صغيرة، وأيضاً هناك أخطاء كبيرة -كبيرة بالفعل، فأن نقول أن: (رون ناش) هو أعظم فيلسوف فى كليفلاند قد تمثل نوعية الأخطاء الصغيرة، ولكن قولنا أن: رون ناش هو أعظم فيلسوف فى أمريكا، فإنه يمثل غلطة كبيرة. إلا أن إدعاء مثل: (رون ناش) (أو اختر اسم أى إنسان) يعتقد أنه الله إنما يشكل فى الواقع خطأ كبيراً. ومن المؤكد أن هؤلاء الناس الذين يرون في الادعاء بأن يسوع هو الله مجرد خطأ بسيط بحيث لا يقلل من إعجابنا به يجعل الأمر صعباً بالنسبة لمقدراتهم على الإقناع عند الآخرين-على الأقل بالنسبة لهذا الموضوع.

وعلى هذا، فالأمر لا يدعو للدهشة، أن كثيرين ممن تأملوا هذه الحجة خلصوا إلى أن أكثر الخيارات موضوعية -إذا أخذنا البدائل فى الاعتبار- هو الإيمان بأن يسوع المسيح هو الله. ومثل هذا القرار لا يشكل

قفزة طائشة لإيمان غير عقلانى- وهذا عمل لا يتأتى إلا بإيقاف ملكاتهم النقدية. إنه قرار مقبول وعقلانى تماماً بالنسبة لأى شخص لا تسيطر على ملكاته النقدية افتراضات المذهب الطبيعى.

وإذا ما أدرك المرء أن يسوع المسيح هو الله، فلسوف تستتبع ذلك مضامين مهمة:

أولا: إذا كان يسوع المسيح هو الله، فهذا معناه أن الله موجود. وبعبارة أخرى، من الممكن توظيف اتجاه بحثنا فى هذا القسم ليكون حجة على وجود الله.

ثانياً: إذا كان يسوع المسيح هو الله، فلن تكون تعاليمه مجرد تخمينات أو أفكار بشرية، بل ستكون هى كلمة الله. وهذا معناه أنه يوجد بالفعل إعلان إلهى خاص أعلن الله فيه الحق للبشر. وفضلاً عن ذلك، إذا كان يسوع هو الله، يكون لدينا أكثر من إعلان من الله بلغة البشر. لقد أعلن الله ذاته- شخصه، طبيعته، صفته بطريقة حية. وأن تعرف تعليم يسوع معناه أنك عرفت تعليم الله، وأن تعرف صفة يسوع، معناه أنك عرفت صفة الله، وأن تؤمن بيسوع، معناه أنك آمنت بالله، وأن تعرف المسيح فهذا يعنى أنك عرفت الله.

وفضلاً عن ذلك، تأمل الأمور الأخرى التى بوسعنا أن نستقر عليها: ما أن نعرف أن يسوع هو الله وأن كلامه هو كلام الله. فإنه ستتوافر لدينا إجابة موثوق بها بالنسبة لأكثر أسئلتنا أهمية. هل هناك إله شخصى يحبنا؟ ما هو واجبنا فى الحياة؟ كيف نصير أولاد الله؟ لماذا مات يسوع؟ هل هناك حياة بعد الموت؟

وقرارنا بخصوص تجسد المسيح ولاهوته يأخذ أكثر الأماكن أهمية فى اعتقادى الشخصى والفكرى-كما أوضحت-فإن القرار بالنسبة للفرضية المسيحية هو قرار يقف الحق فيه إلى جانبنا.

قيامة المسيح:

يقدم العهد الجديد قيامة يسوع المسيح من الأموات كحقيقة تاريخية تدعمها أقوى شهادة ممكنة لشهود عيان (١كو ١٥:٥-٨). وبالنسبة للرسول بولس، تُعد تاريخية القيامة شرطاً ضرورياً لصدق المسيحية وصحة الإيمان المسيحى (١كو ١٥:١٢-١٩). ولقد كتب بولس يقول: ".. وإن لم يكن المسيح قد قام فباطل إيمانكم. أنتم بعد فى خطاياكم. إذاً الذين رقدوا فى المسيح أيضاً هلكوا. إن كان لنا فى هذه الحياة فقط رجاء فى المسيح فإننا أشقى جميع الناس" (١كو ١٥:١٧-١٩).

والقيامة هى الحدث الأساسى فى العهد الجديد. وهى ذروة كل إنجيل، ولقد قُدمت حياة يسوع كمقدمة لموته والقيامة التى أعقبته. وموعظة بطرس فى يوم الخمسين -الذى هو عيد ميلاد الكنيسة- أكدت عدة مرات أن يسوع الذى مات على الصليب قام من الأموات بقوة الله. وشرح بولس مراراً تجدده واعتناقه المسيحية، الذى لم يكن له من تفسير سوى أنه جاء نتيجة لقائه بالمسيح المقام. ولقد كتب (أ.م. رامزى A.M. Ramsey) يقول:

"الإنجيل بدون القيامة، لن يكون مجرد إنجيل يفتقر إلى أصحاحه الأخير فقط، بل لن يكون إنجيلاً على الإطلاق... ومذهب التوحيد المسيحى، هو توحيد جاء وليد القيامة. وطبقاً لما ذكره (ألن ريتشاردسون Alain Richardson):

"الحق السائد الذى يمكن أن نتعلمه من كل جزء من الأناجيل، وليس فقط من الأقسام الختامية، هو أن الإيمان الأساسى للمجتمعات التى كُتبت فيها ومن أجلها هو الإيمان بيسوع باعتباره الرب المقام، وبدون هذا الإيمان ما كُتبت الأناجيل، والإيمان بقيامة المسيح لا يشكل ناحية من تعليم العهد الجديد بل يشكل جوهره".

فى بعض أجزاء العالم المسيحى أصبح من عادة العصريين أن يحاولوا تفسير معجزة قيامة المسيح من الأموات وذلك لتصحيح ما أصابها من خطأ بحسب مفهومهم. ومن بين آرائهم فى هذا الصدد إن المسيح ببساطة استمر حياً فى قلوب أتباعه. ومع ذلك، فمثل هذه النظرية لا تتناغم إطلاقاً مع دليل العهد الجديد ومع المسيحية التاريخية، التى تصر على أن يسوع قام من الأموات، فالقبر كان فارغاً، وظهر المسيح المقام لتلاميذه فى مناسبات عديدة، ولم تكن هذه الظهورات هلوسة أو تخيلات، ولم يُسرق الجسد، ولم يفقد يسوع وعيه على الصليب ثم أفاق بعد ذلك فى القبر. لقد كان ميتاً، وهو الآن حى. وبدون هذه الحقيقة، يستحيل تفسير سبب وجود الكنيسة.

طالما لسنا تحت سيطرة افتراضات المذهب الطبيعى ، يصبح فى وسعنا قبول احتمال حدوث المعجزات، والواقع أن معجزة القيامة ممكنة. إلا أنه حين يتحول انتباهنا إلى موضوع واقعيتها ، هنا نحتاج إلى فحص الدليل وما يقوله بالنسبة لمدى قبول تفسيرات بديلة. وبعبارة أخرى، فإنه سيكون أمراً ذا معنى أن نتناول موضوع تاريخية القيامة باستعمال نفس الطرق التى استُخدمت بالنسبة للتجسد. وكل بديل للقيامة يمكن تقييمه كاقتراح، أو جزء من اقتراح يتضمن الإيمان بالقيامة من جهة، والنظرية المنافسة من جهة أخرى. وفيما نكتشف كيف أن البديل تلو الآخر غير مقبول، بسبب أو لآخر وسوف نكتشف أن الإيمان بالقيامة هو أكثر معقولية -أى أنه الدليل الأكثر عدلاً- من الإيمان بأن المسيح لم يقم من الأموات.

وكل نظرية تأخذ بمحمل الجد كل ما حدث بعد صلب يسوع يجب أن تتناغم مع النقاط التالية:

١- المسيح مات، هناك بديل للاعتقاد المسيحى بقيامة المسيح كثيراً ما يتردد ، وهو يزعم أن يسوع أغمى عليه أو فقد وعيه على الصليب. ولا يسعنا إلا أن نعتبر هذا مثالاً للتفكير المشوب برغبة من قبل المتشككين. فالرومان ما كانوا يسمحون إطلاقاً بإنزال يسوع من على الصليب وهو مازال حياً. وتفترض ما يُطلق عليها "نظرية الإغماء" أن الرومان كانوا مهملين من ناحية أنهم سمحوا لأن يسلم يسوع لأصدقائه. وبالإضافة إلى نتائج التعذيب والصلب، والتى تضمنت ليس الجروح الناجمة عن المسامير فقط بل خلع المفاصل أيضا وعدم القدرة على التنفس، ثم طُعن المسيح أيضاً فى جنبه بالحربة. ومع أن هذا الجرح لم يقتله، إلا أنه قدم دليلاً على أنه مات بالفعل.

ويذكر (چون ستوت) سخافات أخرى تضمنتها نظرية الإغماء. وهو يتساءل، هل لنا أن نؤمن:

"أنه بعد قسوة وآلام المحاكمة والسخرية والضرب والصلب، كان بمقدوره أن يظل على قيد الحياة مدة ست وثلاثين ساعة فى قبر صخرى بلا تدفئة أو طعام، أو رعاية طبية، وبعد ذلك يستطيع أن يستجمع قواه بشكل كاف، يمكنه من أن يقوم بالعمل البطولى الخاص بدحرجة الحجر الضخم الذى كان يؤمِّن فتحة القبر، وأن يفعل

هذا دون أن يلفت نظر الحراس؟ فهل كان ضعيفاً ومريضاً وجوعاناً، ورغم ذلك استطاع أن يظهر للتلاميذ وبطريقة تولد فيهم الانطباع أنه قهر الموت؟ وأنه استطاع أن يواصل إدعاءه أنه مات وقام واستطاع أن يرسلهم إلى العالم كله، ويعدهم بأن يكون معهم إلى انقضاء الدهر. وأنه استطاع أن يعيش مختفياً في مكان ما مدة أربعين يوماً، وكان يظهر خلالها بشكل مفاجيء بين آونة وأخرى وأخيراً يختفي دون أي توضيح؟ ومثل هذه السذاجة أصعب تصديقاً من شك توما".

وأخيراً. كل هذه النظريات يحطمها السبب الحقيقي لموت ضحايا الصلب. فالمصلوب يعاني آلاماً رهيبة، غير أن الخنق هو الذي ينجم عنه الموت في آخر الأمر وكذلك ظروف عملية الصلب التي تجعل عملية التنفس مستحيلة في واقع الأمر، ما لم يتمكن الضحية بطريقة ما من أن يفرد ساقيه بطريقة تسمح لعضلات الصدر والحجاب الحاجز من العمل على نحو سليم. وهذا يفسر لنا لماذا قرر الرومان كسر سيقان الرجال الثلاثة الذين صُلبوا في ذلك اليوم- والهدف من ذلك تسهيل عملية الاختناق، وقتل الضحايا، حتى يمكن لكل واحد بعد ذلك أن ينصرف إلى بيته.

غير أنه حين جاء العسكر لكسر ساقي يسوع، وجدوه قد مات بالفعل. ومن المهم أن نلاحظ هنا أن التنفس الجهيد لأي شخص يكون مازال على قيد الحياة ما كان يمكن عدم ملاحظته. وفضلاً عن ذلك، الحالة المنهارة التي يكون ضحية الصلب عليها وهو متدل، سواء كان فاقد الوعي، أو يتظاهر أنه ميت ستجعل التنفس مستحيلاً. وهناك أمر واحد لا يمكن الجدال فيه. لقد مات يسوع.

٢- وبعد الصلب، كان التلاميذ في حالة من الخوف والارتباك والذهول فلقد أشار بعض خصوم القيامة أن التلاميذ سرقوا جسد يسوع، ثم لفقوا قصة القيامة. وتتطلب هذه القصة مجموعة من الرجال ذوي العزيمة القوية الذين قد حاكوا هذه المؤامرة حتى أثناء عملية إعداد جسد يسوع للدفن. ولكن الحقيقة هي أن التلاميذ كانوا في خوف وارتباك بالغين، الأمر الذي كان كافياً في أن لا يفكروا في أي شيء سوى النجاة بحياتهم فيما كانوا يختبئون من أعدائهم. ذلك أن موت المسيح قذف بهم في هوة سحيقة من اليأس والخوف حتى إن آخر شيء كان يمر بأذهانهم هو هذه النوعية من النشاط التي تتطلبها أهداف النظرية الثانية.

٣- دُفن يسوع في قبر جديد قد نُحت في صخر. وقد أُغلق القبر بعد ذلك بأن دحرجوا حجراً كبيراً على فتحته. وإذ تملّك القلق بيلاطس البنطي خوفاً من أن يسرق التلاميذ جسد يسوع، أمر بإقامة حراسة على القبر لتأمينه حتى لا يقترب منه أحد. وبهذا ساعد أعداء يسوع على تأكيد مصداقية القيامة، وذلك بحراسة القبر حتى لا يتمكن أحد من سرقة الجسد. وكان من الطبيعي، أن يقول بعض المتشككين حتى ولو لم يتمكن أصدقاء يسوع من سرقة جسده (بسبب الحراس)، فلربما سُرق الجسد بواسطة أعداء يسوع. ولكن هذا آخر شيء يمكن أن يفكر فيه الرومان أو اليهود. فلم يكونوا مستعدين لمزيد من مواجهة المتاعب بالنسبة لهذا الموضوع، الأمر الذي كان يمكن أن يتسبب فيه القبر الخالي. وفضلاً عن ذلك، حتى لو كان أعداء المسيح قد سرقوا الجسد، لكانوا قدموه بكل ارتياح حين شرع المسيحيون يكرزون بالقيامة.

٤- فجأة ظهر أن يسوع حي، وأن القبر فارغ. والقصص البديلة لقيامة يسوع لا يمكن أن نفسر لنا وجود القبر خالياً. فثمة كثيرين قالوا، على سبيل المثال، أن أولئك الذين ادعوا أنهم رأوا يسوع وسمعوه ولمسوه، إنما كانوا يهزأون. ولكن مازال علينا أن نوضح حقيقة أن جسد يسوع- الذى وُضع فى قبر مغلق وعليه الأختام، كما وُضعت عليه حراسة -غير موجود. وفضلاً عن ذلك فإن هذه الأوهام المزعومة لا تتناغم مع هذا الادعاء. فالهلوسة ليست معدية. فلو ادعى تلميذ أو اثنان بأنهما رأيا يسوع، لكان من الممكن أن نرفض ادعاءهم على أنه هلوسة. ويوضح (وليم لين كريج) بعضاً من الأمور الكثيرة الخاطئة فى نظرية الهلوسة:

أولاً: كثيرون قد رأوا يسوع عند ظهوره وليس شخص واحد فحسب.

ثانياً: لم يره كل منهم على انفراد، بل رأوه جماعة.

ثالثاً: لم يظهر مرة واحدة فقط، بل عدة مرات.

رابعاً: لم يروه فقط، بل لمسوه، وتحدثوا معه، وأكلوا معه.

خامساً: وهذه نقطة حاسمة، فقد فشلت نظرية الحماسة الدينية فى تفسير غياب الجسد. كان من المستحيل على تلاميذ المسيح أن يصدقوا قيامة سيدهم من الأموات، لو ظل جسده باقياً في القبر. غير أنه-وبنفس القدر من عدم التصديق-لا يمكن افتراض إمكانية قيام التلاميذ بسرقة الجسد ونشر هذه الخدعة. وزيادة على ذلك، كان يستحيل ولادة المسيحية فى أورشليم لو كان جسد يسوع مازال فى القبر هناك. ومن المؤكد أن السلطات اليهودية كانت قد قدمته على اعتبار أنه ذلك أقصر وأكمل رد على الموضوع كله. غير أن كل ما استطاعوا أن يفعلوه هو ادعاؤهم أن التلاميذ سرقوا الجسد. وهكذا فإن نظرية الحماسة الدينية (نظرية الهذيان) إذ أخفقت فى تفسير غياب جسد يسوع، انهارت أخيراً، واستُبدلت بنظرية المؤامرة والخداع، والتى... تم التخلى عنها أخيراً بالنظر إلى إخلاص الرسل الواضح، فضلاً عن أخلاقهم والمخاطر التى تحملوها فى سبيل إعلان حقيقة قيامة يسوع.

الهلوسة بطبيعتها تتطلب من هو مهيأ لاستقبالها، وتتطلب شخصاً يريد أن يرى شيئاً، أو يتوقع رؤيه شيء ما. ولم يكن التلاميذ مهيئين نفسياً لمثل هذه الهلوسة. وآخر شيء كان يتوقعه أى منهم هو رؤيه يسوع حياً.

كانت شهادة شهود العيان للقيامة قوية، ذلك أن الذين ادعوا رؤية يسوع كانوا أناساً لا يرقى إليهم الشك. وسجلات شهادة شهود العيان هؤلاء جاءت فى وقت مبكر جداً من تاريخ العقيدة المسيحية. وأخبار قيامة المسيح لم تكن أسطورة بدأت تنتشر فى سنوات لاحقة. بل كانت شهادة قائمة على روايات شهود عيان يمكن أن تقع فى السنوات التى تلت الحدث مباشرة، وأعلنت بشكل علنى أثناء حياة أناس كانوا على قيد الحياة حين وقعت هذه الأحداث.

٥- أما شهود عيان القيامة فقد تغيروا فجأة. فبعد موت المسيح مباشرة، اختبأ التلاميذ المرتعبين خلف أبواب مغلقة، خوفاً من أن يحل الدور عليهم ليلقوا حتفهم. غير أنه فى يوم الخمسين، وكان هذا بعد ذلك

بأسابيع قليلة، نرى نفس هؤلاء الرجال وبكل شجاعة، يكرزون علانية بقيامة المسيح من الأموات. لم يعودوا بعد يرهبون الموت، وقد استُشهد معظمهم بسبب إيمانهم، ولاسيما قناعتهم أن المسيح قام من الأموات. ومن بين الأدلة الكبرى التى يجب أن تفسرها بدائل القيامة هي أصل الكنبسة المسيحية. فلو لم تحدث القيامة على الإطلاق، فما هي القوة أو الاختبار الذى غيّر تلك الزمرة الصغيرة من تلاميذ خائفين إلى رجال ونساء كانوا على استعداد لتحمل الآلام والموت الرهيب بسبب رفضهم إنكار حقيقة القيامة؟ ما الذى غيرهم إلى رجال ونساء حملت جهودهم الكرازية الإنجيل إلى كل بقاع العالم الرومانى، بل وأبعد من ذلك؟

وتتبقى مجموعة كبيرة من أدلة إضافية -سواء مباشرة أو عرضية- ليس لدى وقت لمناقشتها. إلا أن الشيء الذى نعود إليه باستمرار هو حقيقة أن أناساً كراماً محترمين جديرين بالثقة، لم يكن لديهم ما يربحونه، وكانوا معرضين لخسارة كل مُتلكاتهم الدنيوية، آمنوا أن يسوع قام من الأموات بالجسد. وكما يقول (چورچ إيلدون لاد George Eldon Ladd): "ها هنا نحن على أساس وطيد. فمن المستحيل التشكيك في حقيقة إيمان التلاميذ بقيامة يسوع".

إلا أنه علينا أن نتساءل هنا: 'ما هو السبب التاريخى لهذا الإيمان؟ ما هو الحدث التاريخى الذى حملهم على الإيمان أن يسوع قد قام من الأموات؟ وما هى النظرية التى تفسر على أفضل وجه إيمان الكنيسة الأولى بأن القيامة قد وقعت بالفعل؟ ويقول (ألن رتشاردسون) "تشير كل الدلائل إلى الإقرار بأن الكنيسة لم تخلق الإيمان بقيامة المسيح من الأموات، فقيامة المسيح من الناحية التاريخية، خلقت الكنيسة وأوجدت الإيمان. وبعبارة أخرى، تكفى قيامة المسيح الفعلية، لتوضيح إيمان التلاميذ الأوائل وأصل الكنيسة المسيحية.

ويلخص (وليم لين كريج) الأمور على نحو جيد بقوله:

"تثبت جوانب كثيرة من الدليل التاريخى أن قبر يسوع وُجد خالياً عندما توجهت إليه مجموعة من النساء اللواتى يتبعنه. وفضلاً عن ذلك، لم يُقدم أى تفسير طبيعى يمكنه أن يعلل بطريقة مقبولة هذه الحقيقة. وهناك شئ آخر وهو أن هناك جوانب كثيرة من الدلائل التاريخية (تؤكد) أنه فى مناسبات عديدة، وفى أماكن مختلفة ظهر يسوع مادياً وجسدياً وهو حى بعد أن قام من الأموات وذلك لشهود عديدين. وهنا أيضاً ما من تفسير طبيعى فيما يتعلق بالهذيان يمكن أن يعلل لنا بشكل مقبول هذه الظهورات. وأخيراً... فإن أصل الإيمان المسيحى نفسه يعتمد على الإيمان بالقيامة. وفضلاً عن ذلك، فإن هذا الإيمان لا يمكن تفسيره على أنه نتيجة أية تأثيرات طبيعية. فهذه الحقائق الثلاث العظيمة التى ترسخت بشكل مستقل- القبر الفارغ، ظهورات القيامة، أصل الإيمان المسيحى- كلها تشير إلى النتيجة التى لا يمكن تجنبها: "المسيح قام من الأموات"

وتلك الأدلة لا يسهل قبولها لدى رجال ونساء العصر الحديث، كما لم تكن مقبولة عند مواطني أورشليم حين سمعوه لأول مرة من شفاه التلاميذ. لكنها أدلة تفسر على أفضل نحو كل ما نعرفه عما حدث بعد موت المسيح.

خاتمة:

تنكر وجهة النظر العالمية المعروفة باسم المذهب الطبيعى إمكانية حدوث المعجزات ذلك أن الأحداث داخل النظام الطبيعى التى تحدث بواسطة كائن خارق للطبيعة موجود خارج ذلك النظام (الصندوق) أمر يفسد توقعاتنا العادية بالنسبة لما يجب أن تكون عليه الأشياء. غير أن مؤيدى المذهب الطبيعى لا يستطيعون أن يثبتوا استحالة المعجزات من الناحية العلمية، كما أنهم لا يستطيعون إثبات صحة المذهب الطبيعى. ومن ثم، أو كما قلت، فإن المعجزات على أقل تقدير ممكنة الوقوع.

تجاوزت فى هذا الفصل، الادعاء البسيط بأن المعجزات ممكنة، وفحصت الدليل على معجزتين تولبهما وجهة النظر العالمية المسيحية أهمية بالغة- التجسد، والقيامة. وحيثما نضع جانباً الافتراضات التى تقول بها وجهة النظر العالمية للمذهب الطبيعى، ونضع أنفسنا فى إطار وجهة نظر عالمية يكون الكون مفتوحاً فيها لتأثير الله لله السيد الشخصى، ونتفحص البدائل بأمانة فى ضوء الدليل المتاح. فلسوف تكتشف تماماً أن هذا النظام (وجهة النظر العالمية المسيحية) توضح كل ما هو مطلوب للتناغم مع العقل، ومع ما نعرفه عن العالم.

وإذا كانت هاتان المعجزتان لم تحدثا إطلاقاً، فإن وجهة النظر المسيحية ستقع فى مأزق شديد. ولكن هذه الحجة لم تُقدم بعد. وإذا كانت هاتان المعجزتان قد وقعتا بالفعل (ولقد استعرضنا الأدلة الوافرة التى تدعم تاريخيتهما)، فإن الحجة بالنسبة لوجهة النظر العالمية المسيحية تكون قد اكتسبت قوة عظيمة.

الفصل العاشر

الانتصار فى معركة عالم الأفكار

من خلال هذا الكتاب دافعت عن وجهة نظر عالمية، ونظام مفاهيمى، وكيفية النظر إلى الله، وإلى النفس، والعالم. وفى هذا الدفاع شددت على إبراز أهمية تقييم وجهات النظر على أساس عدة اختبارات. ومن بين هذه الاختبارات اختبار المنطق. ويمثل التنافر المنطقى علامة أكيدة على الخطأ. وعلى الرغم من أن نقاد مذهب التوحيد المسيحى اتهموه بافتقاره إلى التناغم الداخلى بشكل أو بآخر، إلا أن اتهاماتهم لم تصمد. وعلى صعيد آخر، يبدو أن المذهب الطبيعى وحركة العصر الجديد لديهما أكثر مما يستطيعان التعامل معه فى هذا الخصوص.

هناك اختبار آخر مهم لأية وجهة نظر عالمية وهو اختبار التجربة والخبرة. ونجد هنا أنه يتعين على وجهات النظر العالمية أن تتناغم مع ما نعرفه عن العالم الخارج عنا، والعالم الذى نجده فى داخلنا. ولقد نجحت عقيدة التوحيد المسيحية فى هذا الاختبار. وكما يعبر الفيلسوف(س. ستيف إيڤانز) عن نتيجة بحثه الخاص: "يتماسك الإيمان بالله بحق مع كل ما نعرفه عن أنفسنا وعن الكون الذى نعيش فيه. وهو لا يناقض أية حقائق معروفة، ويضفى معنى لأشياء كثيرة بدونه لم يكن لها أى تفسير. والمسيحى ليس مضطراً للتظاهر بأنه لا توجد قوانين أخلاقية موضوعية، أو أن الإنسان لا يشعر فى بعض الأحيان أنه يود أن يشكر الله، أو يطلب منه معونة. والمسيحى ليس فى حاجة إلى استعارة معتقدات هامة من نظام آخر. ويفسر لنا الإيمان المسيحى لماذا يشعر الكثيرون بالإحساس بالواجب، والإحساس بالإثم، واشتهاء للحياة الأبدية، ورغبة فى الغفران.

اجتاز مذهب التوحيد المسيحى الاختبار العملى الهام. إنه نظام من المعتقدات يمكن أن يعيشها الناس، وبشكل مستمر.

وخلاصة القول، إن مذهب التوحيد المسيحى هو نظام يقدم نفسه للشخص بجملته. إلا أن هذا لبس سوى جزء من القصة. فمذهب التوحيد المسيحى هو نظام، ولكنه أبضأ أكثر من هذا. ومن ثم فهو يطلب من الناس أكثر من مجرد الموافقة الذهنية على مجموعة من الافتراضات. ومعظم الناس يدركون أن هناك فرقاً بين "تؤمن أن"، و "تؤمن بـ". فأن تؤمن أن فرضاً ما يتسم بالصحة شىء، وأن تؤمن بشخص، فهذا شىء آخر.

يعلن مذهب التوحيد المسيحى فى هذا المقام، أنه عبارة عن نظام وهناك شخص فى مركز هذا النظام. وكما يوضح (چون ستوت) هذه النقطة:

"المسيحية هى المسيح. وشخص المسيح وعمله هو الصخرة التى بُنيت عليها الديانة المسيحية. وإن لم يكن هو من قال إنه هو، ولو لم يعمل ما قال إنه جاء ليعمله، فإن الأساس سيضعف البناء الأعلى كله سينهار. انزع المسيح من المسيحية، وبذلك تفرغها من جوهرها، ولا يتبقى فى الواقع أى شىء. فالمسيح هو قلب المسيحية ومركزها وكل ما عداه نقطة على المحيط".

ويشير (ستيف إيڤانز) إلى ما يتعين أن يأتى بعد ذلك: "هناك فجوة بين المعرفة الذهنية عن من هو يسوع، وبين الالتزام نحوه. ومن الناحية المنطقية، يبدو أن أى شخص يعترف أن يسوع هو ابن الله، يكون

راغباً فى اتباعه وطاعته. إنه حق ينبغى أن يغير حياتهم. غير أنه يوجد فى الحقيقة أناس كثيرون مستعدون لإعطاء موافقتهم الشفهية على الأقل لفرضية أن "يسوع هو الله" إلا أنه يبدو أنهم لا يبالون كثيراً بيسوع، أو حتى يعيروه بعض الاهتمام. ومن الجلى إذاً أن ما هو ضرورى لتصبح مسيحيا ليس مجرد قبول فرضية على أساس البرهان، بل تغيير فى توجه الشخص كله للحياة".

وكان (إيڤانز) على صواب. فثمة أناس كثيرون ممن يؤمنون أن الادعاءات الأساسية لمذهب التوحيد المسيحى حقيقة، لم يتخذوا إطلاقاً الخطوة التالية بالإيمان بالشخص الإلهى الذى كان تجسده وموته وقيامته يشكل جوهر الأمر كله. وإنه من المهم فى هذا الصدد أن نتذكر ما كتبه الرسول بولس فى رسالته إلى رومية: "لأنك إن اعترفت بفمك بالرب يسوع وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خلصت" (رو ١٠:٩). وبولس فى هذه العبارة يربط حل مشكلة الإنسان الأساسية -تغربنا عن الله بسبب الخطية وعواقبها- بالمعجزتين اللتين لا يمكن الاستغناء عنهما، واللتين نوقشتا فى الفصل السابق. ويستحيل التغافل عن الإشارة إلى القيامة. أما الذى قد يكون أقل وضوحاً هو المعنى الذى قصده بولس حين تحدث عن الاعتراف بيسوع رباً، أى الإقرار بأن يسوع هو الله. وحين نعترف بيسوع رباً وإلهاً، فنحن بهذا نقر بأنه ليس هناك شىء آخر -حتى أنفسنا- سيعمل فى حياتنا مثل ما يعمله الله. وحين نؤمن بقلوبنا أن الله أقام يسوع من الأموات، فنحن بهذا نعبر الخط من موافقة ذهنية محضة، إلى فرضية ولاء النفس كلها للشخص الذى هو المخلص المقام والرب.

وحتى هذه النقطة -فى هذا الفصل- كنت ألخص ما يجب الإيمان به وما يتوجب أن يحدث لشخص كى يصبح جزءاً من عائلة الله. وكل هذا لا يشكل سوى خطوة أولى فى المعركة بجانب المسيح المقام وإنجيله المخلص فى عالم الأفكار. ولن يكون هناك معنى لأن ينشغل أناس فى تلك المعركة طالما أنهم يفتقدون إلى يقين أنهم حقاً جزء من كنيسة المسيح.

والخطوة التالية -بعد يقين الخلاص- لكسب المعركة فى عالم الأفكار هو فهم جدول الأعمال والرسالة التى كانا يشكلان العبء الأعظم لهذا الكتاب. وهذا يتضمن فهم أهمية وطبيعة فكر وجهة النظر العالمية، ومضمون وجهة النظر العالمية المسيحية، وتفاصيل وجهات النظر العالمية التى تتحدانا، والأدوات الفلسفية، واللاهوتية التى قدمها هذا الكتاب. إن أكثر الطرق فعالية لشن المعركة فى عالم الأفكار، هو أن تفعل ذلك على مستوى وجهات النظر العالمية.

إلا أنه حتى أفضل الناس تدريباً فى التفكير الخاص بوجهة النظر العالمية، لم يستعدوا بعد لكسب المعركة فى عالم الأفكار. وتتبقى مجموعة أخيرة من الدروس، يجب أن نعطيها اهتماماً كبيراً. وهذه الدروس متضمنة فى نفس النص الكتابى الذى اقتبسته فى البداية (أف ٦:١٠-١٨):

"أخيراً يا إخوتى تقووا فى الرب وفى شدة قوته. البسوا سلاح الله الكامل لكى تقدروا أن تثبتوا ضد مكايد إبليس، فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر مع أجناد الشر الروحية فى السماويات. من أجل ذلك احملوا سلاح الله الكامل لكى تقدروا أن تقاوموا

في اليوم الشرير وبعد أن تتمموا كل شئ أن تثبتوا. فاثبتوا ممنطقين أحقاءكم بالحق ولا بسين درع البر. وحاذين أرجلكم باستعداد إنجيل السلام. حاملين فوق الكل ترس الإيمان الذى به تقدرون أن تطفئوا جميع سهام الشرير الملتهبة. وخذوا خوذة الخلاص وسيف الروح الذى هو كلمة الله. مصلين بكل صلاة وطلبة كل وقت فى الروح".

ولقد ضمن الرسول فى هذه الفقرة موضوعاً واسعاً، ولنتأمل النقاط التالية:

(١) إنك جزء من معركة لا تُرى عادة بعين الإنسان.

(٢) لقد دبر الله كل شيء تحتاجه لتخوض هذه المعركة بنجاح.

(٣) غير أنه كي تكون ناجحاً، عليك أن تحمل السلاح، الحماية، التى وفرها الله.

(٤) لكى نتأكد من أن تكون ثابتاً، لا تتزعزع، لا تدع أحدا يسقطك.

(٥) تذكر أن العنصر الأول فى سلاح الله هو الحق.

ولسنا فى حاجة لأن نخاف من أى حق، وفى أى مجال، بالنظر إلى أن الله نفسه هو موجد كل حق. لا تعتقد أنه عليك أن تهرب من علم أو فلسفة أو أى شيء آخر كي تحمى إيمانك. فكل الحق هو حق الله.

(٦) لا تنس درع البر. فالمعركة ليست معركة فكرية فحسب. ولن تحقق نجاحاً فى هذه المعركة إذا افتقدت شخصيتك أو حياتك الأخلاقية إلى معايير الله.

(٧) تعطينا الثقة فى الإنجيل القدرة على أن نتصرف ونتحرك.

(٨) إيمانك بالمسيح هو ترس يمكنه أن يحميك من أية سهام تصوب نحوك.

(٩) تشكل خوذة الخلاص جزءاً هاماً من سلاحك. وإذا ما ساورتك الشكوك عن خلاصك، سوف يستغل العدو الثغرات التى توفرها له هذه الشكوك.

(١٠) لا تتجاهل إطلاقاً سيف الروح. ادرس كلمة الله الموحى بها. لتدع حق هذه الكلمة يرشدك ويشجعك ويعطيك حكمة.

(١١) وأخيراً، صل فى الروح. احتفظ بخطوط اتصالك مع الله مفتوحة. شاركه مخاوفك واحتياجاتك بشكل منتظم، ودعه يظهر قوته فيما يستجيب لصلواتك.

خاتمة

معظمنا يعرفون أناساً يندفعون إلى المعركة فى عالم الأفكار وهم يفتقرون إلى الأساس السليم فى الموضوعات الفكرية، أو يتجاهلون السلاح الذى وصفه بولس فى (أفسس ٦). ومعظم المعارك التى من هذا القبيل تنتهى بكارثة- إما لرسالة الإنجيل، أو فى بعض الحالات للجندى المسيحى الذى يتصف بحماسة زائدة إلا أنه غير مستعد.

كذلك معظمنا يعرف مسيحيين يبدو أنهم خائفون من المجازفة فى مناطق الحرب الفكرية فى أمامنا هذه. وقد يكون من الأفضل في مثل هذه الأمور أن تخطىء من ناحية الحذر. إلا أنه إذا كنت مسيحيا يعانى من الخجل أو الوعى بالذات أو المخاوف، فأنت تفتقر إلى الاستعداد لمثل هذا الأمر، وأريدك أن تعرف أن هذا الكتاب سيعطيك ما يكفى لتدريب أساسى للتفكير فى وجهات النظر العالمية حتى يصبح بمقدورك على الأقل أن تتماسك فى جهودك الأولى المترنحة لإنجاز شىء فى عالم الأفكار.

ولا يكفى هذا الكتاب -فى حد ذاته- لأن يعطيك كل شيء تحتاجه. وما من كتاب يطمح إلى ذلك. ولكنه يضع بالفعل أساساً. وبعد أن يصبح هذا الأساس جزءاً منك، لماذا لا تبدأ حواراً مع أصدقائك ومعارفك حول وجهة نظرهم العالمية، ووجهة نظرك أنت أيضاً؟. لماذا لا تأخذ هذه الخطوات الأولى على طريق كسب المعركة فى عالم الأفكار؟.

رونالد هـ .ناش أستاذ الفلسفة واللاهوت بكلية اللاهوت المُصلَح بجامعة سيراكوز وصاحب مؤلفات عديدة، وهو فى هذا الكتاب يضع الخطوط العريضة لنظرة المسيحية لله والنفس والعالم، ويفند حجج التيارات الحديثة التى تبهر الأجيال الجديدة. كما يناقش أهم المعتقدات المسيحية عن تجسد المسيح وقيامته.





١٠١٠٠٢٥١